في كواليس الصحافة والسياسة

تجربة ذاتية

عاطف الغمري

في كواليس الصحافة والسياسة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

الإخراج الفني

أمل فهمي

التصحيح اللغوي

طلعت الجندي

في كواليس الصحافة والسياسة

تجربة ذاتية

تأليف/عاطف الغمري

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٧

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغمري، عاطف.
في كواليس الصحافة والسياسة: تجربة ذاتية/ عاطف الغمري. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧.
١٧٦ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٣ ١٥٨٦ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الغمري، عاطف ـ المذكرات.
٢ ـ الصحافة المصرية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٩٧٩/ ٢٠١٧

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 1586 - 3

ديوى ٩٢٠

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب. يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة الا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر

تجربة ذاتية

في كواليس الصحافة والسياسة

عاطف الغمري

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٨

مقدمة

كلما أمسك القارئ كل صباح بصحيفته يطالعها، فهو يجدها تصحبه إلى عالمين؛ الصحافة والسياسة، والاثنان تجمع بينهما روابط، ليست قابلة لأن تنقطع، فكلاهما يأخذ من الآخر ويعطيه، ومن جوهر وأصل هذا الترابط، يستمد القارئ العلم بما يريد معرفته، ويستلهم مما هو مسطر، أو من بين السطور، أفكارًا تلهم العقل والخاطر.

القارئ ارتبط بالصحيفة، وارتبطت به، وحدث ذات مرة عند زيارتي لصديق، أن وجدته يلقاني بوجه عبوس، سألته ما به؟ قال: الصحيفة التي اعتاد أن يقرأها طوال سنوات مضت، لم يعثر عليها هذا الصباح، ولم تشبعه أي مطبوعة أخرى، "فالصحيفة عندي كفنجان القهوة المضبوط بعد الإفطار، إذا لم أرتشفه على مهل، ينتابني توتر وضيق".

الصحافة عمومًا، لم تكن أبدًا أوراقًا ترص فوقها الكلمات رصًا. وإلا كانت على هذا الشكل مصدر ضرر، قبل أن تكون وسيلة للنفع العام.

فالصحافة مالكة حريتها، تتدفق على أوراقها الكلمات بتلقائية الصدق، وباجتناب زيف الرأي والمشاعر، فتكون مرآة تعكس واقع المجتمع في فترة زمنية معينة، وتعبر عن ميوله وأحاسيسه وطموحاته، وتشخص بدقة ما يعانيه المواطن وما يرتضيه، وهو حين يبحث عن صحيفته في الصباح، فلكي يقرأ فيها ما كان يشغل باله وفكره في اليوم السابق، وإذا لم يجد فيها ما كان يشغله، فهي تتحول

في نظره إلى مجرد كلمات مصفوفة على ورق، وبالتالي تفقد الصحيفة دورها، كوسيلة لإيقاظ وعي الرأي العام، ونفض حالة اللامبالاة عنه، يشهد على هذا تاريخنا المعاصر، منذ كانت الصحافة في مصر، شريكًا سلبيًا في فترات تقييد حرية الصحافة، وشريكًا إيجابيًا وقت أن كانت الصحافة مطلقة السراح.

وبالنظر إلى حال الصحافة في الفترات التي تمتلك فيها حرية التعبير بغير قيود، نجدها تخلق مناخًا من العطاء المتبادل بينها وبين القارئ، فهي تهيئ الظروف لتكوين رأي عام متنور... واعٍ... نشط... متحمس... متحفز... والرأي العام من ناحيته يقبل على الصحيفة التي تخاطب ضميره، بنهم للمعرفة، فيزدهر دورها وطنيًا، ويصب هذا كله على المدى البعيد في تشكيل تيار وطني يتحرك بوعي، وقدرة، وتنظيم بالغ الحيوية.

إن دور الصحافة في مصر مسجل في وجدان الشعب المصري، منذ ظهور أول صحيفة وهي "وادي النيل" في عهد الخديو إسماعيل، التي كان قصده من صدورها، أن يضفي على حكمه وجود بعض لمسات المؤسسات ذات الحكم الديموقراطي، بعد أن كانت الصحافة حتى وقت توليه الحكم عام ١٨٦٣، ممثلة في الجريدة الرسمية التي تنطق بلسان الدولة.

وفي الفترات التي كسبت فيها الصحافة مساحة من الحرية، فقد حملت أفكار الإصلاح الديني للإمام محمد عبده، والإصلاح السياسي الذي عبر عنه زعماء وطنيون مثل مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وغيرهم من الكُتَّاب الذين طرحوا أفكارًا نهضت بالحياة الاجتماعية وطورتها.

ولو كان القارئ يمر بعينيه على رص الكلام، ما عرف التاريخ المصري هذه الأفكار التي غيرت أوضاع المجتمع، وجعلت القارئ يقرأ الصحيفة بوجدانه، فتحولت مادتها المكتوبة إلى موضوعات المناقشة اليومية في غالبية الجلسات السياسية، وفي لقاءات الأصدقاء، واللقاءات العائلية، ثم تحولت حصيلة ذلك كله، إلى تيار دافق من رأي عام متنور، واعٍ بأمور بلده، وبالتيارات السياسية إقليميًا ودوليًا.

لهذا كانت الصحافة شريكًا رئيسيًا في إثراء الوجدان المصري، بالفهم المتعمق للأمور، والاكتراث، وعمق مشاعر الانتماء، إلى أن أطلق هذا الوجدان ثورة ١٩ بشكل فعال.

وعندما صدر دستور ٢٣ فإنه توج دور الصحافة بالنص فيه، وللمرة الأولى على حرية الصحافة، وعلى الرغم من تحفظاته على بعض ما جاء به من مواد، فكانت الفترة من ١٩٢٣ - ١٩٣٠، مرحلة تحررت فيها الصحافة من كثير من القيود، إلى أن جاءت حكومة إسماعيل صدقي، فألغت دستور ٢٣، وأتت بدستور ٣٠، المقيد للحريات وتعالى التقييد على يد حكومات الأقلية، التي لاحقت الصحافة بالرقابة، والتضييق، والمصادرة، واستمر الحال على هذا النحو حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

وبانتهاء الحرب، أخذت الصحافة تعيش منذ عام ١٩٤٦ أزهى عصور حريتها، يشهد على ذلك ازدهار مصر بالكُتَّاب والمفكرين الذين أحدثوا صحوة فكرية؛ أيقظت حس الرأي العام تجاه الأوضاع التي لم تكن موضع قبول منه، فكانت أفكار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، قد غرست مبكرًا في وجدان المصريين، حتى من قبل أن تقوم الثورة. فلم تكن الثورة فكرة راودت خاطر مجموعة الضباط الأحرار، ليقدموا بعمل يعبر عنهم، لكنهم تحركوا من قلب واقع اجتماعي وسياسي، جاهز ومهيأ سلفًا للتغيير، وهم جزء منه، أو كانوا هم طليعته ليلة ٢٣ يوليو ٥٢.

لم تكن الصحافة بمعزل عن السياسة، فالتأثير بينهما متبادل ومستمر. والقارئ طرف أساسي في هذه المعادلة.

لكن القارئ متاح له العلم بالأحداث في صيغتها النهائية المنشورة، وليس النفاذ إلى كواليس إصدار الصحيفة، التي قد تجري فيها أحداث، يمكن أن تفسر للقارئ بعضًا مما حجب عنه لأسباب مهنيه أو رقابية، أو بطبيعة عملية صناعة الصحيفة، وربما يكون قد شعر وهو يقرأ الصحيفة بأن ما أحيط علمًا به، لم يشبع جوعه للمعرفة الكاملة، أو أن تكون الكواليس قد شهدت وقائع اقتصر العلم بها على صناعها.

وحكايات الكواليس هي التي أردت لها أن تكون موضوع هذا الكتاب، وهي أحداث عايشها المؤلف عبر أكثر من خمسين عامًا، عاصر فيها خمسة رؤساء بداية من عبد الناصر، وشهد حكاياتها عن قرب، ثم ما سعى هو إلى معرفته، في سنوات عمله مراسلاً للأهرام في بريطانيا، والولايات المتحدة، لسبع سنوات، من معلومات يكمل بها عن طريق عمله الصحفي، بعضًا مما كان خافيًا أو غامضًا من أحداث السياسة.

وكنت وأنا ذاهب إلى هناك أحمل في ذهني صورًا ناقصة ليست مكتملة التفاصيل - منها على سبيل المثال - الخيط الرفيع المستتر بين واشنطن وتل أبيب، طوال شهر كامل قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧.

وهو جزء من أحداث عديدة، لم يكن متاح لنا المعرفة المكتملة بها، ونحن بعيدون عن مفاتيح الصناديق المغلقة أو لأن العلم بها لا يتحقق إلا بالسعي الدؤوب وراءها داخل بلادها، لا سيما أن الوصول إلى أدق الأسرار مسموح به هناك بحكم القانون.

وهنا قد أسأل نفسي: هل ما أرويه في سياق هذا الكتاب، هو نوع من تجربة ذاتية؟ ... وهل يتلامس بعضه مع أدب الرحلات... أم هو استقصاء ميداني لأحداث شدت في وقتها الاهتمام، ثم توارت في دروب الذكريات، أم أنها تجمع بين هذا كله؟

ولم يكن القصد هو أن أطوف بعمومية الذكريات، بل أن ننظر معًا في مرآة، نرى فيها ما يهمنا في حاضرنا، ولعل رواية ما كان وما جرى عبر رحلة تجاوزت الخمسين عامًا من العمل الصحفي، تحمل إجابة على السؤال.

عاطف الغمري

٢٠١٥

الفصل الأول

كواليس الصحافة في عصر عبد الناصر

كنا في بداية الستينيات، ونحن على عتبات الحياة العملية، والبلد تحلق بالناس إلى أعلى الآفاق، أحلام لاحت لعيوننا، كأنها واقع، تكاد الأفئدة تحلق معه، وهو يقترب معنا ونحن نقترب منه، ويومًا بعد يوم، تتراءى المسافة أمامنا وهي تضيق بين الحلم والواقع، وفي مناخ معبأ بطاقة هادرة من الحماس لوطن يرتقي إلى مكانه يستحقها، وجدت نفسي - مثل آخرين من هذا الجيل - مأخوذًا عقلاً ووجدانًا، إلى اختبار العمل في سلك الصحافة.

في تلك الفترة، كانت العقول منبهرة بمشروع قومي عظيم، تعلو فوق الأرض قواعده وأركانه، تهفو له نفوس المصريين ونحن متعلقين به، وداعمين له، لم تكن الصحافة اختياري الأول، فقد ارتبطت دراستي بقسم العلوم السياسية، بجامعة القاهرة، بنية التقدم لامتحان وزارة الخارجية بعد التخرج، أملاً في الالتحاق بالسلك الدبلوماسي.

ولما كانت قد دخلت أجواء الصحافة، للتمرين لمدة عامين، وأنا مازلت بالسنتين الأخيرتين بالجامعة، فإن هدفي لم يخرج عن الرغبة في اكتساب معارف ومعلومات من التمرين الصحفي، تقيدني عند التقدم لامتحان الخارجية.

لكن عالم الصحافة، استوعب تفكيري، وعدل مساري، إلى اختيار العمل الصحفي فور تخرجي عام ١٩٦٣، وأخذت تتوارى في تفكيري فكرة وزارة الخارجية، التي لم أتقدم لامتحان القبول بها حين أعلن عن موعده، ولما كنت قد اعتدت منذ سنوات التعليم بالمدارس، أن يكون الكتاب والجريدة بجميع إصداراتها، رفقاء لي، فقد وجدت العمل الصحفي، يأخذني إلى دنياه يحتويني إحساس غامر بأن الصحافة ليست وظيفة، بل هي مهنة يلعب من ينزل إلى ميدانها دورًا، إيمانًا منه بأنه ميدان يتيح له التعبير بحرية عن رأيه، وفي وقت كان فيه الوعي العام في مصر، في حالة تفاعل مع ثورة ١٩٥٢، التي راحت منذ عام ١٩٥٦، ومع بدايات الستينيات، تجسد لهم ملامح الحلم والأماني، بمستقبل يرتقي بمصر نحو التقدم والازدهار والمكانة.

كانت مصر في بداية الستينيات عامرة بالأحلام، فهناك سياسات تهتم بالمواطن الفقير ومحدود الدخل، في إطار رؤية واضحة للعدالة الاجتماعية، ومشروعات للتصنيع تقام على الأرض، وليست مجرد أماني لا تتحقق، ودولة يتردد صدى اسمها في أنحاء العالم، تقود حركات التحرر الوطني في أفريقيا وغيرها، ومواطنون يعتزون بانتمائهم لوطن يصحو ويتحرك للأمام، وبعد سنتين من التمرين والعمل، تخرجت في الجامعة، وعينت محررًا للشئون الخارجية بدار أخبار اليوم.

كانت تلك الفترة خصبة بأجواء تنعش الأفكار، لبناء دولة تنهض، وتقوى، وتتخطى الحدود التي فرضت عليها قوى خارجية ألا تتجاوزها، ولتبقى حركتها داخل محيطها المحدود.

كانت الصحافة في حالة تماس مع السياسة، مما أتاح لنا أن نرى في كواليس صناعة الصحيفة، ما لا يبصره القارئ على صفحاتها. وكثير مما نراه نحن في الكواليس كان يحفز العقل للتفكير والتساؤل، وأحيانًا التعجب، وبعضه يوسع أمامنا مجال الرؤية، ويحرض على تشكيل رؤية لما نعايشه، ونحن نشهد عن قرب طبيعة العلاقة بين الصحافة والسياسة، والتداخل بينهما.

وفي بداية الطريق، في دار أخبار اليوم لفتت انتباهنا حكايات وحكايات، لا علم للقارئ بها، وتلك الحكاية هي من أول ما استوقفنا، ونحن لا نزال نحلم.

الموظف الذي يستدعي كبار الصحفيين بالتليفون

عادة ما يتوقف مركز التفكير في العقل أمام المفارقات المضحكة المبكية، التي تبقى عالقة في الذاكرة، وتتجدد صورتها كلما تكررت الواقعة في صور مشابهة لها عبر السنين.

حين التحقت بدار أخبار اليوم، وجدت الزملاء يتندرون على حكاية الموظف الذي جاء به الوزير كمال رفعت (وهو من الضباط الأحرار المعروف بمواقفه الوطنية)، الذي عين في أول الستينيات مشرفًا على أخبار اليوم، وقام هو بتعيين هذا الموظف مديرًا لمكتبه، ولضرورات العمل كان يطلب منه أن يدعو كبار الصحفيين إلى مكتبه في الدور التاسع ليناقشهم في أمور المؤسسة، وبعد فترة تسلط على مدير مكتبه شعور طاغ بالزهو بنفسه. شرحه وهو يجالس بعض المحررين الشباب في المؤسسة، ويدردش معهم، كان يقول: قبل أن آجي إليكم، كنت أتصور أن الصحافة شيء كبير وخطير وصعب ثم اكتشفت أن الصحافة ليست على هذه الصورة، فأنا أدير قرص التليفون وأطلب كِبارهم فيصعدون إلى هنا... محمد التابعي، وكامل الشناوي، ومصطفى وعلي أمين، وغيرهم، وأدخلهم إلى مكتب الوزير... الصحافة حاجة سهلة جدًا!

وكان أنيس منصور قد أشار إلى موقف له مع هذا الموظف في أحد كتبه الصادر عام ١٩٨٨، وهو يحكيه بطريقته قال: "دعاني أو استدعاني مدير مكتب الوزير كمال رفعت المشرف على أخبار اليوم، وهذا الاستدعاء حدث مرموق، يرويه عامل الأسانسير، والساعي الواقف أمام مكتبي ومكتبه، وفرصة ليعرف العاملون في أخبار اليوم نوع اللقاء، من النظر إلى وجهي ذهابًا وإيابًا".

أخبار اليوم مؤسسة عريقة راسخة في عالم الصحافة، تتربع على قمتها باقة تضم أسماء كُتَّاب وصحفيين، لكل منهم شخصيته المتفردة، الذين يتابع كتاباتهم الملايين في مصر والعالم العربي ومن حولهم براعم لشباب يستظلون بالكبار،

ويشقون لأنفسهم مكانًا في هذا العالم البراق، بحيث نضجت البراعم بسرعة، وأصبحوا بدورهم وبعد سنوات قليلة نجومًا، لهم أيضًا قراء يتابعون كتاباتهم. ضمت الباقة مصطفى وعلي أمين، وكامل الشناوي، ومحمد حسنين هيكل، ومحمد التابعي، وأحمد الصاوي محمد، وموسى صبري، وأنيس منصور، وسعيد سنبل، وآخرين.

وكان من جيلي من شباب الصحفيين وقتها عبده مباشر، وإسماعيل النقيب، ومحمود عوض، وإبراهيم سعدة، ووجدي رياض وآخرين.

ومن الذين سبقونا سلامة أحمد سلامة، وجلال دويدار، وجمال بدوي، وغيرهم كثيرون، ممن ارتقوا في سلك الصحافة، وارتقت بهم.

موسى صبري رئيسًا للتحرير
ومحرراً في الوقت ذاته

ولعل عملي بداية في أخبار اليوم، ثم انتقالي بعد سنوات إلى الأهرام، قد أتاح لي معايشة الأداء المختلف والمتميز للصحفيين، وكون كل منهما مدرسة صحفية لها شخصيتها التي تخصها.

كانت مكاتب رؤساء التحرير تقع في الطابق التاسع من مبنى أخبار اليوم القديم في شارع الصحافة، وظل موسى صبري محتفظًا بمكتبه في الطابق الأول، الذي توجد به صالة التحرير، التي تتجمع فيها مكاتب المحررين، الذين يشاركون في الإصدار اليومي للجريدة، بما في ذلك أعضاء الدسك المركزي الذين يجلسون على طاولة مستطيلة في نهاية صالة التحرير.

سياسة التحرير في أخبار اليوم لها سماتها، التي تجعلها تستحق أن يطلق عليها وصف المدرسة الصحفية، وهو الوصف الذي ينطبق على الأهرام، ودار الهلال، وروز اليوسف على وجه الخصوص.

وعلى سبيل المثال، فإن رئيس تحرير الأخبار يقوم بعمله بصفته هذه، وأيضًا بصفته محررًا، وهو نظام يختلف عما يجري العمل به في الأهرام، حيث إن رئيس تحرير الأهرام كان بمثابة قائد لمجموعة من القيادات التي كان يتشكل منها الدسك المركزي، وكل منهم لديه صلاحيات ممارسة دوره وكأنه رئيس للتحرير، في فترة قيامه بعمله، وهو نظام أوجده هيكل، واستمر على هذه الصورة لفترة معينة من بعد تركه الأهرام.

في الأخبار كان الدسك المركزي عبارة عن طاولتين في نهاية صالة التحرير، كل منهما في مواجهة الأخرى، ويجلس على إحداهما نائب رئيس التحرير، ويختص ومن معه من مساعديه بالأخبار المحلية، وعلى الناحية الأخرى يجلس المحرر المختص بالأخبار العالمية، وكل منهما يتولى إعداد المادة الصحفية للنشر بعد تسلمها من رؤساء الأقسام، وهو أيضًا تحت قيادة نائب رئيس التحرير مع العلم بأن صفة نائب رئيس التحرير لا تطلق إلا على من يقوم بهذا الدور عمليًا. وليس بالشكل الذي أخذت به معظم الصحف فيما بعد وكأنه ترقية إلى وظيفة أعلى دون أن تكون له صلاحيات نائب رئيس التحرير المسئول.

وفي الساعة الخامسة والنصف يكون رئيس التحرير - موسى صبري - قد عاد من بيته لمواصلة العمل في الفترة المسائية، فإذا كان المانشيت خارجيًا، فإنه يطلب من المسئول عن صياغة الأخبار العالمية الحضور إلى مكتبه، ويمسك قلمه ويتدخل في المادة الصحفية، وهو يراجعها بنفسه، ويحدث الشيء نفسه مع من تولى إعداد الأخبار المحلية.

وفي حالة وقوع أحداث طارئة يتخذ العمل مسارًا آخرَ، وعلى سبيل المثال ففي وقت حرب ١٩٦٧، قام موسى صبري بمد طاولة مستطيلة ملاصقة لمكتبه، وعلى شكل مسطرة حرف T، ويجلس رئيس التحرير على مكتبه وأمامه مجموعة من المحررين اصطفوا على جانبي الطاولة، وكل منهم يتولى تحرير بعض الأخبار المتعلقة بطبيعة الحرب، ويسلمها لرئيس التحرير، الذي يلعب هنا دور المحرر، أو رئيس الدسك المركزي.

ودور رئيس التحرير - المحرر - يظهر في صورة أخرى، يوم وقعت حادثة غرق الباخرة دندرة في النيل بسبب تحميلها بأكثر من طاقتها من الركاب، الذاهبين إلى القناطر الخيرية يوم شم النسيم. ونزل قسم الحوادث بكامل أعضائه إلى مكان غرق الباخرة، ومعهم موسى صبري، مشاركًا المحررين في تغطية الحادثة.

بخلاف هذه المقارنة بين مدرستين صحفيتين، تصدر كل منهما صحيفة يومية لها أهميتها وانتشارها، فإن التفاصيل كثيرة فيما يتعلق بالسياسة التحريرية التي تتميز بها كل منهما، وهو ما ينطبق على بقية المدارس الصحفية، التي تكونت لكل منها عبر السنين شخصية تنفرد بها وتميزها عن غيرها.

وإن كانت مساحة الحرية التي تتمتع بها كل منها في إدارة سياستها التحريرية، قد تعرضت في فترات مختلفة لقيود تحد منها على يد الرقابة. والرقابة صاحبة سطوة، تتصادم مع معنى حرية التعبير، التي يفترض أن الصحافة نشأت وتطورت وعاشت بها ولها.

وكالعادة تختزن الذاكرة من الوقائع التي مرت عليها وراء الكواليس، ما يعد من قبيل المفارقات، المثيرة للتأمل.

الرقيب يمنع نشر إعلان عن حفل لمطربة مشهورة

حتى الآن، لا تفارق الذاكرة، واقعة عشناها في عام ١٩٦٧، عقب النكسة، وما لحق بها من أحداث أبرزها الخلاف بين الرئيس والمشير، الذي انتهى بإعلان انتحاره.

كنا نجلس على طاولة الدسك المركزي بالأخبار، وعلى الطاولة المواجهة لنا، يجلس وسط زملائنا المحررين، الرقيب القادم من مصلحة حكومية، وبالتحديد من مصلحة الاستعلامات، (كما كان يطلق عليها في هذا الوقت)، وتمر عليه بروفات جميع الصفحات قبل الطبع، وطبقًا للتعليمات الصادرة له من رؤسائه، والمدونة معه في قائمة يومية بالممنوعات، فهو يحذف أو يعدل في بعض الأخبار. وإذا استعصى عليه أمر، يتصل بالتليفون برئيسه الأعلى يطلب منه النصح والمشورة.

ذات يوم توقف الرقيب أمام إعلان ليس خبرًا صحفيًا، كان الإعلان خاص بالمطربة مها صبري، عن غنائها في حفل بأحد المسارح، واتصل الرقيب برئيسه، ودار بينهما حوار هامس لم نسمعه، ثم وضع سماعة التليفون، وأمسك بقلمه ليحذف الإعلان، ويكتب عليه عبارة "لا ينشر".

والسبب كما فهمنا أن مها صبري كانت أرملة الضابط علي شفيق، الذي كان سكرتيرًا للمشير عبد الحكيم عامر، الذي عثر عليه مقتولاً في شقته في لندن... ولم يُنشر الإعلان!

قبل هذه الواقعة بسنوات كنا قد علمنا أن المشير عبد الحكيم عامر أعطيت له سلطة الإشراف على الصحافة والإذاعة والتليفزيون، ثم تغير الوضع بعد حرب ٦٧.

ظلت مشكلة الرقابة على هذا النحو، تثير غضب الصحفيين، واستمر الحال على ما هو عليه، إلى وقت صدور بيان ٣٠ مارس، وبدأت الأصوات تعلو مطالبة باحترام مبدأ حرية التعبير عن الرأي، وإلغاء الرقابة، وعادة كانت انتخابات نقابة الصحفيين، تتيح فرصة التعبير عن رفض أي قيود على حرية الصحافة، في هذا الوقت كان قد حان موعد انتخابات النقابة، وتبارى المتحدثون في اجتماع الجمعية العمومية، في الهجوم على الرقابة، والمطالبة بإلغائها، وفي مقدمتهم يوسف إدريس، الذي كان صوته مدويًا دائمًا في أي انتخابات بنقابة الصحفيين.

وكانت النقابة وقت أن كان أحمد بهاء الدين هو النقيب - قد رفعت إلى الرئيس عبد الناصر عقب مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ مذكرة تحتج فيها النقابة على فرض الرقابة على الصحف بعد نكسة ٦٧.

ولم يكن سوط الرقابة مسلطًا في كل الأوقات، على أقلام الصحفيين، ففي فترة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فلم تكن الرقابة قائمة بنفس الصورة التي شهدناها عليها، وقت حرب ٦٧، وإن كانت هناك معايير تحكم النشر يتم إيضاحها في اجتماعات يعقدها المختص من قبل الدولة بشئون الصحافة، مع رؤساء التحرير.

وظل هذا الوضع ساريًا لفترة، إلى أن ترك لرئيس التحرير التصرف. واختلفت تصرفات رؤساء التحرير، باختلاف شخصياتهم، فمنهم من كان يضع نفسه في مقعد الرقيب - "الموظف" - ويتشدد إلى أقصى درجة في الحجر على حرية الرأي، ومنهم من كان لديه من الذكاء المهني واتساع الأفق، ما يجعله يصل بالهامش المسموح به إلى أبعد مدى، ويتعامل مع زملائه بمرونة تشعرهم بقدرتهم على ممارسة حقهم في إبداء الرأي الحر، ومع مرور الوقت ووصول صحفيين أقل مهنية، إلى منصب رئيس التحرير ومنهم من هو أكثر قابلية لنفاق صاحب السلطة، فقد أخذ الهامش يتقلص عندهم شيئًا فشيئًا.

كان التقييد على حرية التعبير عن الرأي، عند الذين اختاروا العمل بالصحافة، باعتبارها ميدانًا لأداء دور، وليس اشغل وظيفة، هو مشكلتهم في عصر التنظيم السياسي الواحد وهي المشكلة التي ارتبطت بالدرجة الأولى بغياب الديموقراطية، مما جعل النظام أشبه بمن يسير على ساقين، إحداهما تتعثر في مشيتها، لغياب الديموقراطية، وما يتصل بها من آليات، والساق الأخرى عفية تتمثل في وجود مشروع وطني مكتمل النضج، يهتم بالعدالة الاجتماعية، وتضييق الفروق بين الأغنياء والفقراء، ومكافحة البطالة، والتوسع في فرص التعليم، وإطلاق مشروع للتصنيع، وخطة لمضاعفة الدخل القومي كل عشر سنوات، وهو ما رسم في عيوننا صورة للصحافة بأنها واقعة في مشكلة.

وليس من اليسير إغفال ما عرفناه من إدراك قادة ثورة يوليو ٥٢ مبكرًا، لقيمة الديموقراطية، وأثرها الفعال في استقامة الحياة السياسية الاجتماعية، وهو ما جعلهم يدرجونها ضمن المبادئ الستة للثورة، عندما نص المبدأ السادس على إقامة حياة ديموقراطية سليمة.

ولم يتحقق هذا المبدأ، ولم تقتصر تأثيرات غيابه على السنوات الأولى لعدم الأخذ به، فقد تحول غياب الديموقراطية والتقييد على حرية التعبير إلى ميراث وثقافة، استمرت وترسخت في عقل الأنظمة اللاحقة، وهو ما بلغ مداه في السنوات الأخيرة من حكم مبارك، بتوريث الحكم لابنه، وكان ذلك خطأ النظام

السياسي في فترة الستينيات، وإن كانت إنجازاته التي راعت مبدأ العدالة الاجتماعية قد وازنت الإخفاقات السياسية، وتجاوزتها، مقارنة بما كانت الأنظمة تتبعه من سياسات لاحقة في البعد الاجتماعي.

في هذه الفترة كنت لا أزال أعمل في مؤسسة أخبار اليوم، التي مرت بها عهود وأحداث متتابعة، شملت إلقاء القبض على مصطفى أمين، إلى أن أفرج عنه السادات، وشملت كذلك تعيين خالد محي الدين رئيسًا لمجلس الإدارة عام ١٩٦٤، إلى أن أعفاه الرئيس عبد الناصر من منصبه بعد عامين، وأيضًا تعيين محمود أمين العالم رئيسًا لمجلس الإدارة حتى عام ١٩٦٧، ثم صدور قرار من عبد الناصر بتعيين محمد حسنين هيكل مسئولاً عن أخبار اليوم، مع احتفاظه برئاسته للأهرام، وقد استعان هيكل بجلال الدين الحمامصي، مشرفًا على العمل اليومي بأخبار اليوم.

إحسان عبد القدوس في أخبار اليوم: حكايات مواقف في الكواليس

هنا أتوقف أمام فترة تولي إحسان عبد القدوس رئاسة تحرير جريدة أخبار اليوم الأسبوعية عام ١٩٦٦، إلى أن قرر السادات بعد توليه الرئاسة عام ١٩٧٠، أن يكون إحسان رئيسًا لمجلس الإدارة إلى جانب رئاسته لتحرير أخبار اليوم.

وسبب وقفتي أمام تلك الفترة، أنني اقتربت كثيرًا من إحسان عبد القدوس، واستمر تواصلي معه على المستوى الإنساني، من وقت حضوره إلى أخبار اليوم عام ١٩٦٦، حتى وفاته.

شهدت فترة إحسان مواقف صحفية وسياسية، امتزجت فيها مكونات شخصيته الفريدة، التي نضجت منذ فجر شبابه، حين مارس دوره كاتبًا سياسيًا، يعبر عن رأيه بحرية كاملة، وهو ما عرضه للمحاكمة، والاعتقال، والسجن. ومارس أيضًا دوره كاتبًا روائيًا مبدعًا، فتشكلت له من الناحيتين، السياسية والأدبية، رؤية ممتدة ينطلق فيها خياله إلى أبعد من حدود النظرة المحدودة للواقع الماثل أمام عينيه.

جاء إحسان عبد القدوس رئيسًا لتحرير أخبار اليوم الأسبوعية، وقتها كنت محررًا بالأخبار، وكنت كغيري من الزملاء. نكتب في أخبار اليوم وفي آخر ساعة، ولفت نظره موضوعًا نشرته في أخبار اليوم وقت مجيئه عام ١٩٦٦، فوجدت تليفونًا من مديرة مكتبه السيدة نرمين القويسني تقول: الأستاذ إحسان يريدك، صعدت إلى مكتبه في الدور التاسع، ووجدته يثنى على الموضوع، ويطلب مني أن أستمر في هذا النوع من الكتابة، وأن أحضر الاجتماع الأسبوعي يوم السبت لطاقم التحرير في أخبار اليوم، في أول اجتماع اتضحت طريقة تفكيره، فقد راح يشرح تصوره لمواد الجريدة. كان مما قاله: نحن نصدر من أجل قراء متنوعين. وعلينا أن نحرص على تنوع المادة الصحفية، لتناسب القراء ابتداء من الحاصل على أعلى الدرجات العلمية، حتى البواب الذي يقرأ الجريدة، وفي هذا الإطار استدعى ذات مرة، ثلاثة من المحررين هم: محمود عوض، وإبراهيم سعدة، وعاطف الغمري، وشرح لنا فكرته بأننا سنتبادل كتابة، موضوعات بالتوالي كل ثلاثة أسابيع، يكون أولنا مختص بدراسة تنشر على الصفحة، والثاني يكتب عن شخصيته في الأحداث، وفي الأسبوع الثالث، يكون ثالثنا قد جهز للنشر عرضًا لكتاب أجنبي، يتناول قضية تخصنا في مصر.

وأذكر أنه عقد اجتماعًا لمجموعة أخرى من محرري الشئون الخارجية، الذين يكتبون في أخبار اليوم، وكنت أحدهم، وذلك عقب الهزيمة في حرب ٦٧، وسمعناه يقول مفتتحًا الحوار: إن الذين يصابون بجرح، سيفكرون في جرحهم، قبل أن يفكروا في جراح الآخرين، ثم أوضح المعنى الذي يقصده، فقال نحن مصابون بهزيمة موجعة، ومن الطبيعي، أن تكون موضوعاتكم عن صراعنا مع إسرائيل، قبل أن تكون عن صراعات الآخرين من الأطراف الخارجية.

بعدها بفترة دق جرس التليفون في مكاتبنا بصالة التحرير بالطابق الأول، سمعت صوت نرمين القويسني تقول: الأستاذ إحسان يريدك أن تأتي إلى مكتبه فورًا، وصعدت إلى مكتبه، وجدته يسلمني كتابًا لمؤلف أمريكي من نحو ألف صفحة، وقال: أريدك أن تنهي هذا الكتاب خلال ٤٨ ساعة، حتى ننشره في

العدد المقبل، قلت: فترة ٤٨ ساعة قليلة جدًا، خصوصًا وإنني أعمل في الأخبار يوميًا، قال: خذ أجازة من الأخبار، وسوف أتحدث معهم. وقد حدث، أخذت الكتاب وذهبت إلى بيتي وأنا أقضي اليوم بطوله، وجانبًا كبيرًا من الليل، عاكفًا على قراءة معلومات بالغة الأهمية والخطورة، الكتاب عنوانه "الحرب التي دارت مرتين"، ومؤلفه الكاتب الأمريكي كنيت لاف. "The Twice fought war"

المؤلف تنقل بين واشنطن ونيويورك، وإسرائيل، والقاهرة، وباريس، ولندن، واطلع على ملفات ووثائق، والتقى شخصيات في الحكم والمخابرات، وعرض معلومات موثقة عن كواليس حرب ٦٧، وكان مما رواه - موثقًا - إن الإعداد لحرب ٦٧ بدأ عام ١٩٥٧، عندما أرغم الرئيس ايزنهاور، إسرائيل على الانسحاب من سيناء، وبعد أن كان بن جوريون قد علق داخل الكنيست، خريطة لإسرائيل وضم إليها سيناء، جزءًا من إسرائيل.

ومن يومها أقامت إسرائيل في صحراء النقيب هياكل خشبية لجميع المطارات المصرية، وكان طياروها يجرون تدريبات هجومية يومية عليها، حتى تكون غاراتهم على مطارات مصر - حين يحين الوقت - دقيقة، وأعدت إسرائيل فخًا لمصر، بحيث تتحين فرصة صدور أي قرار مصري متعجل، فتتخذ منه ذريعة للهجوم، بزعم أن مصر هي التي بدأت العدوان.

كانت هذه المعلومات بالنسبة إلينا نحن الصحفيين، بمثابة جرس إنذار، يعيد التنبيه إلى القيمة التي تمثلها حرية الصحافة، وحرية التعبير عن الرأي، ليس فقط بالنسبة إلى كاتب، وإنما بالنسبة إلى مصائر الأوطان، وأمن الشعوب، وتلك هي قيمة الديموقراطية الحقيقية والمتكاملة الأركان.

فلو لم تكن هناك رقابة على تداول المعلومات، وحظر على بعض صفحات الصحف الأجنبية، التي نطلع عليها نحن الصحفيون، بعد أن تنتزع منها الصفحات التي تتحدث عن مصر، لكان يمكن أن ينبه كاتب صانع القرار إلى الفخ الذي يجهز لمصر.

وهو ما توصلت إلى العلم به، عندما عملت في منتصف التسعينيات مديرًا لمكتب الأهرام في أمريكا، وكنت حريصًا على التنقل بين مراكز البحوث السياسية، والمكتبات، التي تقام بأسماء الرؤساء السابقين، التي تضم وثائق مهمة كانت محاطة بالسرية، ومنها مكتبة ليندون جونسون، الذي كان رئيسًا لأمريكا وقت حرب ٦٧، ومن خلال الاطلاع على كل هذه الوثائق تبين أن الصحف الأمريكية كانت تنشر أخبارًا عن جيمس انجلتون رجل المخابرات المركزية الأمريكية، الذي يعتبر حلقة الاتصال مع الموساد الإسرائيلي، وكيف أنه ظل طوال شهر مايو ١٩٦٧، يتردد على إسرائيل، وكان ما ينشر يحمل إيحاءات بأن هناك شيئًا ما يجرى تدبيره، لجر مصر إلى حرب تديرها إسرائيل، وبعلم من الرئيس الأمريكي.

كانت المعلومات المتاحة لمن يبحث عنها تضع النقط الناقصة على الحروف، عما جرى في فترة تجهيز إسرائيل لحرب يونيو ٦٧.

وبعضها كان في جعبة شخصيتين أمريكيتين لم يشغلا مقاعد في الصف الأول في سلطة اتخاذ القرار في إدارة الرئيس ليندون جونسون وهما ريتشارد هيلمز مدير وكالة المخابرات المركزية، وجيمس انجلتون رئيس وحدة مكافحة التجسس بالوكالة، وكلاهما كان له دور مؤثر في الأحداث التي أخذت تتصاعد منذ مايو ٦٧.

المعلومات المتاحة عنهما، طرحت من جديد السؤال الذي سبق أن أثاره كُتَّاب ومؤرخون أمريكيون، وإن لم يجدوا إجابة عنه وهو: هل أعطت إدارة جونسون الضوء الأخضر لإسرائيل عشية هجومها في ٦٧.

إن تقديرات وكالة المخابرات المركزية كانت دقيقة وقاطعة حول توقيت الحرب، والمدى الزمني الذي ستستغرقه، ونتائج الحرب، وإذا كان ذلك صحيحًا فلماذا وافق جونسون على أن يزور السيد زكريا محيي الدين نائب الرئيس عبد الناصر، واشنطن، لاستطلاع فرص إيجاد تسوية للأزمة بالطرق الدبلوماسية؟

كانت علاقة جونسون مع هيلمز قد أصبحت وثيقة منذ أن عينه مديرًا لوكالة المخابرات المركزية في مايو ١٩٦٦، ويقول هيلمز في مذكراته لقد وصفت علاقة العمل بين الرئيس جونسون وبيني بأنها علاقة ممتازة golden، بالدرجة التي كان يأملها أي مدير للوكالة.

وزاد من قوتها قلة خبرة جونسون بالشئون الخارجية وكان من أهم المهام التي كلف جونسون بها هيلمز هي التحليل الذي كان يقدمه إليه عن حرب ٦٧ من قبل وقوعها.

وكان هيلمز يعتمد أساسًا في إعداد هذا التحليل على قوة العمل Task Force التي تكونت في مايو ١٩٦٧ ومن خلالها كانت الوكالة ترد فورًا على أي أسئلة من البيت الأبيض حول الأزمة، التي لاحت بوادرها بين العرب وإسرائيل، وفي ٢٣ مايو، قام جونسون باستدعاء هيلمز من جلسة استماع كان يحضرها بالكونجرس، والذهاب إليه فورًا إلى البيت الأبيض، وطلب منه تقديم تقدير موقف للوضع الذي يزداد توترًا في الشرق الأوسط، ولم تمض سوى أربع ساعات حتى كان هيلمز قد سلم إلى جونسون ورقتين: الأولى عن حالة التأهب في مصر والقدرات العسكرية لكل من العرب وإسرائيل، والورقة الثانية مذكرة بعنوان "من الذي سينتصر في الحرب؟" وجاء فيها أن إسرائيل يمكنها أن تدافع عن نفسها بنجاح ضد أي هجمات تدور على كل الجبهات في وقت واحد.

وإلى جانب هاتين الورقتين، تسلم البيت الأبيض تقريرين من مجموعة العمل المختصة بالعلاقة العربية الإسرائيلية، التي شكلت في أوائل عام ١٩٦٧ بالإضافة إلى تقارير مخابراتية ظلت تقدم طوال شهرين من مكتب مختص بالتسجيل المستمر للقوة النسبية إلى الجانبين العربي والإسرائيلي واستعدادات كل منهما.

أي أن المعلومات كانت كاملة وصريحة أمام الرئيس جونسون خصوصًا من خلال هيلمز.

الشخصية الأخرى وهي جيمس إنجلتون، وقد كانت أنباء اتصالاته المستمرة مع الإسرائيليين ما بين واشنطن وتل أبيب تتردد وكان هو المسئول في المخابرات المركزية عن التنسيق مع الموساد، ويحيطهم علمًا بالصورة التي رسمتها تحليلات المخابرات المركزية للموقف، وقد حدث بعد يومين من تقديم هيلمز للورقة التي تحمل عنوان "من الذي سينتصر" إلى جونسون أن أرسلت إسرائيل تقييمًا من الموساد إلى الولايات المتحدة يزعم أن الجيش الإسرائيلي تعرض لقصف شديد من موقع عربي بأسلحة سوفيتية، وكانت إسرائيل تستغل علاقتها الخاصة مع انجلتون لإعطاء قوة دفع للموقف الذي يتكون في واشنطن، ولتهيئة الظروف لجر مصر إلى حرب ٦٧.

وعلاقة انجلتون بالمخابرات الإسرائيلية قد ازدادت متانة، لأنها كانت تزوده بمعلومات سرية عن الاتحاد السوفيتي والدول الحليفة له، التي تحصل عليها من المهاجرين اليهود من هذه الدول.

وقد ظل انجلتون شخصية تحيط بها علامات استفهام في واشنطن، إلى أن أصبح ويليام كولبى مديرًا لوكالة المخابرات المركزية، فراح يقلص من سلطاته، إلى أن طالبه في ديسمبر ١٩٧٤، بتقديم استقالته.

حتى اليوم هناك مؤرخون في إسرائيل يقولون إن كل ما جرى في الفترة التي سبقت حرب ٦٧، لم يتكشف على الرغم من رفع الحظر عن الوثائق السرية المتعلقة بها، لكن هذه المعلومات التي خرجت من ثنايا أوراق مسئولين سابقين بوكالة المخابرات المركزية، تلقى ضوءًا على مسألة كان هناك خلاف حولها، بين مصدق ومشكك وهي عن معرفة جونسون، بموعد الهجوم الإسرائيلي في يونيو٦٧.

عبد الناصر وإحسان: صداقة بشروط

كانت لإحسان عبد القدوس علاقة صداقة مع عبد الناصر، بدأت من ناحية عبد الناصر من قبل الثورة، قارئًا متابعًا لمقالات إحسان عبد القدوس، وحملاته القوية على القصر، والاستعمار، والفساد.

وحين قامت الثورة كان إحسان من الكُتَّاب الذين رحبوا بها وأيدوها، ولأنه كان من الصحفيين الذين لا تتلون مواقفهم، وبقيت قضيته العدل، والحرية عنده هي بوصلته، وليس الأشخاص، أو الأنظمة، فإنه أقدم على ما آثار غضب زعيم الثورة، حين كتب مقالاً ذكر فيه أن مصر قبل الثورة كان يحكمها ملك، أما اليوم فيحكمها أحد عشر ملكًا، وكان يقصد عدد أعضاء مجلس قيادة الثورة.

ولم تتوقف مجلة روز اليوسف التي كان يرأس تحريرها عن انتقاد تصرفات مجلس قيادة الثورة.

فصدر قرار بسجن إحسان، وقضى فيه ثلاثة شهور، إلى أن أصدر عبد الناصر أمرًا بالإفراج عنه، ودعاه فور خروجه للحضور إلى منزله ليتناولا إفطارهما معًا.

ويصل إحسان إلى المنزل بسيارة بعث بها الرئيس إلى السجن فماذا كان رد فعل صحفيو روز اليوسف يومئذ؟... قرروا ألا يأتي أي ذكر لمجلس قيادة الثورة، فيما ينشر في المجلة من أخبار أو مقالات أو تحقيقات.

وعبد الناصر مثله مثل بقية الرؤساء، يعرف قدر الصحافة، ودورها، لكن غالبية الرؤساء لا يستطيعون مقاومة نزعة غريزية لديهم لتقييدها، طالما في يدهم سلطة تسمح لهم بذلك، وكانت الرقابة هي وسيلتهم إلى ذلك، وإن اختلف الأمر من رئيس لآخر، في التعامل معها، وبالنسبة إلى عبد الناصر فقد كان يعرف قدر الصحافة كمؤسسة لها أهميتها للرأي العام.

محنة الديموقراطية الناقصة والموروثة

عشنا عصر عبد الناصر مأخوذين بصعوده بحلم المصريين إلى غد عزيز، تحتويه دولة قوية ناهضة، وتابعنا بحماس منقطع النظير، بدايات مشروعه القومي، وخططه للعدالة الاجتماعية، وعلو مكانة الدولة بين دول العالم، وتتحفظ العقول في الوقت ذاته على غياب الديموقراطية، وقيام الحياة السياسية، على تنظيم سياسي واحد، لا يسمح بالرأي المخالف، على حين أن الصحافة لا تقوم لها قائمة، إذا لم تمارس دورها بالمخالفة، كلما اقتضت الأحداث ذلك، وكلما وجب عليها التنبيه والتحذير والتنوير.

مثلما عشنا عصر السادات نتلقى بالترحيب بدايات قيام الأحزاب، أملاً في فتح طريق للديموقراطية، ويصطدم الأمل بممارسات حزب واحد، يستند إلى السلطة، ويستمد قوته منها، ويحيل التعددية إلى شكل بلا مضمون.

وتنتعش فينا مشاعر الفخر بقرارات السادات، خوض الحرب في أكتوبر والنجاح الذي تحقق بسبب تخطيط علمي مدروس للحرب، وباختيار لأفضل القيادات، العسكرية، فيما يشبه مشروعًا قوميًا، كان يمكن لو طبقت المعايير نفسها في الحياة المدنية، لحقق لمصر نهضة شاملة. لكن المشروع القومي توقف داخل حدود العمل العسكري ولم يتخط الحدود إلى الحياة المدنية، وتلا ذلك دخولنا مرحلة انفتاح اقتصادي، دون خطة اقتصادية لبناء قاعدة إنتاجية قوية.

لمست معضلة هذه الازدواجية، عندما أتيحت لي فرصة الاقتراب من خزائن بعض من عاصروا السلطة من داخلها، وكانوا شهود عيان، ولمست من خلال حوارات مطولة معهم، كيف أدت هذه المعضلة في بعض الأحيان إلى إرباك خطى الرئيس، وهو يقف بين جاذبية السلطة المطلقة، وبين الديموقراطية المراوغة.

مراد غالب يفتح الصندوق المغلق

كان ذلك عقب انتهاء فترة عملي في واشنطن، رئيسًا لمكاتب الأهرام في الولايات المتحدة، وعودتي إلى القاهرة، فاقترحت على رئيس التحرير تقديم مذكرات بعض الشخصيات السياسية، الذين لم ينشروا مذكراتهم ممن كانوا على اتصال مباشر برؤساء مصر، وعملوا معهم أو اقتربوا منهم داخل غرفة صناعة القرار، ولم يكن هدفي مجرد سرد تاريخي للأحداث، إنما استخلاص الدروس والعبر من وقائع تاريخية مضت، نستفيد منها في ظروفنا الصعبة الراهنة.

كنت لا زلت مقتنعًا بأن كل المحن والخطايا والكوارث التي تعرضت لها بلادنا واستمرت معنا، معلقة في رقبة غياب الديموقراطية، وما يلحق بها من حرية التعبير عن الرأي، وهو الدور المنوط بالصحافة ابتداء، إلى جانب قنوات التعبير الأخرى، من أحزاب سياسية حقيقية، ومنتديات للفكر الحر، ونشر للكتب والمؤلفات.

ووضعت قائمة بالشخصيات التي سأتحاور معها لكتابة مذكراتها، بحيث يكون الهدف الذي أشرت إليه، هو محور هذا العمل.

وبدأت بالدكتور مراد غالب الذي كان قريبًا من عبد الناصر، وتعامل معه بشكل مباشر، خصوصًا في الفترة الغنية بالأحداث وقت أن كان سفيرًا لمصر في الاتحاد السوفيتي، التي رأى خلالها رأى العين، "مؤامرات القصر"، وهو التعبير الذي توصف به الصراعات التي تجرى عند أعلى مستويات الحكم، وكانت له لقاءات مع عبد الناصر عقب هزيمة ٦٧ مباشرة، وأبصر التغير الذي حدث لعبد الناصر على المستوى الإنساني، وتحدث إليه، وسمع منه.

أمضيت ثلاثة شهور مع الدكتور مراد غالي في مكتبه بمقر منظمة التضامن الإفريقي الآسيوي التي كان رئيسًا لها، والمطلة على النيل بالمنيل، وأنا أطرح أسئلة، أو أستحث ذاكرته للتطرق إلى أحداث بعينها، وللإنصاف كانت ذاكرته يقظة، يستخرج منها الأحداث حسب توقيت حدوثها باليوم والساعة.

راح يروي لي ما دار في أول لقاء له بالرئيس عبد الناصر بعد هزيمة ٦٧، عندما استدعاه للقاهرة لمقابلته، وكيف كان هم عبد الناصر يدور حول كيفية وقوف القوات المسلحة مرة ثانية على قدميها، لتقضي تمامًا على آثار عدوان إسرائيل، هنا سألت مراد غالب: - الشارع في مصر كان يفكر فيما حدثك عنه عبد الناصر، لكن الشارع كان أيضًا يبحث عن الأسباب التي أدت إلى الهزيمة، ليس على المستوى العسكري فقط، بل أيضًا على مستوى وتركيبة النظام السياسي.

أجابني مراد غالب: - الحقيقة أن رد فعل الشارع بعد الهزيمة، وإن تمثل في تأييده الكاسح لعبد الناصر وبقائه، إلا أن التساؤلات أخذت تتردد بكثرة حول: ما هي الأسباب التي قادت إلى النكسة؟ وأين تكمن هذه الأسباب؟ ومن الذي يتحمل المسئولية؟... هل هو عبد الناصر؟ هل هو النظام بأكمله؟ هل غياب الديموقراطية؟ هل غياب الشفافية؟

وظلت الأسئلة عالقة في أذهان الناس، إلى أن قامت مظاهرات الطلبة الشهيرة عام ١٩٦٨، وتفجرت الأسئلة كلها دفعة واحدة في الشارع، وبعد هذه المظاهرات، شعر عبد الناصر، أنه لا بد من التغيير.

في أول لقاء مع عبد الناصر عقب النكسة

شعرت أني أرى شخصًا آخرَ

كان لقاؤه هذا مع عبد الناصر، في أواخر يونيو ١٩٦٧، ويقول مراد غالب: جلست أنتظره في الصالون المخصص للزوار، وما إن دخل الغرفة حتى شعرت بأنني أرى شخصًا آخرَ... هذا ليس عبد الناصر. كان منهكًا واجمًا، تظهر على وجهه بوضوح آثار الهزيمة الساحقة... يجسدها الحزن والألم، وفي تلك اللحظة التي رأيته فيها لأول مرة بعد الهزيمة، بادرني بقوله: "شايف اللي حصل لنا يا مراد"... وجرى بينهما حديث طويل، وكان ضمن ما قاله له عبد الناصر: نحن بحاجة لعملية غسيل للعقول، سواء بين القوات المسلحة، أو الشعب كله.

من الواضح أن هول الصدمة وتداعياتها المتواصلة، كان لا بد أن تستدعي إلى وعيه، الجذور الحقيقية، للنكسة المادية والنفسية، وتجسدت أمام عينيه، التركيبة السياسية لنظام، جرى فيه تهميش الرأي المخالف، وإدارة شئون الدولة عند أضيق دوائر المستوى الأعلى للسلطة، وفي غياب لحرية التعبير عن الرأي، وفي ابتعاد تام عن الديموقراطية، ولهذا كان من الطبيعي في هذا المزاج النفسي، أن يقول إننا في حاجة لعملية غسيل للعقول... وأن يشعر بأنه لا بد من التغيير.

قاد غياب الديموقراطية وحرية التعبير إلى تقليص دائرة صناعة القرار السياسي، لتدور بين رجلين اثنين - الرئيس والمشير، وصلت العلاقة بينهما إلى أقسى صورة الصراع، التي صورها مراد غالب في مشاهد جرت أمام عينيه، من جانب المشير أثناء زيارة له لموسكو، وكانت تظهر عمق الخلاف، ومشاعر المرارة في قلب المشير نحو عبد الناصر، على حد تعبيره.

لم يكن ذلك يختلف عما رواه لي الدكتور عزيز صدقي، عن خفايا العلاقة بين الرئيس والمشير، والرئيس يقول له بعد هزيمة ٦٧ مباشرة: - "يا عزيز أنا لم أكن أقدر على تعيين نفر في الجيش"، لم يكن هذا ليحدث لو كانت هناك دولة مؤسسات، تدعمها وتحصنها ديموقراطية متكاملة الأركان، وحرية تعبير عن الرأي مصونة.

ويظل السؤال الدائم يلح على الذهن. وما الذي كان سيصل إليه المشروع القومي لعبد الناصر، لو توافرت له هذه الضمانات؟

فعبد الناصر كان لديه مشروع قومي، له أبعاده الاقتصادية والاجتماعية، الذي وسع من قاعدة الطبقة الوسطى، بالتوسع في التعليم الجامعي، وإنشاء جامعات إقليمية في المحافظات البعيدة عن القاهرة والإسكندرية، وتوفير فرص عمل لخريجي الجامعات، وانحياز واضح للعمال والفلاحين وخطط للتصنيع، وبرامج هائلة للتغيير في كافة جوانب الحياة في مصر، وقيادة دور عالمي لمصر خارج حدودها، جعل اسم مصر يتردد في كل القارات. ثم حطت هزيمة ٦٧ على مصر لتصيب المشروع القومي لعبد الناصر، بضربة قاصمة، والسبب حياة سياسية هشة في الداخل، وخلو من الديموقراطية، والرأي المخالف، وحرية الرأي والتعبير؛ ناهيك عن المؤامرة الخارجية وتدابيرها.

في كهف في فيتنام أثناء غارة أمريكية

سألني قروي أنتم من بلد عبد الناصر

لم يكن دور عبد الناصر محصورًا في دائرة أحلام المصريين، بالغد الذي يحمل لهم معه الكثير من الأماني الغالية. ولا كان صدى هذا الدور يتردد بقوة في المنطقة العربية فقط. بل إنه امتد إلى العالم الفسيح، يصنع فيه لمصر وجودًا محسوسًا، بلغ أقاصي الأرض.

لمست ذلك في بلد بعيد عنا بآلاف الأميال. حدث ذلك ونحن قعود في حفرة مثل كهف ضيق منحوت في جبل صخري بقرية في فيتنام، ووجدت قرويًا فيتناميًا يجلس إلى جواري، يسألني عن عبد الناصر.

كان ذلك في عام ١٩٦٥، وفى بداية التحاقي بالعمل الصحفي، أتيحت لي فرصة السفر إلى فيتنام في فترة الحرب الدائرة هناك، التي كانت أخبارها موضوعًا رئيسيًا في التغطيات الصحفية في دول العالم ومنها مصر، كنا وفدًا صحفيًا ضم الصديق محمد العزبي من الجمهورية، وأيضًا الصديق محمد حقي من الأهرام، وعاطف الغمري من الأخبار وكنت أصغرهم سنًا، ولما كان طريق الرحلة يتطلب التوقف ترانزيت في موسكو لمدة يومين، لحين موعد الرحلة المتجهة بنا إلى مقصدنا الأساسي، فقد تلقى محمد حقي اتصالاً من رئيس تحرير الأهرام الأستاذ محمد حسنين هيكل، يبلغه أن يبقى في موسكو انتظارًا لزيارة يقوم بها الرئيس عبد الناصر، وليشارك في تغطية الزيارة، فواصل الوفد بدون حقي، رحلته التي شملت كوريا الشمالية، والصين، بجانب فيتنام الشمالية.

فى فيتنام كانت الغارات الجوية بلا توقف، وكما عرفنا من مرافقينا الفيتناميين أن الطائرات تطلق صواريخ موجهة، تنجذب إلى حرارة أي مصدر متحرك. فكانت السيارات التي تقلنا تتوقف حين تسمع صفارات الإنذار، محذرة من قرب حدوث غارة جوية.

وتصادف أننا توقفنا في قرية فيتنامية لاحظنا أن هناك صفًا من البيوت الريفية في ناحية من الطريق وعلى الناحية المواجهة لها جبل صخري شاهق، حفروا في جوانبه فجوات أشبه بغرف صغيرة، أو كهوف حتى يحتمي في كل منها سكان البيت المواجه لها، أثناء الغارة، وذهب بنا المرافق الفيتنامي إلى أحدى هذه الملاجئ المحفورة في الجبل، ووجدنا بها رجلاً فيتناميًا قرويًا وزوجته، وقد فرشوا فوق الأرضية، غطاءً بسيطًا أشبه بالكليم، وجلسنا معهم على الأرض. ودار حوار نقطع به وقت انتظار انتهاء الغارة، سألنا الرجل: من أي بلد أنتم؟ وكان المرافق الفيتنامي يترجم حوارنا، أجبناه: نحن من مصر، وعلى الفور قال الرجل: آه، بلد عبد الناصر، ثم راح يحدثنا عن عبد الناصر، واسترسل في الحديث عن مصر التي أصبح مهتمًا بأن يعرف عنها ما لم يكن ملمًا به.

جعلنا الرجل الذي يسكن قرية نائية في الأطراف البعيدة من جنوب شرقي آسيا، ندرك إلى أي حد كان اسم عبد الناصر، يدوي هناك، كدوي غارات الطائرات اليومية على هذا البلد البعيد.

العبارات نفسها سمعناها حين قابلنا كل من رئيس الوزراء فام فان دونج، ووزير الدفاع الجنرال جياب، الذي كان قبل ذلك قائدًا لقوات المقاومة التي أسقطت قلعة ديان بيان فو، التي كانت من أهم أركان الإمبراطورية الفرنسية في الهند الصينية قبل تقسيمها إلى دول - لاوس وكمبوديا وفيتنام - هكذا كان اسم مصر في عصر عبد الناصر، مقترنًا بنظرة الإكبار في الخارج وكذلك الفخار في الوقت نفسه من المصريين في الداخل، إلى أن حدثت صدمة الهزيمة في ٦٧.

وتظل قوة الحقيقة تظهر لنا، أن الهزيمة صنعتها من جانبنا مجموعة عوامل ترتبط بغياب الديموقراطية عن نظام الحكم، وترتبط أيضًا بغياب حرية الصحافة في التعبير، والتنبيه، وبخصوصًا أن الصحافة كانت حافلة بأشخاص على أعلى مستوى من المهنية والوعي والحس الوطني، وبعد أن حالت الرقابة على الصحف دون قيامها بدورها في نقل مؤشرات الفخ الذي يجهزونه لمصر، الذي نشرت عنه لمحات متفرقة في صحف أجنبية في مايو ٦٧، التي احتوتها بعد ذلك بسنوات في مراكز بحوث ومكتبات، تكشف عن معلومات كانت غاطسة تحت السطح، وليست للتداول.

هكذا كان يمكن لو أطلقت للصحافة حرية وصنع الحقائق أمام صانع القرار يواكبها بالطبع مشاركة واعية من الرأي العام في التأثير على القرار، أن تتسع أمامه رؤية الأفق البعيد الممتد، وحتى يحدد مسار قراراته بالشكل الذي يحصن القرار من أي احتمال للوقوع في خطأ جسيم.

لكن طبيعة الحكم الفردي بلا مؤسسات ديموقراطية حقيقية، تبقى دائمًا صانعة للمشكلة بين الرئيس والصحافة.

الفصل الثاني

في الأهـرام.. عـالـم مختلـف

وفي أيام السادات، كان يمكن أن تتيح لك الفرصة أن ترى بعينيك صورًا حية من التاريخ، كان قد طواها النسيان، والتاريخ ليس مجرد صفحات من ورق تطوى وتنسى، فتاريخ أي أمة هو حلقات متصلة ببعضها، حتى وإن باعدت بينها السنون، فهي قد تتجدد وتتكرر على نفس الصورة والأسباب نفسها، مع قليل من التفاوت لدواعي الفارق الزمنى.

ويحدث أن تطل عليك صورة حية من التاريخ، خرجت توًا إلى العلن، فتدعوك لتأمل المدى الأوسع لها، الذي يصل بنظرك إلى ما كان قد حدث في الماضي، وما هو حادث الآن، وما يحتمل حدوثه في قادم الأيام.

فكيف كانت هذه الصورة؟

لقاء نادر مع الرئيس محمد نجيب

ومشهد لرجل كأنه عاش ألف عام

بطريق الصدفة البحتة، استولى عليَّ مشهد لم يستغرق سوى دقائق معدودة داخل المصعد بجريدة الأهرام، ليستثير الذاكرة، فيخرج منها ما كان قابعًا في زوايا الماضي البعيد، كان المشهد جزءًا من التاريخ/ حتى ولو ضاقت المساحة التي تحتويه، أو أن وقوعه جرى متسارعًا ومضى كالبرق الخاطف.

توقف المصعد في الدور الرابع قادمًا من الدور الثامن، حيث مكتب رئيس مجلس إدارة الأهرام، وفتح الباب ودخلت، فوجئت أمامي بالرئيس محمد نجيب أول رئيس للجمهورية في مصر، جاء للأهرام لزيارة الأستاذ علي حمدي الجمال رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، يصحبه زميلنا الصحفي الراحل إبراهيم طنطاوي. كان عمر محمد نجيب جاوز الثمانين، لكن الأحداث التي مر بها في حياته، خطت على وجهه علامات، توحى وكأن هذا الرجل قد عاش ألف عام. وكأن فترة رئاسته هي صفحة نزعت من سجلات التاريخ، قدمني له زميلنا إبراهيم طنطاوي وقبل أن يضيف أي صفة إلى كلمة الرئيس... سارعت بالقول طبعًا أعرفه، وهل يمكن أن ننسى من هو الرئيس محمد نجيب، وقال الرجل بتواضعه المعهود، أنتم الصحفيون حصن يحمى الوطن، الكلمة الحرة، هي التي تبني الأوطان وتحمي الشعوب.

وهبط بنا المصعد إلى الطابق الأرضي، وصافحت الرجل - التاريخ - وانصرف في رفقة زميلنا.

كان الرئيس السادات قد سمح له بمفارقة مكان تحديد إقامته بمنطقة المرج، لينتقل إلى منزل متواضع بحدائق القبة، إلى أن رحل عن عالمنا في ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٤ عن ٨٣ عامًا.

تسمرت في مكاني وأنا أنظر إلى الرجل الكبير، وهو يخطو خارجًا من مبنى الأهرام إلى الشارع، وقفزت إلى ذهني بعدها بسنوات وأنا أتذكر الواقعة عبارات سجلها في كتاب "كنت رئيسًا لمصر" قال فيها عن نفسه: "أنت حر طليق... ولم أصدق نفسي... هل أستطيع أن أخرج وأدخل بلا حراسة؟ هل أستطيع أن أتكلم في التليفون بلا تنصت؟... هل أستطيع أن أستقبل الناس بلا رقيب؟... ولم أصدق ذلك بسهولة".

الاندماج سريعًا في جو الأهرام

عندما دخلت الأهرام - أو على وجه التحديد - عندما أبديت رغبتي في الانتقال إلى الأهرام، لقيت ترحيبًا حارًا من رئيس التحرير علي حمدي الجمال وأيضًا من يوسف السباعي وكان رئيسًا لمجلس الإدارة ورئيسًا للتحرير، أي أن هناك رئيسين للتحرير.

والحقيقة أن الأهرام كان يمثل نقطة جذب للصحفيين من أخبار اليوم، وكأن بينهما قناة اتصال، فلقد حدثت هجرات كبيرة من أخبار اليوم إلى الأهرام، ويكفي ذكر بعض الأسماء، ممن انتقلوا للأهرام، فبخلاف محمد حسنين هيكل، نجد أسماء علي حمدي الجمال، وكمال الملاخ، وصلاح هلال، وسلامة أحمد سلامة، وصلاح منتصر، وسناء البيسي، وعبده مباشر، ووجدي رياض، وغيرهم.

اندمجت بسرعة مع جو الأهرام، الذي كان لا يزال محافظًا على التقاليد المهنية التي وضعها محمد حسنين هيكل، شكلاً ومضمونًا، والتحقت بالقسم الخارجي لبضعة شهور، إلى أن انتقلت إلى الدسك المركزي، الذي كان انتقالي للأهرام بغرض الالتحاق به.

كان من تقاليد الأهرام، أنه يضع الصحفي في الموقع الذي يعود على الجريدة، بأفضل فائدة، كما أنه يعتبر الجريدة مسئولة عن كل محرر، وعن حفظ كرامته، لا يمسها أي مسئول كان، حتى اختيار العاملين ابتداء من عامل الأسانسير وحتى المحرر، كان يتم بعد التقصي عنه، لضمان نقاء صورة المؤسسة، وحسن العلاقات الداخلية بها.

ذكرني هذا بتقليد كان متبعًا حين دخلت عالم الصحافة في أوائل الستينيات، كان هناك نظام تعمل به كل الصحف، فمن يرغب في العمل صحفيًا، يمر بفترة تمرين قد تصل إلى عام كامل ويواظب من هو تحت التمرين على الحضور يوميًا، دون أن يتقاضى أي أجر، وقد يحدث أن يثبت جدارة في فترة التمرين، وتنشر له الصحيفة أخبارًا أو موضوعات، لا يظهر عليها اسمه، ولو تقررت له مكافأة، فإنه يتقاضى خمسة جنيهات شهريًا، إلى أن يكمل سنة التمرين، وفى النهاية يتم اختيار الأصلح، ثم تعتذر الجريدة للباقين، لعدم استطاعتها قبولهم، كان الهدف من هذا التقليد، اختيار من يتمتع بالموهبة، وبما يعرف في مهنتنا بالحس الصحفي، وأيضًا من يتميز بحسن السلوك.

لكن هذا التقليد جرى الإقلاع عنه، وبطل العمل به منذ وقت طويل.

الصحيفة ازدانت على يد هيكل

بباقة من كِبار المفكرين والأدباء

أثرى هيكل الأهرام بباقة من كِبار الأدباء والمفكرين، أعطوا الأهرام مذاقًا متميزًا، وخصص لهم مكاتب بالدور السادس، ولما زاد العدد، أفسح للبعض أماكن في الدور الخامس، وازدانت الأهرام بأسماء توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويوسف إدريس، ولويس عوض، والحسين فوزي، وكثيرين غيرهم.

هذه الأسماء مثل الزهور، فهي تنبت وتزهر حين تلقى من يرعاها، فتفيض بما لديها من إبداع يثري الصحيفة والوطن بشكل عام، وقد يحدث معها خلاف ذلك، حين لا يرقى عقل المسئول إلى المستوى الذي يجعله يعرف قدر أصحاب الفكر والإبداع، ومن المفارقات التي تدعو للعجب، أن شيئًا من هذا كان قد حدث مع توفيق الحكيم، من جانب المسئول عن القطاع الذي كان يعمل به.

ففي بداية ثورة يوليو، كان توفيق الحكيم يعمل مديرًا لدار الكتب، وتقدم وزير المعارف الذي تتبعه دار الكتب، بمذكرة إلى مجلس الوزراء، يطلب فصل الحكيم من دار الكتب، لأنه من وجهة نظره لا يؤدي عمله على الوجه المطلوب، باعتباره موظفًا، واستفز الطلب الرئيس عبد الناصر، الذي رد بأن دار الكتب تتشرف بوجود توفيق الحكيم بها، وكان ذلك هو الموقف نفسه هيكل الذي اعتبر وجود الحكيم في الأهرام تشريفًا للأهرام.

وحكايات توفيق الحكيم، تعود بنا إلى ازدواجية الشعور لدى الرئيس - أي رئيس يحكم بسلطات مطلقة - خصوصًا إذا كان مؤمنًا بالقضية الوطنية، ولديه تاريخ من الكفاح في سبيلها، وقد تأثر بالضرورة بكتابات المؤلفين والصحفيين، الذين يجد الرئيس فيما يكتبونه تعبيرًا عما تجيش به نفسه، وتلك الازدواجية لها تداعيات يعاني منها الوطن، وتبقى آثارها السلبية عالقة في سجل تاريخ أي رئيس، طالما غابت الديموقراطية عن حكمه.

كان الرئيس السادات يكن للحكيم شعورًا بالتقدير والاحترام، وكانت له معه لقاءات وإن كانت قليلة - مستمتعًا بالحوار معه - وهو الذي أنعم عليه بقلادة النيل، أرفع وسام مصري.

توفيق الحكيم بين رضا السادات وغضبه

وحل عام ١٩٧٢، وكانت مصر كلها تتململ من تأخر الرئيس في اتخاذ قرار استعادة الأرض التي احتلتها إسرائيل في سيناء عام ٦٧. خصوصًا أن الرئيس وعد لكنه لم ينفذ وعده، صحيح أن السادات كان يدرس ويستطلع جميع سبل استعادة الأرض، لكن الصورة بدت غائمة، والبلد كلها في ضيق من هذا الاحتلال الجاثم على الصدور، وخلال مظاهرات جرت عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ تعددت المطالب من إعداد من الصحفيين لإصدار بيان باسم الكُتَّاب والصحفيين، يعبر عن ضيقهم من التأخر في حسم هذا الموقف، واستقر الأمر على أن يتولى الحكيم كتابة البيان الذي حمل توقيع مائة صحفي، وجاء في البيان: - "كثر الكلام عن المعركة دون معركة، حتى صارت المعركة مضغة في حلوقنا، لا نستطيع أن نبتلعها، ولا نستطيع أن نلفظها".

وأرسل البيان إلى الرئيس الذي أصابه غضب شديد، وقرر نقل الموقعين على الرسالة، من صحفهم، إلى مصلحة الاستعلامات، وكان منهم توفيق الحكيم.

ولما كان السادات يجهز فعلاً للحرب، فإنه قرر قبل أسبوع من يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣، عودة جميع الكُتَّاب والصحفيين، إلى مؤسساتهم الصحفية، مدركًا دوافعهم الوطنية التي أملت عليهم كتابة البيان الذي آثار غضبه وقتها.

كانت ازدواجية الصورة، التي تجمع في ذات الوقت بين انحياز الدولة للقضية الوطنية، وبين تقييد ومساحة حرية التعبير، تضغط بقسوة على مشاعر أعداد من الصحفيين الذين اختار كل منهم هذه المهنة - في مناخ صحوة وطنية - باعتبار أنه يقوم من خلالها بدور، وأنه ليس مؤديًا لوظيفة.

كيف أقنع منصور حسن السادات
بالتراجع عن تحويل نقابة الصحفيين إلى نادٍ

وإذا كانت قرارات نقل ٩٠ من الصحفيين إلى شركات القطاع العام أيام عبد الناصر، تعكس ضيق النظام من نقد سياساته، فإن الأمر تكرر أيام السادات، بنقل مائة صحفي إلى مصلحة الاستعلامات، وإذا كان هناك من هللوا نفاقًا لهذه الإجراءات، فقد التزم غيرهم بنزاهة واستقامة مواقفهم، يستحق الذكر منهم منصور حسن وزير الثقافة والإعلام الأسبق، ففي فترة ضيق الرئيس السادات من انتقادات الصحفيين له، التي كانت حدتها تشتد في أوقات انتخابات نقابة الصحفيين، قرر الرئيس تحويل النقابة إلى ناد، واستخدم منصور حسن قربه من السادات، وسعى لإقناعه بالعدول عن هذا التوجه. وهو ما نجح فيه. ومرة أخرى قرر منصور حسن ترك منصبه، حين شعر أنه غير قادر على أن يثني الرئيس عن قراره باعتقال العشرات من الصحفيين عام ١٩٨١.

منصور حسن كفرد كان يتصرف في إطار نظام حكم يتمتع فيه الرئيس بسلطات واسعة، ولو كانت هناك ديموقراطية حقيقية، لتشكلت منظومة كبيرة من المعترضين، التي كان يمكن أن تحول دون هذه القرارات.

رأي السادات في الصحفيين كما عبَّر عنه لأشرف غربال

ونظرة الرئيس السادات للصحافة، رواها لي السفير أشرف غربال، نقلاً عن السادات نفسه، وكنت قد أمضيت عامًا كاملاً في لقاءات منتظمة مع الدكتور أشرف غربال – سفير مصر الأسبق في واشنطن، لكتابة مذكراته، والسبب وراء طول هذه الفترة، أنه سلمني مجموعة من الصناديق المملوءة بالوثائق، والخطابات السرية المتبادلة بينه وبين مؤسسات الدولة العليا بما فيها رئاسة الجمهورية، أثناء عمله في واشنطن، وأيضًا عمله مع السادات، فعكفت على قراءة هذه الوثائق للتأكيد وثائقيًا، على ما أسعفته به الذاكرة بعد سنوات طويلة من حدوثها.

قال الدكتور. أشرف غربال: كنت أشعر خلال جلساتي مع الرئيس السادات، أنه يريد أن يكون قريبًا من الصحفيين، وأن يقتنعوا بأن ما يفعله هو لخير البلد وصالحه، لكن في الوقت ذاته كان يضايقه النقد، وتتنازعه مشاعر حبه للصحافة، ومشاعر ضيق من الكتابات التي تعارضه، وكان السادات يحب أن يلتقي بالصحفيين ليكون حديثه معهم مباشرًا، وأذكر أنه نصحني ذات مرة، بألا أنغمس في مشاكلهم، وقال لي: أشرف، ماتخشش في أمور الصحفيين، وماتشغلش بالك، فمنهم أناس متعبين.

في دول أخرى، يحرص الرئيس لحظة اتخاذه أي قرار على التفكير، فيما سيحكم به التاريخ عليه، بعد أن يكون قد غادر مقعد الحكم، سواء وهو على قيد الحياة، أو من بعد رحيله، فالتاريخ لا يرحم، وذاكرة الشعوب لا تحمي ولا تضيع.

هذا يحثنا على أن نسأل: كيف كان يمكن لمشروع عبد الناصر القومي، أن يرتقي بمصر إلى أعلى مراتب الدول الناهضة والمتقدمة، لو لم يتم تنحية البند السادس من أهداف الثورة كما أعلنت في يوليو ١٩٥٢، وهو مبدأ "إقامة حياة ديموقراطية سليمة"... انظروا إلى ما وصلت إليه الهند من تقدم وازدهار، وهي التي لم تكن أفضل حالاً من مصر وقتها، وينطبق الشيء نفسه على كوريا الجنوبية، وغيرها.

وكيف كان يمكن للإنجاز التاريخي العظيم للسادات في أكتوبر ١٩٧٣، أن ينقل مصر إلى أعلى مراتب التقدم، لو واكبه تطبيق خطة الحرب، بمعاييرها الكاملة، على الحياة المدنية، وتغيير النظام السياسي، الذي بقي أسير فلسفة التنظيم السياسي الواحد، حتى ولو اتخذ لنفسه اسم الحزب - الحزب الوطني الديموقراطي-؟!.

إن إفساح المجال للرأي العام - المعبر عن مجموع آراء الأفراد - الذين أنضجتهم التجربة الديموقراطية - يخلق ظهيرًا داعمًا للرئيس لمشروعاته وخططه، والتأثير على قراراته، وضمان سلامتها، وهو ما لا يتأتى إلا حين يفسح النظام مساحة للحرية والتعبير عن الرأي، المنضبط بقواعد الوطنية، في ظل

نظام ديموقراطي، وعلى العكس من ذلك، ففي ظل النظام الفردي تتلاشى أو تخفت قوة تأثير الرأي العام، نتيجة عدم القدرة على التعبير الحر، والأمثلة على ذلك عديدة.

في لقائنا بالقذافي في الأهرام قال:

العرب أمامهم مائة عام ليحكموا ديموقراطيًا

وعلى سبيل المثال صادفتنا في الأهرام صورة تجسمت للغلو في كراهية حرية التعبير عن الرأي، في شخص معمر القذافي.

في أول التسعينيات جاء القذافي في زيارة لمصر، وطلب ترتيب لقاء له مع عدد محدود من كتّاب الأهرام، ودعا رئيس التحرير إبراهيم نافع كلاً من السيد ياسين، ويونان لبيب رزق، وسلامة أحمد سلامة، واللواء المجدوب (وكان وقتها قد أصبح من كُتّاب الأهرام في الشأن العسكري)، وعاطف الغمري، وأعتذر إن كنت قد نسيت أسماء زملاء آخرين.

وصحب القذافي في اللقاء صفوت الشريف وزير الإعلام، وكان برفقته من الليبيين ثلاثة من مساعديه، بدأ اللقاء بشرح من القذافي لأفكاره السياسية. وكلها تقدم لنا وجهة نظره التي طبقها عمليًا في النظام المعمول به في ليبيا، خصوصًا نظام اللجان الثورية.

وحين انتهى من شرحه، بدأت المداخلات من كتاب الأهرام، لعل من أبرزها مداخلة السيد ياسين، التي أثارت نقاشًا، كشف عن عمق، أو قل ضحالة وسطحية نظرة القذافي - كنموذج متكرر للحكام الاستبداديين - نحو معنى الحرية والديموقراطية، قال السيد ياسين موجهًا كلامه إلى القذافي:- اليوم وبعد انهيار الأنظمة الشمولية في العالم، أصبحت الديموقراطية هي شرعية أي نظام حكم.

وانتظرنا جميعًا رد القذافي على هذه المداخلة، رفع القذافي رأسه إلى أعلى، وكأنه ينظر السقف، وراح يتكلم وهو على هذا الوضع، ونحن لا نستطيع تفسير

أي كلمة واحدة مما يقول، وبعد أن توقف عن الكلام، طلبنا منه إيضاحًا حتى نفهم وجهة نظره.

فنظر إلى أحد مساعديه، وطلب منه أن يرد علينا، وانطلق الرجل في حديث عن الحكم، والشعوب والديموقراطية، إلى أن وصل إلى نقطة لخص بها كل ما يعنيه، التي عبر بها عن فكر القذافي، وقال: إن الشعوب العربية أمامها مائة عام على الأقل حتى تكون مؤهلة لحكم ديموقراطي.

وإذا كانت قناعات القذافي بعدم جدوى الديموقراطية، وإطلاق حرية شعبه في الاختيار، هي التي قادت إلى الثورة عليه وإسقاط نظامه في عام ٢٠١١، فإن قناعة أخرى له عبر عنها في اللقاء نفسه، أسهمت في محنة ليبيا من بعد سقوطه، وإغراقها في دوامات الفوضى والدمار.

ففي سياق بث أفكاره العبثية، وهو يشرح طبيعة نظام الحكم في عهده، فاجأنا بأنه لا ضرورة لوجود جيش وطني للدولة، بالمعايير المعترف بها عالميًا للجيش المحترف البعيد عن السياسة، الذي يتركز اهتمامه في كونه درعًا لحماية الوطن والشعب، وقال لماذا يكون لدينا جيش بهذه المواصفات، على حين أن الشعب ذاته هو القادر على حماية نفسه، طبعًا كان البديل لهذا، الاستعانة بمن يدينون له بالولاء من غير أبناء بلده ومنحهم جنسية ليبيا، أو تكوين جيش قبلي مع إحاطة نفسه، بأصحاب الولاء بشخصه.

في مواجهة هذا الذي ألقاه القذافي على مسامعنا رد عليه أحد المشاركين معنا في الجلسة من الأهرام بصفته شخصية عسكرية، وهو اللواء المجدوب، وراح يشرح له معنى وجود جيش وطني ولاءه الأول والأخير للوطن، وإن الجيش عمود أساسي من أعمدة أي دولة، ومصدر قوتها وفخرها، لكن القذافي لم يبدِ أي اهتمام بما سمعه.

في تلك اللحظة، تجسد لنا القذافي، مثله مثل غيره ممن هم على شاكلته من الحكام، شخصيًا معزولاً تمامًا عن الواقع، وعن الزمن، والتاريخ، والأهم من ذلك عن الشعب الذي يحكمه.

أصل المشكلة أنه حين ينفرد تيار سياسي واحد بالحكم، فيصادر حرية التعبير، ويحكم على أصحاب الفكر المستقل، ومن يملكون القدرة على تقديم رؤية أو تصور أو اجتهاد، بالنفي داخل وطنهم، وينظر دائمًا إلى أصحاب الرأي المخالف على أنهم أشخاص غير مرغوب فيهم، فيحجر على حرية الرأي، عندئذ يصبح الحاكم الفرد - أو هو ومجموعته - هم محور الحركة والفكر والنشاط، وليس هناك من نتيجة لهذا الوضع سوى تقليص حجم ودور المجتمع وفئاته، وتوسيع مساحة دور الرئيس على حسابها، ومن هنا يأتي تفسير اقتناع الحاكم، في مثل هذه الأنظمة بحقه الشرعي والطبيعي في إسكات أي صوت معارض، بأي وسيلة مهما كانت.

وهو ما كشف عنه الحوار مع القذافي، الذي أظهر مكنون عقله بصورة صارخة تعكس طبيعة شخصيته.

إحسان للسادات على التليفون:

لا أوافق على ما تطلبه مني

في الأهرام، شغل إحسان عبد القدوس منصب رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير، لوقت قصير كان ذلك في فترة حكم السادات، الذي كان يكن لإحسان مشاعر المودة والتقدير له كصحفي، يتميز بقدراته المهنية، ومواقفه الوطنية، بحيث بقي إحسان رجل الموقف الواحد، سواء في عهد عبد الناصر، أو مع السادات، والسادات كانت قد جمعته بإحسان صداقة قديمة من قبل الثورة. والسادات لديه إحساس خاص الصحفيين، فهو قد عمل صحفيًا بعد الثورة مسئولاً وكاتبًا بجريدة الجمهورية، ثم عين في فترة لاحقة مشرفًا على أخبار اليوم.

فبعد توليه منصب الرئاسة، قام بتعيين إحسان عبد القدوس رئيسًا لمجلس إدارة أخبار اليوم في عام ١٩٧١.

وحدث أن كنت جالسًا أمام إحسان في مكتبه بأخبار اليوم عام ١٩٧١، وكان يراجع تحقيقًا صحفيًا كتبته لينشر في العدد المقبل، وجاءه اتصال تليفوني من الرئيس السادات، وفهمت مما سمعته أن الرئيس يسأله عن رأيه في خطاب كان قد ألقاه، وكان رده أنه يتصور لو أن الرئيس كان قد قال أشياء غير التي قالها لكان ذلك أفضل، ولم يعترض السادات على ما ذكره إحسان، ووصل الحوار إلى النقطة التي ارتسم فيها على وجه إحسان رد فعله لما يسمعه، وهو يردد بكلمة لا... لا أوافق على هذا.

والتزمت الصمت، فلم يكن من اللائق أن أسأل عن حوار بينه وبين رئيس الدولة، تصادف أن جرى في حضوري من أجل العمل، بعدها عرفت منه أن السادات كان يطلب منه في هذه المكالمة أن يكتب مقالاً يهاجم أو ينتقد فيه رئيسًا عربيًا، واتساقًا مع طبيعة شخصيته، رفض أن يستجيب للطلب. وغضب السادات، لكن غضبه لم يكن يتجاوز حدود احتفاظه بإحساسه بالود والتقدير لإحسان.

وبعد الإفراج عن مصطفى أمين عام ١٩٧٤، أعاده السادات إلى أخبار اليوم. وهو قد عاد إلى داره التي أسسها، وله فيها تلاميذه الذين ارتبطوا به. عندئذ طلب إحسان أن يترك أخبار اليوم، فعينه السادات رئيسًا لمجلس إدارة الأهرام في مارس ١٩٧٥، وكان محمد حسنين هيكل قد ترك الأهرام في فبراير ١٩٧٤، وخلفه لفترة قصيرة، محمد عبد القادر حاتم.

مارس إحسان عمله في الأهرام بالطريقة نفسها في الإدارة، لكن الخلاف الذي هدأ مع السادات، جددته واقعة أخرى، فقد كانت مجلة الطليعة التي يصدرها الأهرام بموافقة الرئيس عبد الناصر، تحمل فكرًا ماركسيًا وكتابها من الماركسيين، وأراد السادات أن يغلقها، وكعادته رفض إحسان، أن يرتبط اسمه تاريخيًا، بإغلاق صحيفة أيًا كان توجهها، وتعطل محرريها، وكان أن خيره السادات بين تنفيذ رغبته، أو أن يعين غيره مكانه، فاختار إحسان البديل الثاني، وبالفعل تحول إحسان إلى كاتب بالأهرام دون أي منصب، وجاء يوسف السباعي

رئيسًا لمجلس الإدارة، وبالفعل قام بتحويل الطليعة إلى مجلة الشباب وعلوم المستقبل، وشعر محررو الطليعة بعدم التوافق مع الوضع الجديد، فابتعد الكثيرون منهم عنها.

تفاصيل هذه الواقعة علمت بها، بعد أن انتقلت إلى الأهرام عام ١٩٧٦، أثناء واحدة من زياراتي التي واظبت عليها لمكتب إحسان عبد القدوس في الدور السادس، وكان هو كاتبًا متفرغًا بلا منصب، يومها شرح لي تفاصيل هذه الواقعة، وقال لي بالنص: أنا مش أدارجي، لكن يوسف السباعي رجل أدارجى. وهو أقدر منى على تصريف مثل هذه الأمور".

وظلت علاقة السادات بإحسان تتراوح بين مراعاة معايير الصداقة، وبين نزعة الحاكم لتقييد الصحافة، وحين بدأ إحسان يكتب من مجلة أكتوبر مقالاته "على مقهى في الشارع السياسي"، بطلب من رئيس تحريرها أنيس منصور، كانت بعض مقالاته تنتقد سياسات السادات، ومع ذلك لم يتدخل السادات أو يطلب من أنيس منصور، وقف مقالات إحسان أو حتى التخفيف من لهجتها.

الفصل الثالث

نظرية مبارك
دعهم يكتبون ولنفعل نحن ما نريد

يختلف مبارك عمن سبقه من الرؤساء، في تعامله مع حرية الصحافة، باتباع نهج، بدأ في سنوات حكمه الأولى، بمتابعة ما ينشر في الصحف، وانتهى إلى الأخذ بنظرية، "دعهم يكتبون ما يريدونه، ودعونا نحن نفعل ما نريده"، وهو نهج لا يختلف عنه أسلوب تعامله مع العملية السياسية، الذي عبر عنه في عام ٢٠١٠، بمقولته الشهيرة "خليهم يتسلوا".

مبارك في بداية حكمه اعتاد أن يقرأ الصحف، وأذكر أنى كنت قد اطلعت على مجموعة من تقارير الجهاز المركزي للمحاسبات، والرقابة الإدارية، عن أداء وزراء المحافظين، وهالني ما جاء فيها، وعلى أساس المعلومات الواردة في هذه التقارير، شرعت في كتابة مقال شرحت فيه مخالفات للقانون، وإهدار للمال العام، لهؤلاء الوزراء والمحافظين، وكان من بينها، شراء أجهزة وآلات بالعملة الصعبة من دول أجنبية، ثم تركها في العراء في أحواش الشركات والمؤسسات، التي تم استيرادها لاحتياجها لها، إلى أن صدئت، وتلفت، ولم تعد لها فائدة أو قيمة.

ومن أمثلتها كذلك، أن أحد الوزراء كان في زيارة لليابان، وأثناء جلسة مباحثاته هناك، طلب منحة يابانية، ضمن برنامج المنح التي تقدمها اليابان لدول

أخرى. وفوجئ الوزير بالجانب الياباني يبلغه، أن اليابان كانت قد قدمت هذه المنحة لمصر قبل بضع سنوات، بقيمة خمسة ملايين دولار تقريبًا، وإن أجل هذه المنحة ينتهي بعد شهر من الآن، وطوال السنوات، لم تقم مصر بأي إجراء للاستفادة من المنحة، وكأنها ضاعت من ذاكرة الحكومة تمامًا، وعاد الوزير إلى مصر، يفتح لأول مرة ملف المنحة اليابانية، التي أوشكت أن تضيع.

مقال غير ممنوع من النشر

وتفاديًا لعدم نشر المقال، ذهبت إلى إبراهيم نافع في مكتبه، وشرحت له كل ما جاء في المقال، وكان غرضي الاطمئنان إلى أن المقال لن يمنع من النشر، فسألني: هل جاء به اسم مبارك تحديدًا، قلت لا، لكني ذكرت اسم رئيس الوزراء، فقال لي، إذن انشر المقال.

ونشر المقال بالأهرام وكان ذلك في بداية حكم مبارك، وفوجئت في الساعة العاشرة صباحًا من اليوم نفسه - ولم أكن قد غادرت منزلي بعد - باتصال تليفوني لم أتوقعه، كان المتحدث الدكتور مصطفى الفقي مدير مكتب الرئيس للمعلومات في ذلك الوقت، بدأ حديثه مداعبًا وقال: أنت تكتب، وتنشر مقالك، وتذهب لتنام وترتاح، وأنا يتم إيقاظي من النوم في الصباح الباكر بسببك، واستطرد يقول: الرئيس مبارك اتصل بي وقال لي أبلغ عاطف الغمري إنني قرأت مقاله، وسوف أحقق فيما جاء به.

دهشت من حديثه، وقلت له هذا اهتمام يستحق الرئيس عليه الشكر، فلم أكن أعرف أنه يصحو مبكرًا ليقرأ الصحف.

ومرت نحو عشرة أيام، وجاءني اتصال تليفوني ثانٍ من الدكتور مصطفى الفقي، وفاجأني يقول: الرئيس شعر بأن معلوماتك ربما لم تكن دقيقة، فكل الوزراء والمحافظين الذين ورد ذكرهم في مقالك، قدموا له مستندات تثبت عدم صحة كلامك.

استفزتني المكالمة، وقلت له: سواء كان كلامي صحيحًا، أو أن كلامهم هو الصحيح، ففي الحالتين تكون الحكومة هي الكاذبة.

فسألني: ماذا تعني؟

قلت: أعنى أن جميع المعلومات التي أوردتها في المقال، حصلت عليها من جهات حكومية، أي أن الحكومة هي التي قالت، والحكومة الآن هي التي تكذب.

قال: وهل لديك صورة من الأوراق الحكومية؟ أكدت له أنها معي، وسوف أرسلها إليه، وعلى الفور أرسلت صورًا من الوثائق، إلى مكتب الدكتور الفقى.

ومرت فترة، إلى أن التقيت به مصادفة، وسألته عما فعله الرئيس، وفهمت من إجابته أن الرئيس طوى هذه الصفحة، واستنتجت أنه عمل حسب ما يقول المثل الشعبي الدارج: اكفي على الخبر ماجور.

حين سئل مبارك:
لماذا لم تعين نائبًا للرئيس؟

في السنوات الأولى من حكمه كان مبارك حريصًا على الالتقاء بالصحفيين، والإعلاميين، بقصر الرئاسة، يستمع إليهم، ويدخل معهم في مناقشات، وكان أكثر من يدخلون في جدل معه الدكتور يوسف إدريس، وبدا واضحًا في بدايات حكمه أنه يستمتع بهذه الحوارات.

ذات مرة وقف الزميل الراحل عبد الستار الطويلة، ووجَّه إليه سؤالاً، ظل صداه يتردد حتى آخر يوم من حكم مبارك. كان السؤال، لماذا لم تعين نائبًا لرئيس الجمهورية؟

وانتظرنا الرد الذي جاء صادمًا لكل الحاضرين، قال مبارك: الشخص الذي أريده لا بد أن تكون لديه مواصفات محددة: أن يكون وطنيًا، مخلصًا، عفيف اليد، أصابنا جميعًا الذهول، فهل سيطر عليه شعور، بأنه لا يوجد في مصر، من يملك هذه الصفات، باستثنائه هو؟!.

وهل كان هذا الرأي تعبيرًا عن شعور يتنامى لديه بالاستعلاء، أم أنه يكشف عن بداية مبكرة لتفكيره في توريث ابنه.

تدريجيًا أخذت الرغبة في قراره الصحف تتراجع عند مبارك، إلى أن كف عن متابعتها، حتى إنه سئل ذات مرة في مؤتمر صحفي عن الانتقادات التي تنشرها الصحف المستقلة، فأجاب: "توقفت عن قراءاتها، فهي تُفَوِّر الدم"، ومضت الأيام وصولاً إلى نظرية دعهم يكتبون، ودعونا نفعل نحن ما نريد.

لقاء سرى مع جلال طلباني

أتاحت لي فرصة تعييني مديرًا لمكاتب الأهرام في الخارج، الدخول إلى عالم، لم يكن ميسرًا لنا النفاذ إلى دهاليزه، في القاهرة فالعمل الصحفي اليومي الذي يتطلب منا، قضاء معظم ساعات اليوم داخل الجريدة، كما أن العمل بالخارج فرصة للاتصال بشخصيات تصنع الأحداث، والدخول وراء الكواليس لمشاهدة ما لا يظهر على خشبة المسرح.

كانت لندن هي المحطة الأولى وقبل شهور من بداية تسلمي لعملي في لندن، تم ترتيب زيارة لي إلى باريس، سعيت خلالها إلى لقاء مع جلال طلباني، في محاولة أشبه بالمغامرة للوصول إلى المكان الذي كان يقيم فيه بعيدًا عن أعين رجال صدام حسين، الذي كان قد أرسلهم وراءه لاغتياله.

الحكاية بدأت من خلال زميلتنا الصحفية المصرية درية عوني، التي كانت مراسلة لمجلة المصور في باريس، إلى جانب عملها محررة بوكالة الأنباء الفرنسية.

ودرية عوني من أصول كردية، ظلت مرتبطة بالقضية الكردية، إيمانًا منها بأن الأكراد يعيشون على أرضهم كردستان منذ فجر التاريخ، لكن أرضهم تعرضت في العصور الحديثة لتقسيمها وتوزيعها على أربع دول، هي العراق، وتركيا، وإيران، وسوريا، والأكراد ليسوا عربًا، وهم دخلوا الإسلام مبكرًا على يد خالد بن الوليد، وجاء وجودهم في مصر في عصر الدولة الأيوبية بعد القضاء على الدولة الفاطمية وبروز دور صلاح الدين الأيوبي (الكردي الأصل)، ودوره التاريخي في

القضاء على الحملة الصليبية، وفى عهد الدولة الأيوبية، انتهى حكم الدولة الأموية الشيعية، واستقرار المذهب السني في مصر.

وأرض كردستان تعتبر حاليًا غنية بالموارد الطبيعية، المعدنية والبترولية، إلى جانب خصوبة أرضها الزراعية.

وقد وجد الأكراد ملاذًا آمنًا في مصر في فترة حكم عبد الناصر، وكان جلال طلباني قد عاش في مصر، منفيًا، في تلك الفترة.

كعادتها في الترحيب بالكرم الفياض مع زملائها الصحفيين المصريين الزائرين لباريس، دعتني درية عوني مع عدد محدود لعشاء في منزلها، وخلال كلامنا عرفت منها أن طلباني موجود في باريس، فأعربت لها عن رغبتي في لقاء لحوار معه.

نهضت درية عوني وأجرت اتصالاً تليفونيًا مختصرًا، وعادت تقول لي: غدًا صباحًا سيأتيك صديق اسمه أزاد، (وهو اسم كردى)، ستذهب معه، ولا تندهش من خط سير الرحلة.

في الساعة المحددة من اليوم التالي جلست في بهو الفندق أنتظر القادم، ودخل واتجه نحوي مباشرة وصافحني، ثم طلب مني مرافقته، وبدأت الرحلة المثيرة... ركبنا المترو، وبعد عدة محطات غادرناه، واتجهنا داخل المحطة إلى رصيف آخر، لنستقل المترو الذي يتحرك في اتجاه معاكس للاتجاه الأول، وتكرر هذا الأسلوب أكثر من مرة، في عملية تضليل لمن يمكن أن يكون متابعًا لنا، إلى أن وصلنا إلى محطة نزلنا منها إلى الشارع.

كان المكان يبدو غريبًا عن معالم باريس المألوفة لنا، وبدا أننا في ضاحية بعيدة على قلب العاصمة الفرنسية، ومشينا إلى أن وصلنا إلى مبنى صغير، علمت أنه فندق ليس كبيرًا.

صعدنا إلى صالون صغير ملحق بغرفة نزيل الفندق. ودخل جلال طلباني مرحبًا، في البداية تحدث بمشاعر الود نحو مصر، والفترة التي قضاها هناك في الخمسينيات أيام عبد الناصر، ثم بدأنا الحوار الذي أجاب فيه على كل أسئلتي، ونشر الحوار بالأهرام، بعد عودتي إلى القاهرة.

في نهاية اللقاء، سلمني جلال طلباني رسالة مغلقة، وطلب مني أن أوصلها إلى الرئيس مبارك، المظروف شكله غريب، بالنسبة إلينا، يبدو منتفخًا نوعًا ما، ومغلقًا بطريقة، يستحيل معها فتحه، وشرح لي بعض ما جاء في رسالته، قال إن كردستان في مرحلة إعادة إعمار كبيرة، وإنها أرض غنية بالموارد، للصناعة والزراعة، والتعدين، وإنه يعرض على مبارك إقامة جسور للتعاون الاقتصادي، وإن الباب مفتوح أمام المصريين للحضور من مختلف التخصصات، ولتكن تلك بداية تعاون لنا ولمصر.

عدت إلى القاهرة، واتصلت تليفونيًا بالدكتور مصطفى الفقي، وأبلغته بأنني أحمل رسالة خاصة للرئيس من جلال طلباني، وفي الحال أرسل إليّ مندوبًا تسلم مني الرسالة، وانتهت مهمتي عند هذا الحد، وعلمت بعدها أن مبارك طوى الرسالة ولم يهتم بمتابعة ما جاء بها، لحسابات سياسية، ارتأها هو.

مراسل صحفي في لندن

ومشاهد بعضها مثل الأساطير

في سنوات العمل خارج مصر، كانت النوافذ تفتح لتظهر لنا مشاهد، يبدو بعضها غريبًا، أو مفاجئًا، بحيث تدفع العقل للتساؤل عن كونها حقيقية أم تغلب عليها الأساطير؟... أحد هذه المشاهد كان دافعًا لطرح هذا السؤال:

هل كان الأيرلنديون أصلاً مصريين، هاجروا من مصر، واستوطنوا أيرلندا، التي لم تكن مسكونة في هذا الزمن؟

سؤال طرح أمامي أثناء زيارتين لي إلى جمهورية أيرلندا الجنوبية، بعد أن تسلمت عملي في لندن عام ١٩٩٣، مديرًا لمكتب الأهرام في بريطانيا، وكانت الإجابة التي سمعتها لا تخلو من إثارة وتشويق في الوقت نفسه.

جاءت زيارتي الأولى إلى دبلن عاصمة أيرلندا عام ١٩٩٤، لإجراء حوار مع رئيس وزرائها نشر وقتها في الأهرام، وقبل سفري إلى هناك، كان قد لفت نظري

برنامج على قناة تلفزيون بي. بي. سي في لندن، البرنامج يتنقل في لقطات متتابعة بين قرى أيرلندية، وقرى في صعيد مصر، ومشاهد لقرويين هنا وهناك يعزفون أنغامًا موسيقية على المزمار، واللقطات تظهر التطابق التام بين الجمل الموسيقية في البلدين، ويتحدث البرنامج عن أوجه تشابه بين طباع وتقاليد تجمع أهالي البلدين، بالرغم من أن تلك منطقة محافظة في مصر، والأخرى منطقة أوروبية بعيدة عنها بآلاف الأميال.

وحين زرت أيرلندا اهتممت بأن أعرف أكثر عن هذا التشابه، البداية حين اصطحبني السفير المصري الراحل عبد الله فؤاد في سيارته في جولة في دبلن. راح يشرح لي كيف أن العائلات في أيرلندا محافظة وتختلف في الطباع والتقاليد عن مثيلاتها في أوروبا، وفى بريطانيا القريبة منها، والعائلات هنا لا تعرف السلوكيات المتحررة عند الفتيات مثلا، فهم هنا أقرب في تقاليدهم ومشاعرهم إلى الشعوب الشرقية.

علماء ومؤرخون يقولون:

الأيرلنديون أصلهم مهاجرون من مصر

استكملت عملية الاستطلاع، وعلمت بوجود متحف به بعض آثار مصرية قديمة، وأنهم كانوا قد اكتشفوا قطعًا من أوانٍ فخارية في بعض أنحاء أيرلندا، تم تحديد منشئها بأنها جاءت قديمًا مباشرة من الإسكندرية في مصر.

وقبل انتهاء الزيارة نصحني بعض الأكاديميين الذين التقيتهم ضمن برنامج الزيارة، بشراء كتاب معين، سوف يرد على كثير من التساؤلات التي أثارتها هذه المعلومات في ذهني.

واشتريت الكتاب وعنوانه "الأطلنطي"، لمؤلفه بوب كوين، ومعه مغلف لنفس المؤلف بداخله ثلاثة أشرطة فيديو، تتضمن تسجيلات مصورة، للوقائع التي أوردها في كتابه، بناء على حوارات مع خبراء في الموضوع نفسه من المؤرخين، وعلماء في تخصصات مختلفة، كان لهم اهتمام مباشر بهذا الموضوع.

وجاء بالغلاف تعريف بالمؤلف بوب كوين؛ بأنه كاتب، وأيضًا مخرج أفلام تسجيلية، عرضت في قنوات تليفزيونية عديدة في أوروبا، وأمريكا، وأستراليا، وأنه عضو بارز بالأكاديمية الأيرلندية للفنون.

في كتابه يشرح بوب كوين رحلته الطويلة لإعداد الكتاب، وسفرياته ما بين مصر ودول شمال أفريقيا، ولقاءاته مع العديد من المؤرخين والمختصين، الذين اهتموا بنفس موضوع كتابه.

يقول: إنه بدأ البحث في مسألة علاقة أيرلندا بأماكن أخرى في العالم، منها شمال أفريقيا، في وقت لا يزال فيه أصل أيرلندا محل مناقشات إلى الآن، وكان السؤال الذي يشغله: كيف يمكن أن يقوم في زمن بعيد اتصال بين هاتين المنطقتين المتباعدتين جغرافيًا؟ وفي رحلة البحث، وجد أن بداية هذا الاتصال جاءت من مصر، وأن أول تواجد سكاني في أيرلندا كان للمصريين.

يرجع كوين في نظريته إلى ما قاله الدكتور بيرنت، المؤرخ في تاريخ الملاحة البحرية، عن اكتشاف مركب خشبي أثري أثناء حفريات في أيرلندا، مطابق تمامًا للمراكب الخشبية القديمة التي اكتشفت في مصر.

كما أن البروفسور المؤرخ هنريك واجنر الذي جاب أيرلندا، وويلز، وفنلندا، وجزر كثيرة، ليدرس تاريخها ولغاتها، استطاع أن يجد في أيرلندا آثار ومعالم باللغة التي كانت تستخدم قديمًا في أيرلندا ووجد أنها قريبة من اللغة القبطية في مصر.

ووجد دارسون أيرلنديون ابتداءً من القرن السادس وما بعده، أن الأديرة ومدارس الأحد في أيرلندا، ودول أوروبية أخرى، كانت بداية وجودها في مصر، وأن الكنيسة التي تسمى celtic church في أيرلندا، تحتفل بعيد الفصح في نفس موعد الاحتفال به في الإسكندرية، وهو موعد يختلف عن تاريخ الاحتفال به في

الكنائس الغربية في روما، وأن أقدم كنيسة أيرلندية لا تنتمي في كثير من طقوسها، لقارة أوروبا. وأن ظاهرة الرهبنة في أديرة في الصحراء لم تكن اختراعًا مسيحيًا، لكنها جاءت من رهبان مصريين.

يقول المؤلف إنه بدأ يكتشف بالتدريج وجود تماثل بين الكتب القبطية، والكتب الأيرلندية القديمة، من حيث طريقة الكتابة والزخارف المستخدمة في تزيين الصفحات.

سفينة الرهبان تغادر الإسكندرية إلى أيرلندا هربًا من اضطهاد الرومان

ثم يصل بوب كوين إلى لب موضوعه يقول: إن الرهبان في مصر كانوا يتعرضون للاضطهاد من الإمبراطورية الرومانية، في فترة حكم الإمبراطور قسطنطين. واستمر اضطهاد الرومان للكنيسة القبطية نحو ستين عامًا، وفى تلك الفترة تملك الرومان مقاطعات كبيرة، ونهبوا ثروات من الأديرة، ودمروا كنائس المسيحيين المصريين، وإن بول جونسون أحد أبرز مؤرخي تاريخ المسيحية، كتب أن الرهبان استطاعوا بعد حقبة طويلة من اضطهاد الرومان، أن يجمعوا خلال عقدين، ثلاثمائة (٣٠٠) راهب، ليقدموا بالمحاولة الأخيرة، للرحيل بعيدًا عن الاضطهاد الروماني، وكان هدفهم البحث عن مكان لم تكن الإمبراطورية الرومانية قد وصلت إليه، وانطلقوا بسفينتهم في البحر المتوسط، في رحلة طويلة إلى الأطلنطي، قادتهم إلى أيرلندا، التي وجدوا فيها أرضًا خضراء، متحررة من الصراعات الدينية.

ويقول إن خبيئة من اللؤلؤ عثر عليها من مقبرة في بلدة بلوشينيك، وتحدد أصلها بأنها مصرية تعود إلى القرن الرابع، وهو القرن الذي بلغ فيه اضطهاد الأقباط أشده، وكان دافعًا قويًا للهجرة.

يقرر المؤلف أن اتصالات متقطعة جرت في عصور لاحقة من دول شمال أفريقيا مع أيرلندا، بعد أن أصبح العرب من أقدم الجغرافيين الذين يجوبون البحار، ومنهم من أبحر إلى سواحل أيرلندا، وهو ما ترك تأثيرًا لبعض مظاهر إسلامية هناك.

هذه القصة المثيرة، قد يكون هناك اختلاف حولها، وما إذا كانت صحيحة أم لا، لكن المهم أنني وجدت من يهتمون بها هناك، ليس من قبيل الفضول أو حب الاستطلاع، لكن لأن المهتمين بها علماء، ومؤرخون، وباحثون، يدللون على وجهات نظرهم، بأشياء ملموسة على أرض أيرلندا.

هذه واحدة من المشاهد التي أطلت علينا في سنوات العمل في بريطانيا، لكن ما بدأ يتكشف لاحقًا في أمريكا، هو الأكثر إثارة، لأن ما كانت تفصح عنه المصادر الموثقة في أمريكا، يتصل معظمه بمصر، ويقدم إجابات قاطعة على ما كان يتراءى لنا ونحن نعاصر أحداثًا طرفها الآخر الولايات المتحدة، في صور ناقصة أو مراوغة، وكل ما ينقصها هو الدليل المؤكد، من هناك - من داخل الولايات المتحدة.

الفصل الرابع

خزائن الأسرار في أمريكا لها مفاتيح

في أمريكا خزائن الأسرار قد تكون مغلقة لكن لها مفاتيح، المهم أن تعرف أين مفتاح كل خزينة؟ ثم تبذل الجهد في دأب وصبر للوصول إليه، وعندئذ ستجده في متناول يدك.

وكل ما سعيت لمعرفته، كان في معظمه يخصنا في مصر، إما للرد على تساؤل حائر، أو معلومة مراوغة، أو لاستكمال معلومات بدت في حينها ناقصة وغير مكتملة، أو لاكتمال صورة رسمت لنا في وقت ما بشكل يظهرها على غير حقيقتها.

فعقب انتقالي إلى واشنطن مديرًا لمكتب الأهرام التقيت روبرت بلتيرو، وكان وقتها يشغل منصب مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، وعادة كانت المرات التي جلست فيها معه بمقر وزارة الخارجية، لحوار للأهرام، تأخذنا قبل طرح الأسئلة وتلقى الإجابة، إلى ما يشبه الدردشات في موضوعات متنوعة، تتعلق أساسًا بالسياسة الخارجية الأمريكية، وطريقة صناعة القرار في واشنطن، وزيارات المسئولين العرب للعاصمة الأمريكية، وهي موضوعات لم تكن للنشر، بل للتمهيد للحوار الذي سيدور بيننا.

وبيلليترو كان قد سبق له العمل سفيرًا للولايات المتحدة في القاهرة من ١٩٩١ - ١٩٩٣، وكانت وجهة نظره بالنسبة إلى العلاقة الأمريكية مع الإخوان في مصر،

والاتصالات التي كانت تجرى معهم، تسبب إزعاجًا لمبارك. اختلفت وجهات نظره عن ريتشارد ووكر الذي جاء سفيرًا للولايات المتحدة في مصر من ١٩٩٤ - ١٩٩٧، فبينما كانت لدى ووكر شكوك تجاه تنظيم الإخوان، وتعاطف مع مخاوف مبارك تجاه نواياهم، فإن بليترو كان ينظر للإخوان بطريقة تحمل ميلاً نحوهم، وبليتر نفسه أشار إلى هذا الاختلاف بينه وبين ووكر، وقال: كنت أرى أن نتكلم مع أعضاء من الإخوان، ولقد تكلمت معهم بالفعل. وسببت لقاءاته معهم غضب مبارك، وفى إحدى المرات تلقى - حسب قوله - رسالة شديدة اللهجة من الحكومة المصرية، تدعوه لقطع هذه الاتصالات، لكنى أجبتهم بأني لا أستطيع أن أفعل ذلك، فأنا لم التقِ معهم وحدي، بل بحضور أعضاء من القسم السياسي بالسفارة.

بليترو وذكريات عشاء متوتر مع مبارك

واستدعى بليترو من الذاكرة واقعة جرت أثناء زيارة لمبارك إلى واشنطن، يومها وجه وزير الخارجية وارين كريستوفر دعوة لمبارك، على الغذاء، حضرها أيضًا بليترو، الذي كان قد أصبح مساعدًا لوزير الخارجية للشرق الأوسط، وشرح مبارك على الغداء رأيه بأن الإخوان لهم يد في اغتيال السادات، ويضف بليترو: أنني قلت لمبارك إن قمع الإرهابيين يعد سياسة صائبة، لكن ذلك لا يكون مع الإخوان المسلمين.

لم يوضح بيليترو سبب التفرقة بين الإرهابيين وبين الإخوان، لكن دبلوماسيين وضباطًا بالمخابرات المركزية - وهو ما نشر في الولايات المتحدة - قالوا إن المخابرات المركزية هي التي يمكنها الإجابة على سبب هذه التفرقة بين الاثنين، ثم أكمل خبراء وباحثون، ومسئولون أمريكيون وغربيون، بالمعلومات، الجوانب الخفية في هذه العلاقة، التي كانت المخابرات الأمريكية تتولى ترتيباتها، من بداية دخول تنظيم الإخوان في شراكة عمل مع المخابرات المركزية، منذ خمسينيات القرن الماضي. وهي العلاقة التي جرت تنشيطها في عهد جورج بوش، وتواصلت بقوة في فترة حكم أوباما.

كان الحديث مع بيليترو وقت الدردشة الجانبية، خارج موضوع الحوار، قد جرنا إلى الكلام عن طريقة صناعة قرار السياسة الخارجية في الولايات المتحدة، وإبدائه ملاحظة عن أن كثيرين من المسئولين الأجانب - ومنهم عرب - من رؤساء ووزراء خارجية، يتصورون أن الرئيس ينفرد بقرار السياسة الخارجية، ولهذا يركزون كل جهودهم أثناء محادثاتهم في واشنطن على الرئيس، وينسون بقية الأطراف الأخرى في صناعة القرار، التي قد تؤثر على قرار الرئيس نفسه.

هذه الملاحظة من جانب بليترو، كانت محل اهتمام خاص من جانبي من قبل انتقالي للعمل في واشنطن.

ريستون عميد الصحفيين الأمريكيين

يشرح لنا طريقة عمل الرؤساء

فقبل الوصول إلى واشنطن العاصمة الأمريكية عام ١٩٩٥، كانت الذاكرة قد اختزنت واقعة جرت في عام ١٩٨٦، عندما حضرت دورة دراسية عنوانها "صناعة قرار السياسة الخارجية الأمريكية"، في النمسا، فيما يعرف باسم سالزبورج سيمنار، أو The American college الكلية الأمريكية، والمحاضرون في هذه الدورة ليسوا أكاديميين، لكنهم من صناع القرار السياسي في بلدهم، مما يضفي الطابع العملي والتطبيقي، على منهج الدراسة. فمنهم أعضاء في الكونجرس، ونواب سابقون لوزراء الخارجية، وسفراء سابقون، ومستشار سابق للرئيس الأمريكي. وحضر أيضًا من ألمانيا المجاورة، مستشار ألمانيا الأسبق هيلمون شميت، الذي ألقى محاضرة عن الولايات المتحدة، وسياستها في العالم، أغضبت جميع المحاضرين الأمريكيين.

وما قصدت الإشارة إليه هنا، كان يتعلق بالمحاضرة التي ألقاها جيمس ريستون الذي كان يعرف وقتها بعميد الصحفيين الأمريكيين، ومعروف عنه أنه محلل ومفكر سياسي، ومن أقدر الصحفيين في وقته، وكان لمقالاته تأثير كبير

على الرؤساء الأمريكيين. ويعتبر ضمن ثلاثة من أشهر الصحفيين في الولايات المتحدة، في مراحل مختلفة، ممن لهم تأثير كبير في تطور الصحافة الأمريكية في القرن العشرين، وهم جوزيف ألسوب، ووالترليبمان، وجيمس ريستون.

فى محاضرته في سالزبرج شرح لنا ريستون أن الرئيس الأمريكي يبدأ يومه في الصباح، بقراءة مقالات لأربعة من كِبار الكُتَّاب الصحفيين، ويحرص على أن يكون منهم اثنان ممن ينتقدون سياسته، حتى لا ينغلق عقله وتفكيره في حدود تأثره بمن يمتدحون سياسته، فتغيب عنه جوانب يمكن أن ينبهه لها منتقدوه، لم يكن ريستون يتحدث من منطلق أكاديمي، أو حتى من خلال متابعته للرؤساء الأمريكيين. لكنه كان مقربًا من الرؤساء، وعلى اتصال مباشر مع بعضهم، وكانت له واقعة شهيرة مع الرئيس كيندي، ففي ٤ يونيو عام ١٩٦١ كان في عقد اجتماع بين الرئيس جون كيندي، والزعيم السوفيتي خروشوف في فينا لمدة يومين، قبل أن تكتشف الولايات في عام ١٩٦٢، تركيب السوفييت قواعد صواريخ نووية في كوبا التي تبعد سواحلها مسافة ٩٠ ميلاً فقط عن الولايات المتحدة وأشعلت أزمة استمرت عدة أسابيع كادت تحدث مواجهة نووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وانتهت بعد مفاوضات صعبة إلى موافقة خروشوف على سحب الصواريخ النووية من كوبا، مقابل إنهاء كنيدي للحصار البحري Quarantine الذي فرضه حول كوبا.

قبل هذه الأزمة بعام وفى اجتماع فينا عام ١٩٦١، خروج كيندي من الاجتماع مهمومًا، ولم يكن أول شخص يتكلم معه، وزير خارجيته، أو نائب الرئيس أو أحد مستشاريه، فقد كان الوحيد الذي بدأ الكلام معه هو جيمس ريستون، مراسل نيويورك تايمز، الذي اصطحبه إلى غرفة أغلقت عليها وحدهما، بدأه ريستون بالسؤال: كيف حال الاجتماع؟ وكان رد كيندي: كان الأسوأ. فقد كان خروشوف في رأى كيندي متشددًا إلى درجة الفظاظة، وهما يناقشان الأوضاع الدولية المختلفة، وفى الغرفة المغلقة طلب كيندي أن يستمع إلى رأي ريستون، ورؤيته الإستراتيجية، وتحليله، للعلاقة مع السوفييت، وللموقف الدولي عامة.

عرضت دور ريستون في هذه الواقعة نموذجًا لرأيه في دور الصحافة في أمريكا لأنني سمعت منه مباشرة، وإن كان تواصل الرؤساء والكُتَّاب من أصحاب الفكر والرأي المستقل، مسألة معتادة ليس فقط في الولايات المتحدة، بل في دول أخرى كثيرة متقدمة.

لحظة غضب مبارك

في جلسة حوار مع فريد زكريا

من الصحفيين أصحاب الفكر والرؤية المستقبلية، الكاتب والمفكر الأمريكي ذائع الصيت فريد زكريا (من أصل هندي)، اعتدنا أن نراه في الندوات التي تعقد لمناقشات تشارك فيها النخبة المتخصصة في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.

وفريد زكريا ارتبط بالعمل الصحفي، خصوصًا بعد توليه رئاسة تحرير النيوزيك الدولية في التسعينيات، ثم مجلة تايم بعد ذلك، وهو مؤلف الكتاب الذي أثار جدلاً واسعًا في أمريكا وفي العالم وهو "ما بعد العصر الأمريكي".

كان فريد زكريا قد أصدر في فترة حكم مبارك، كتابًا شرح فيه حوارًا دار بينه وبين مبارك، في القاهرة، ساعتها انفعل الرئيس المصري غضبًا حين تحدث زكريا عن ضرورة الأخذ بالديموقراطية في مصر، ورد مبارك عليه إنكم بذلك تريدون أن يحكم الإخوان المسلمون.

وبعد ثورة ٢٥ يناير وبالتحديد في ٣ فبراير ٢٠١١ كتب زكريا مقالاً لم يختلف مضمونه عما جاء في لقائه بمبارك، وقال فيه: إن الرئيس أوباما أوفد إلى مصر مبعوثًا شخصيًا له، هو فرانك ويزنر السفير الأمريكي الأسبق بالقاهرة، لمقابلة مبارك يوم أول فبراير ٢٠١١، وويزنر كانت قد ربطته بمبارك علاقة ودية، وبعد انتهاء عمله سفيرًا بالقاهرة اعتاد ويزنر طوال ٣٠ سنة، أن يلتقي مبارك في قصره الرئاسي بمصر الجديدة كلما جاء في زيارة لمصر، التقى الاثنان في فبراير ٢٠١١، وتبادلا الحديث عن العلاقة الأمريكية المصرية، وعملية السلام، ثم بدأ

ويزنر يثير بلطف وهدوء يثير قضية الإصلاح السياسي، وبسرعة ظهر التوتر على مبارك، وتراجع بظهره إلى الخلف وقال: لو أني فعلت ما تريدون مني أن أفعله، فإن المتطرفين المتأسلمين سوف يستولون على الحكم.

وحذر مبارك، ويزنر من أنه في حالة عدم وجوده، فسوف تسقط مصر في يد التطرف الإخواني، لكن رد فعل ويزنر كان مختلفًا عن أي مرة التقى فيها مبارك، فقد أوضح له إن الوقت قد حان لنقل السلطة. وكانت تلك هي الرسالة نفسها لأوباما، التي أبلغها لمبارك حين تحدثا معا تليفونيًا يوم أول فبراير، وهي المكالمة التي وصفها مسئول بإدارة أوباما، بأنها كانت شديدة اللهجة.

يومها طلب أوباما من مبارك، عدم استخدام العنف ردًا على "خروج مئات الألوف إلى الشوارع"، وكانت الشوارع قد اكتظت بالمتظاهرين الذين حافظوا على السلمية منذ خروجهم إلى الشوارع، وبعدها تحول المشهد إلى العنف.

تقليد أمريكي في تعامل الرؤساء مع كِبار الصحفيين

علاقة الرؤساء في أمريكا بكِبار الصحفيين، كانت تختلف من رئيس لآخر، وإن كان معظمهم يكن احترامًا للمفكرين منهم، ممن يطرحون في كتاباتهم فكرًا، ورؤية، ونظرة مستقبلية للأحداث، فضلاً عن تمتع آرائهم ببعد إستراتيجي، يصل ما بين الداخل والخارج، ويستوعب الدوافع الحقيقية التي تحرك شعوب الدول الأخرى، سياسيًا وثقافيًا، إلا أن غالبية الرؤساء كانت لديهم حساسية من انتقاد سياساتهم، وهو ما كان يجعل علاقتهم ببعض الصحفيين تتراوح بين الرغبة في حسن العلاقة معهم، وبين الشك فيهم.

ونجد ذلك في كثير من الرؤساء المعاصرين.

فحين تولى كلينتون الرئاسة، بدأت تتغير طريقة العلاقة بين الرئيس والصحافة، واكتسبت قدرًا من الدفء والحميمية، وعندما كان أحد الصحفيين يستوقفه بعد انتهاء المؤتمر الصحفي ليوجه إليه سؤالاً، كان يتوقف ويجيب على سؤاله.

وفي بداية عهده قررت السيدة الأولى هيلاري كلينتون، نقل غرفة الصحافة إلى موقع آخر، وتخصيصها لفريق المساعدين الخاص بها، لكن قرارها لم ينفذ بسبب رفض عام من الصحفيين المعتمدين في البيت الأبيض، والذين وافقهم كلينتون على ما أرادوه.

ودائمًا كانت علاقة الرئيس بالصحافة تظهر بشكل واضح في المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض. وأحيانًا ما تصبح غرفة المؤتمر الصحفي، أشبه بقاعة محكمة، عندما تنطلق أسئلة المراسلين فيما يشبه توجيه الاتهامات، إذا ما كان الرئيس واقعًا في ورطة سياسية، حدث هذا مع نيكسون وقت فضيحة وترجيت، ومع كارتر في أزمة الرهائن في إيران، وكلينتون في الاتهامات التي عرفت بصفقة أرض وايتاووتر، وفضيحة علاقته مع مونيكا لوينسكي، وعندئذ تشعل الأسئلة جوًا يسوده التوتر، وكذلك الإجابة عليها.

عميدة مراسلي البيت الأبيض
تحكي لي الاختلاف بين ٦ رؤساء

وكنت قد تعرفت أثناء عملي في واشنطن على هيلين توماس التي أصبحت عميدة مراسلي البيت الأبيض، وهي أمريكية من أصل لبناني، وخلال حواراتي معها، كنت ألمس تعاطفًا وجدانيًا من جانبها تجاه القضايا العربية، فقد بقيت في أعماقها جذور انتمائها لوطن هاجرت عائلتها منه منذ زمن بعيد.

وتعتبر هيلين توماس المرأة التي طال زمن تغطيتها لأحداث البيت الأبيض ابتداءً من كيندي حتى بوش الابن، منذ اعتمادها مراسلة في البيت الأبيض عام ١٩٦١، وإلى أن أصبحت عميدة المراسلين ومنحها عشرات الشهادات للتميز الصحفي.

أكثر من ستين عامًا قضتها هيلين توماس مراسلة في واشنطن، ثلاثة أرباعها في البيت الأبيض وشهدت بعضًا من أكبر الأحداث التاريخية، وتابعتها ميدانيًا من موقعها في البيت الأبيض، وكانت المؤتمرات الصحفية للرئيس، الميدان الذي يتواصل فيه المراسلون معه، أحيانًا بتلقي تفسيرات الرئيس للأحداث بلهفة

المراسل للمعرفة، وأحيانًا بالضغط المتواصل عليه لاستخلاص المزيد من المعلومات منه، إذا لم يكن ما يصرح به يرضي نهم من يسأله.

وفي شرحها لأحداث عايشتها خلال تغطيتها الطويلة زمنًا للرؤساء ابتداء من الرئيس كيندي، قالت لي:

إن علاقة الرؤساء بالصحافة، قد تنوعت من رئيس لآخر، وكان لبعضهم مداعبات ذات مغزى مع المراسلين.

فالرئيس فرانكلين روزفلت كتب ذات مرة على أوتوجراف لأحد المصورين الصحفيين الذي اعتاد تصوير لقاءاته، كلمة بتوقيعه قال فيها: "من ضحيتك المخلص".

وتحدث كيندي عن التغطية الصحفية لنشاطه بقوله: إن قراءتي لها كثيرة، وتمتعي بها قليلة.

ووصفها ليندون جونسون بقوله: إنها مبهرة لكنها لا تصلح للنشر.

أما نيكسون الذي احتفظ بما سمى "قائمة الأعداء" التي شملت أسماء مراسلين صحفيين، فأحيانًا ما كان ينظر إلى المراسلين والمصورين أثناء تجمعهم في غرفة المؤتمرات الصحفية، ويقول: إنها مجرد مصادفة أن تزدحم القاعة في وقت يكون موضوعنا فيه اليوم عن التلوث.

وكثيرًا ما كان كارتر ينطق في بدء المؤتمر بتعبير ضمني، يقول فيه: فليغفر الله لهم ما يعرفونه، وليس لما يفعلونه.

ويذكر عن ريجان أنه التقى بالصحفيين عقب إطلاق ثوار الساندينستا عند حدود هندوراس، النار على طائرة هليكوبتر تقل صحفيين، فقال: كل فرد منهم به بعض الطيبة.

وعقب ترك الرئيس بوش الأب منصبه قال: أثناء وجودي في البيت الأبيض، كنت أومن بحرية الصحافة، أما الآن، فإنني أؤمن بالتحرر من الصحافة.

وحين سئل كلينتون من صديق له، لماذا جرى الصحفيون وراءه، عندما كان يمارس رياضة المشي، أجابه ضاحكًا، لقد أرادوا التأكد من أني سقطت ميتًا.

وكثير من الرؤساء اعتادوا التحدث - كل بطريقته - عن كيفية صناعته للقرار، لكنهم لم يختلفوا في القول باستقلالية كل منهم في اتخاذ قراره، وإنه يمكنه بل يجب عليه الاستماع إلى كل الآراء سواء كانت معه أو ضده، وأن يحيط الشعب علمًا بالقرارات الكبرى، أمام هذا التصور العام اعتاد جونسون القول إن الرئيس عليه أن يستمع للنصائح حتى في حالات إقلاع الطائرات وهبوطها، ولكن في النهاية يكون القرار له وحده، وكانت توجد فوق مكتب ترومان لافته عليها جملة: من لا يعرف يتوقف مكانه، وكثير من الرؤساء كانوا يؤكدون إنهم يعملون مخلصين من أجل حرية الصحافة، لكن أحيانًا ما تثبت أفعالهم عكس ما يقولون.

ورغم مشاعر الرؤساء بالمرارة عندما تشتد نبرة انتقادات الصحافة لهم، فإنهم يوازنون بين ما ينالهم من انتقاد، وبين احتياجهم للصحافة ودورها، وأن ما يفيدهم منها يفوق ما يتعرضون له من الهجوم، ويصف ذلك وزير الخارجية الأسبق دين راسك، الذي قال ذات مرة:

عندما نكون نائمين، يكون نصف العالم يثير المشاكل. وقد لا نكون على علم بها في الحال، وأحيانًا تكون الصحافة هي التي تحيط الرئيس علمًا بهذه المشاكل، وبصفتي وزير الخارجية يتم الاتصال بي في أي وقت، وإيقاظي من النوم في أي وقت، إذا ما حدث شيء يستدعي تواجهي في البيت الأبيض.

كانت فترة عملي في واشنطن، في وقت رئاسة بيل كلينتون، واعتدنا أن نراه أثناء تغطيته المؤتمر الصحفي اليومي بالبيت الأبيض، باعتباري مراسلاً معتمدًا للأهرام بالبيت الأبيض، التي كان يحضر القليل جدًا منها، أو عند حضور الرئيس مبارك في زيارة للولايات المتحدة، ودخولنا المكتب البيضاوي، حيث تسمح التقاليد المتبعة للصحفيين المرافقين للرئيس الزائر، بالتواجد في المكتب البيضاوي قبل بدء مباحثات الرئيسين، وتوجيه الأسئلة لهما.

والمؤتمر الصحفي بالبيت الأبيض بدأ كتقليد، كان أو من نظمه الرئيس فرانكلين روزفلت، كأول رئيس في العصر الحديث يحرص على عقده بصفة منتظمة، بعدها أصبح تقليدًا يهم الرئيس ومراسلي الصحف بالبيت الأبيض، فالرئيس يهمه إعلام الرأي العام بالقضايا السياسية المهمة، والمراسلون يهتمون في هذا المؤتمر بتوجيه أسئلة للرئيس يستخرجون بها منه معلومات وتفسيرات، لن تتاح لهم لو اقتصر الأمر على بيان أو تصريح رئاسي.

والمؤتمر الصحفي يغطيه المراسلون المعتدون بالبيت الأبيض من أمريكيين وأجانب، والصحفيون الأمريكيون الذين يتولون إمداد صحفهم بالأخبار اليومية من واشنطن عددهم كبير، نظرًا لأن في أمريكا ١٥٠٠ صحيفة يومية، كثير جدًا منها تصدر في الولايات البعيدة عن العاصمة.

المعلومات تتدفق بغزارة
على مكتبنا في واشنطن

بعد انتقالي من بريطانيا إلى الولايات المتحدة لتولي رئاسة مكاتب الأهرام الموجودة في ثلاث ولايات: واشنطن، ونيويورك، ولوس أنجلوس، كان ذلك بمثابة تغيير كبير في المناخ الذي تجري فيه ممارسة العمل الصحفي، فنحن نتلقى وفرة في المعلومات التي تأتينا في تدفق مستمر، لدرجة أنني كنت أشبه هذه الوفرة، بما أقوله للبعض، من أننا نجلس في مكاتبنا، ونجد المعلومات تلقى علينا من النافذة، فالأخبار تتاح لنا مبدئيًا من ثلاثة مصادر رسمية، تعمل بشكل يومي، من خلال مؤتمرات صحفية لوزارة الخارجية (الثانية عشرة ظهرًا)، والبيت الأبيض (الواحدة بعد الظهر)، ووزارة الدفاع (في الساعة الثالثة) وكانت مراكز البحوث السياسية Think Tanks وهي جزء ثابت من معالم الحياة اليومية، ولا يقل عددها في واشنطن وحدها عن نحو مائة مركز، تقيم بانتظام، ندوات، وحوارات، ومناظرات، يشارك فيها مسئولون بالحكومة، وخبراء في الشئون السياسية، وصحفيون، وإعلاميون، وهو ما يزودنا بحصيلة خصبة من المعلومات، وهناك المكتبات التي تحمل أسماء رؤساء سابقين، تزخر بكمٍ هائل من الوثائق الرسمية،

المرفوع عنها الحظر بعد مرور ٣٠ سنة بحكم القانون بالإضافة إلى مؤلفات وملفات أخرى للدارسين، ومن اليسير أن تتصل بزعماء وشخصيات سياسية بارزة، لإجراء حوارات معها، تخرج منها بما تريد معرفته.

كان مكتب الأهرام في واشنطن يقع في الطابق الثاني عشر من مبنى الصحافة القومي، الذي يستأجر مكاتبه مراسلو الصحف الأجانب، وكذلك الأمريكيين الذين تصدر صحفهم في مختلف الولايات الأمريكية البعيدة عن العاصمة.

وفي الطابق الثالث عشر يوجد نادي الصحافة القومي، الذي يأتي إليه رؤساء الدول ووزراء الخارجية، الزائرون لواشنطن، للتحدث في مؤتمرات صحفية، يجيبون على ما يقدم لهم من أسئلة من المراسلين.

في هذا الجو تتسع فرص الاطلاع لمن يريد، على الكثير من المعلومات، التي لا تجدها في تغطيات الصحف، أو في قنوات التلفزيون، خصوصًا إذا كنت تسعى وراء معلومات معينة تهمك.

فتح الملفات المغلقة

البُعد الأمريكي في الصراع بين مصر وإسرائيل

كانت فرصة نادرة أن يزيح مسئولون أمريكيون شركاء في صناعة قرار السياسة الخارجية، بأيديهم الستار السميك، الذي حرصوا لنحو ٢٥ عامًا، على أن يحجب عن الأعين تفاصيل ما جرى على أرض سيناء في حرب ٧٣، التي أنزلت فيها مصر - باعترافهم - الهزيمة بإسرائيل، وكيف تدخلت أمريكا لانتشالها من هذه الهزيمة؟.

وفي ثنايا مناقشات المؤتمر الذي نظمه الأمريكيون بمناسبة مرور ٢٥ عامًا على حرب أكتوبر، تكشفت زوايا كثيرة للنظر إلى قواعد التفكير الإستراتيجي للولايات المتحدة، والمؤثرات وراء صناعة السياسة الخارجية.

مسئولون أمريكيون كِبار يعترفون

للمرة الأولى بهزيمة إسرائيل في ٧٣

ظلت تتابع أمامنا في واشنطن حقائق، تعمدت إسرائيل تزييفها، وبثها للرأي العام الأمريكي، بصورة تخالف الحقيقة لهذا كانت أهمية إحدى هذه الحقائق، التي تتعلق بما جرى في حرب أكتوبر ١٩٧٣، أنها طرحت علنًا، وفى مؤتمر شاركت فيه مختلف الأطراف المتصلة سياسيًا وعسكريًا بهذه الحرب وقت حدوثها، ونظم المؤتمر الأمريكيون أنفسهم.

أتيحت لنا هذه الفرصة النادرة في أكتوبر عام ١٩٩٨، ونحن نرى ونسمع مسئولين أمريكيين كِبار، صنعوا قرارات السياسة الخارجية، يعترفون وللمرة الأولى بأن إسرائيل هزمت في حرب ٧٣، لولا أن سارعت الولايات المتحدة بإنقاذها من الهزيمة بالجسر الجوي الذي نقل إليها السلاح، والعتاد، والدعم، كان المؤتمر بمناسبة مرور ٢٥ عامًا على حرب أكتوبر ١٩٧٣، ووجدناها فرصة لاستخراج الجزء الذي بقي غاطسًا ربع قرن، عن حقيقة ما جرى على أرض سيناء. وهو المؤتمر الذي حضرته كمراقب، وكتبت ما جرى فيها في حلقات نشرت بالأهرام، وبعدها بثلاث سنوات صدرت التفصيلات الكاملة للمؤتمر في كتاب من ٤٠٠ صفحة، عن دار النشر بجامعة فلوريدا، وكان عنوانه: "حرب أكتوبر. استعادة أحداث مضت".

الندوة شارك فيها نحو ٣٠ شخصًا يمثلون النخبة المرموقة في صناعة السياسة الخارجية الأمريكية، والمختصون أساسًا بالشرق الأوسط، بالإضافة إلى قيادات عسكرية ودبلوماسية إسرائيلية، وأيضًا جنرالات سوفييت، وكلهم شهود على ما جرى في حرب ٧٣.

قدم جيمس شليزنجر وزير الدفاع في حكومة نيكسون بالتفصيل من ورقة مكتوبة راح يقرؤها، عملية إقامة الجسر الجوي طوال ٢٤ ساعة ما بين أمريكا وإسرائيل، وهو الذي أبعدها عن حافة الهزيمة، ثم كان السؤال الذي اتسم

بالذكاء من دكتور شبلي تلحمي الخبير الأمريكي في قضايا الشرق الأوسط، الذي وجهه إلى شليزنجر قائلاً: إذا لم تكن هذه المساعدات الأمريكية قد وصلت إلى إسرائيل، فهل كان وضعها العسكري ميدانيًا سيختلف؟ بمعنى أن الجسر الجوي كان حاسمًا في تعديل موقف إسرائيل عسكريًا، وكان رد شليزنجر بالموافقة على سؤال تلحمي.

وأهمية ما خرجنا به من المؤتمر إن ما كنا نعرفه نحن، قد اعترف به الأمريكيون بعدها بخمس وعشرين سنة، ووسط أجواء حملات دعائية إسرائيلية لم تتوقف يومًا في الولايات المتحدة، تقول لهم إن إسرائيل هي التي انتصرت في حرب ٧٣.

داخل قاعة المؤتمر وتفاصيل ما دار فيه

المؤتمر الذي استمر يومين كاملين من الصباح إلى المساء في منتصف أكتوبر ١٩٩٨، الذي شارك فيه نحو ٣٠ شخصًا يمثلون النخبة المرموقة في صناعة السياسة الخارجية والمختصة أساسًا بالشرق الأوسط، منهم من الولايات المتحدة: جيمس شليزنجر، والسفراء مايكل ستيرنر، وريتشارد باركر، وروسكو سوراث، وهيرمان أيلتس، وروجر ميريك، وألفريد أثرتون، وبيتر روندوم، ومن الأكاديميين من أساتذة العلوم السياسية شبلي تلحمي، وجينى جروس ستاين، وجورج جوريش، وبرنارد رايش، وريتشارد هيرمان، ووليام زارتمان، ومن إسرائيل: السفير سيمحا دينتز، والوزير مردخاى جازيت، والبريجادير أريه شاليف من المخابرات العسكرية الإسرائيلية، ومن الاتحاد السوفيتي السابق: الجنرال فاديم كيربتشنكر ممثل المخابرات السوفييتية، ومن مصر: السفير أحمد ماهر السيد، والسفير أشرف غربال، واللواء طلعت مسلم، ومن الأردن: الجنرال بسام كاليش، وكانت سوريا قد اعتذرت لأن الإعلام حاول أن يصور حضور السفير السوري مؤتمر في العام الماضي على أنه مباحثات بين سوريا وإسرائيل، ولذلك حضر الدكتور مرهف جويجاتى بحكم كونه أمريكيًا خبيرًا في الشئون السورية، وقد نظم المؤتمر معهد الشرق الأوسط في واشنطن، بالتعاون مع كرسي أنور السادات للتنمية بجامعة ماري لاند.

وحين بدأت أولى جلسات المؤتمر فإن جميع المشاركين الذين اصطفوا على مائدة مربعة الأضلاع بدون جمهور سوى قليل جدًا من الشخصيات الذين سمح لهم بالحضور كمراقبين - وكنت من ضمنهم - كان أمامهم سؤال واحد، وينبغي على كل منهم أن يقدم إجابته عليه، وهو: هل كان يمكن تفادي وقوع حرب أكتوبر؟

الدكتور أشرف غربال قال: إن حرب أكتوبر وضعت نهاية للاعتقاد لدى الولايات المتحدة وإسرائيل بأنه ما دامت إسرائيل تتمتع بالتفوق فلن يستطيع العرب خلق أي مشكلة لإسرائيل، ولم تحاول الولايات المتحدة أو إسرائيل أن تقرأ العرب قراءة حقيقية، أو تتوقع أن في مقدورهم في المستقبل تغيير الأمر الواقع، وقامت الولايات المتحدة بتكريس كل إمكاناتها لتحقيق غرض التفوق الإسرائيلي، ولهذا وقعت حرب أكتوبر، وقدم الدكتور أشرف غربال عرضًا للأحداث التي توالت التي كان لابد أن تؤدى إلى حرب أكتوبر خصوصًا عدم ظهور أي بادرة لدى الجانب الأمريكي بالاستجابة لمحاولات الرئيس أنور السادات الوصول إلى حل سلمي، يعدل من الوضع القائم باستعادة الأرض المحتلة وإقامة السلام. فقد مضت ستة شهور منذ نهاية حرب يونيو في مداولات ومفاوضات حتى يصدر القرار ٢٤٢ من مجلس الأمن بينما الولايات المتحدة تصر على إلغاء كلمة الـ The من الأراضي التي تنسحب منها إسرائيل حتى تقرأ أراضي وليست الأراضي، ولعلنا نذكر قصة الحاكم سكرانتون الذي كان مبعوثًا لنيكسون وجاء للمنطقة وأدلى بتصريح يقول فيه: إن الولايات المتحدة ستتبع سياسة غير متحيزة تجاه النزاع العربي الإسرائيلي، وفى الحال انقلبت الأرض من تحته، ولم نعد نسمع حتى اسم سكرانتون بعد ذلك، وفى الاتصالات التي كانت تجرى بين الولايات المتحدة وإسرائيل في هذه الفترة، التي شهدت خلافات بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية حول السياسة التي يجب أن تتبع تجاه النزاع العربي الإسرائيلي، فقد أكد هنري كيسنجر الذي كان حينئذ مستشارًا للأمن القومي في البيت الأبيض، لجولدا مانير رئيسة وزراء إسرائيل، أن ما يقوله هو والرئيس نيكسون هو الذي يعبر عن سياسة الولايات المتحدة، مهما كان ما تقوله وزارة الخارجية الأمريكية،

ويتساءل دكتور غربال: لماذا لم تغير الولايات المتحدة سياستها تجاه مصر بعد وفاة جمال عبد الناصر، التي كانت تكره سياسته على الرغم من أن الرئيس السادات حاول أن يفتح صفحة جديدة مع الولايات المتحدة لكنه لم يتلقَ ردًا؟.

ولقد قطع الرئيس السادات شوطًا بعيدًا باقتراح انسحاب جزئي إسرائيلي من الضفة الأخرى لقناة السويس مقابل إعادة فتح القناة والسماح بالمرور للملاحة الإسرائيلية، لكن إسرائيل رفضت الاقتراح بغطرسة واضحة، وفى عام ١٩٧٢ قابلت هنري كيسنجر بمناسبة عودتي إلى القاهرة، وبحثنا عقد لقاء مباشر بينه وبين الرئيس السادات، ثم أوفد السادات مستشاره للأمن القومي حافظ إسماعيل لمقابلة كيسنجر في واشنطن في ربيع ١٩٧٣، لكن اجتماعاتهما لم تسفر عن شيء، وحتى عندما أنهى الرئيس السادات الوجود العسكري السوفييتي في مصر، فكل ما تلقاه من الولايات المتحدة هو كلمة (برافو)، ولم تأخذ الولايات المتحدة قرار الرئيس السادات بجدية، بل إنني حين سألت هنرى كيسنجر عن هذا السلوك، قال لي: سوف آخذه بجدية عندما تنشب الحرب، وسوف نغير رأينا.

وكان السادات يعرف أن مصر ليس لديها حتى ذلك الوقت قدرات تمكنها من تغيير الموقف العسكري، لكنا جميعًا اتفقنا معه في رأيه بأننا لا يمكن أن نبقى في موقف مستكين، ولابد أن نفعل شيئًا، ولهذا نشبت الحرب، وتغيرت صورة مصر واستعادت مصر كرامتها، وبدأ الطريق إلى السلام، هكذا كانت الصورة التي عرضها الدكتور أشرف غربال، ثم جاءت إجابات المشاركين على السؤال الرئيس في هذا المؤتمر: هل كانت الحرب بين مصر وإسرائيل حربًا لا بد منها.

حين نمر باختصار على الإجابة المباشرة التي قدمها كل من المشاركين في هذا المؤتمر على السؤال المحدد أمام كل واحد منهم: هل كان يمكن تفادي الحرب؟ فسوف نجد أن الإجابات جاءت على النحو التالي:

السفير مايكل ستيرنر قال: "ما زلت أشك أن حرب ٧٣ كان يمكن تفاديها، فلم يكن ممكنًا للرئيس السادات التفاوض مع إسرائيل إلا بعد إزالة آثار هزيمة ٦٧، والتخلص من الشعور بالمهانة التي نتجت عن هذه الهزيمة، وبشكل عام يلاحظ

أنه من خلال الحرب استطاع السادات أن يرفع مكانة العرب عالميًا، وإدخال الولايات المتحدة طرفًا في دوبلوماسية المصالحة، وبعد الحرب كان راغبًا في المفاوضات المباشرة مع إسرائيل مستعدًا لفك الاشتباك بين القوات وقبول دوبلوماسية الخطوة خطوة، لكي يصل في النهاية إلى تسوية نهائية للنزاع العربي الإسرائيلي"، السفير هارولد سوندرز قال: السؤال عندي هو أن رجلاً له رؤية كالرئيس السادات حاول أن يجرب وسائل أخرى غير الحرب لاستعادة كرامة شعبه والشعوب العربية، فماذا سيفعل؟ إن الرئيس السادات قال في عام ٧١ بوضوح: إنه سيدخل الحرب لثلاثة أسباب:

١- استعادة الكرامة العربية وإزالة المهانة التي سببتها هزيمة ٦٧.

٢- إدخال القُوى الكبرى طرفًا في تعديل الميزان السياسي والعسكري مع إسرائيل.

٣- الدخول في مواجهة مع إسرائيل تدفعها إلى تغيير موقفها

ألفريد أثرتون لخص الإجابة في عبارة موجزة بقوله: "أعتقد أن الرئيس السادات كان له ما يريده، وجولدا مانير كان لها ما تريده وأمريكا لها ما تريده، ولا اتفاق بين ما يريده الثلاثة، لذلك لم يكن من الممكن تفادى الحرب".

البروفيسور شبلي تلحمي قال: "ما سمعناه من الرئيس السادات أو هنري كيسنجر أوضح لنا أنه لا إمكانية لحل سلمى، وأن الحرب صارت ضرورة، وما سمعناه من الرئيس أن الحرب لا مفر منها وأنها ضرورة، وما سمعناه من كيسنجر هو: لا تتوقعوا أن يتحقق لكم على مائدة المفاوضات ما خسرتموه في ميدان المعركة، وربما لم يكن كيسنجر يقصد الحرب بهذا المعنى الحرفي، لكن ذلك أقنع السادات أن الحرب ضرورة".

السفير الأمريكي الأسبق في إسرائيل صمويل لويس، وقف معلقًا كمراقب ليس كمشارك على السؤال: هل كانت الحرب حتمية فتساءل: "هل كانت هناك وسيلة أخرى تعيد للعرب كرامتهم؟ يبدو لي وأنا أجيب على السؤال أن الحرب كانت حتمية".

اللواء طلعت مسلم أفاض في الإجابة على السؤال من واقع كونه من العسكريين الذين شاركوا في هذه الحرب وقال: "حقيقة أن مصر كانت مستعدة للحرب لكن هذا يعنى أنها كانت أيضًا مستعدة للسلام، لكنها كانت مستعدة للسلام الشامل والدائم، وكان يكفي أن يكون أمام الرئيس السادات طريق للسلام، وما زال هذا هو الهدف لمصر والعرب حتى اليوم: السلام الشامل يعني أن كل الأراضي التي احتلت في ٦٧ لا يمكن تجزئتها، ولا بد أن يكون هناك وعد أن كل هذه الأراضي ستعاد لأصحابها، وهذا أول شرط لسلام عادل وشامل، ولم تكن هناك فرصة لسلام منفصل".

السفير المصري في واشنطن أحمد ماهر السيد قدم شرحًا للصورة التي كانت قائمة قبل الحرب، التي كانت تقود في نهايتها إلى ضرورة قيام الحرب قال: "لم تسفر كل المحاولات السياسية التي جرت عن نجاح، وكان واضحًا أن الموقف الأمريكي مقوض ومنحاز وغير فعال بالنسبة إلى إيجاد السلام، وكان الموقف الأمريكي سلبيًا جدًا، وبسبب هذا كله فشلت محاولات السلام لسلبية الموقف الأمريكي وعدم فاعليته وغياب دور سوفييتي فعال في البحث عن السلام، كان واضحًا أن السادات ليس لديه حل سوى اللجوء إلى الحرب، ليست حربًا لتحرير سيناء فقط، بل حرب تفتح الطريق لتحرير كل الأراضي العربية المحتلة، وكانت الحرب تهدف إلى إلغاء فكرة أسطورة التفوق الإسرائيلي، وإلغاء فكرة عدم قدرة العرب على الحرب، وهو الاعتقاد الذي ساد بعد ٦٧، والأهم من ذلك أن الرئيس السادات لم يكن لديه أي تفكير في أن الحل الذي يسعى إليه من خلال الحرب هو حل مصري، بل حل شامل وكان ذلك واضحًا من مشاركة سوريا في الحرب وفي السلام".

الجنرال فاديم كير تشنكو وكان مديرًا لمركز المخابرات السوفييتية في القاهرة أثناء الحرب قال: "بعد ٢٥ عامًا على انتهاء حرب أكتوبر ٧٣ يأتي السؤال الآن: هل كان يمكن تجنبها؟ نعم كان يمكن لو أن إسرائيل استجابت وبدأت في تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢، وكان الرئيس السادات أكثر مرونة من عبد الناصر وكان

يطلب السلاح من السوفييت، لكننا من جانبنا كان من الصعب أن نعرف متى تبدأ الحرب، وكان هدف السادات تحريك الموقف، والنتيجة أن هذه الحرب أعادت له سيناء كلها، وكان مقتنعًا أن المشكلة المصرية هي الأسهل للحل، وأن إسرائيل عاجلاً أو أجلاً ستعيد الأراضي الفلسطيني والجولان، وهو يرى أن الحل كان سيتم بكل الوسائل عسكرية وسياسية وديبلوماسية، لكن السوفييت لن يساعدوه على استعادة أراضيه وأن الحل في يد الولايات المتحدة، ولهذا بادر بالتقارب معها وأنهى الوجود السوفييتي في مصر في الوقت نفسه الذي طلب فيه السلاح من الاتحاد السوفييتي، لكن قراره بترحيل الخبراء السوفييت من مصر قد أعفانا من مسئولية الوقوف معه عسكريًا إن دخل في حرب مع إسرائيل".

الحرب فرضت حقائق جديدة على أمريكا وإسرائيل

إذن فقد قامت الحرب، وقبل أن نتعرض لبقية الجوانب المهمة، خصوصًا النتائج الإستراتيجية التي ترتبت عليها والتغيير في مواقف الأطراف الذي فرضته الحرب، خصوصًا مواقف الولايات المتحدة وإسرائيل، فقد كانت هناك نقطة مهمة وحاسمة تجيب على السؤال الذي ما زال يتردد، وهو: من الذي انتصر في هذه الحرب، خصوصًا أن إسرائيل كانت حريصة طوال السنين الخمس والعشرين الماضية على أن تزعم أنها انتصرت أو على الأقل أن مصر وسوريا لم تحققا الانتصار.

وإذا كان كثير من المتحدثين وهم أطراف مباشرون لما جرى خلال الفترة قد ابتعدوا عن أي إشارة إلى أن إسرائيل انتصرت أو هزمت واستخدموا عبارة نجاح مصر عسكريًا في هذه الحرب، ولعلي أستعيد هنا جملة خارج سياق المؤتمر كتبها المعلق اليهودي الأمريكي ماثيو دورف حين قال: "إن القوات المصرية السورية أنزلت خسائر جسيمة بالجيش والطيران الإسرائيلي، وإن جولدا مائير، وهي تواجه أسوأ خسائر في التاريخ الإسرائيلي على أرض المعركة، قد عرضت أن تترك موقع القيادة وتطير إلى واشنطن لتستغيث شخصيًا بالرئيس نيكسون، لكي يعيد إمداد إسرائيل بالسلاح".

وأما في المؤتمر فإن أهم شخصية يرجع إليها كمصدر لهذه الحقيقة التاريخية هو جيمس شليزنجر الذي كان وزيراً للدفاع في الولايات المتحدة أثناء حرب أكتوبر ٧٣، ولقد خصصت له كلمة منفردة في مساء اليوم الأول للمؤتمر وبعد حفل العشاء ليتحدث في موضوع واحد فقط هو "الجسر الجوي" الذي أقامته الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل من الهزيمة التي كانت قد وصلت إلى حافتها.

تفاصيل الجسر الجوي لإنقاذ إسرائيل

قال شليزنجر في تقديمه لكلمته: "شعرت وأنا وزير للدفاع بأن حرب ٧٣ كانت مفاجأة لنا، ونحن كانت لنا في ٧٣ مخابرات متفوقة، فإذا كانت المفاجأة عندنا هي فشل المخابرات، فإنها كانت لدى إسرائيل مشكلة في تقويم المعلومات، وكان رد فعلنا المبدئي في واشنطن أن إسرائيل ستنتصر حتى ولو لم يكن انتصاراً حاسماً، وكان تصورنا مستنداً إلى ما جرى في حربي ٦٧،٥٦ وعلى القوة العسكرية الإسرائيلية، أي أن النية المبدئية لدينا بناء على هذا ألا نتورط صراحة في التدخل إلى جانب إسرائيل لعدة أسباب هي: قلقنا على علاقتنا بالعرب، خصوصاً أن أي هزيمة عربية أخرى لن تساعد على إخراج السوفييت من المنطقة، بالإضافة إلى أن هزيمة أخرى للعرب لن تفتح الطريق للسلام"، وبدأ شليزنجر يقرأ من ورقة أمامه بالتواريخ وبالأيام وبالساعات الموقف الأمريكي الذي وصل إلى نقطة إقامة جسر جوي طوال ٢٤ ساعة ما بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

قال: في البداية سألني هنري كيسنجر عن الخيارات التي نقترحها لتقديم المساعدة التي طلبتها جولدا مائير، وفى اليوم الأول كانت إسرائيل واثقة من أنها سترد على نجاحات مصر وسوريا العسكرية بمجرد إعادة تزويدها بالإمدادات، لكن حل يوم الأربعاء وشعرنا بأن التشاؤم يسود الإسرائيليين، وأن إمداداتها العسكرية تنفد ولا تساعد على تعويض خسائر الحرب، وكان هذا شيئًا متناقضًا مع موقف إسرائيل في حرب ٦٧، ففي ٧٣ كان تعويض الخسائر عالياً جداً، وكان لدينا خوف من أن تهزم إسرائيل بينما الولايات المتحدة لا تريد إظهار دورها

الصريح في إرسال الإمدادات إليها، وقلت للبيت الأبيض نحن نستطيع أن نمشي نصف الطريق، فما دمنا نريد مساعدة إسرائيل فعلينا أن ننقل إليها الإمدادات على الطائرات الأمريكية، وفي المساء تلقيت الموافقة من البيت الأبيض بمد الجسر الجوي إلى إسرائيل، لكنني تمسكت بإبلاغ إسرائيل ضرورة أن تصل الطائرات إليها في الظلام، وأن تفرغ حمولتها قبل حلول النهار، وجاءني السفير الإسرائيلي في واشنطن سمحادينتز والتزم أمامي بذلك، وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي تحركت طائراتنا شرقًا مستخدمة في طريقها قواعدنا في البرتغال، وحدثت مفاجأة لم نكن نتوقعها، ورغم ما اتفقنا عليه مع إسرائيل وحرصنا عليه، فقد كانت هناك عاصفة أدت إلى أن هبطت الطائرات في الصباح وعليها علامات الجيش الأمريكي، ولم نكن نستطيع عندئذ أن نقول: إننا لسنا مشاركين فيما يجري، بل إن فرحة الإسرائيليين بوصول الإمدادات جعلت نصف سكان تل أبيب يلتفون حول مكان هبوطها ويصفقون لوصول الطائرات الأمريكية".

وحين انتهى شليزنجر من عرض قصة الجسر الجوي الأمريكي، دخل الحاضرون في مناقشات معه، حدث أثناءها نوع من الكلمات المتبادلة بشكل شابه التوتر من جانب سمحادينتز الذي كان سفيرًا لإسرائيل في واشنطن في ذلك الوقت، حتى إنه كان يسأل وزير الدفاع وكأنه يحمله مسئولية عدم الاستجابة بما فيه الكفاية لقرارات البيت الأبيض.

وقد رد عليه شليزنجر بقوله: "إني أعطيت أوامري طبقًا للتعليمات التي صدرت لي، وعندما تغيرت التعليمات أعطيت أوامر مختلفة"، وكان شليزنجر يقصد بهذا تحفظ البيت الأبيض في البداية من الاندفاع في إغراق إسرائيل بالمدد العسكري اعتقادًا منهم أنها قادرة على هزيمة العرب، وحين ثبت لهم العكس غيروا موقفهم.

جوزيف سيسكو سأل سؤالاً، أجاب عليه شليزنجر بأن كيسنجر كان ينقل له تشاؤم الإسرائيليين، وأن الجسر الجوي كان أمرًا لا مفر منه، وفي هذه اللحظة

وقف شبلي تلحمي يلقى بسؤال يبدو أنه أراد به ألا تمر هذه النقطة دون أن تحسم بشكل واضح وصريح، حتى لا تظل معلقة، وكان سؤاله: هل كان الجسر الجوي مسألة حاسمة بالنسبة إلى إسرائيل؟ وكانت إجابة شليزنجر قاطعة، وهي: نعم كان الجسر الجوي حاسمًا لإسرائيل التي كانت تواجه متاعب، وقد تلقيت من هنري كيسنجر بلاغًا بأن الرئيس نيكسون قرر استعواض جميع خسائر إسرائيل، وشهدت جميع مؤسسات الحكومة الأمريكية نشاطًا لسد ما تحتاج إليه إسرائيل من زاوية إستراتيجية، هي أن أمريكا لن تسمح بهزيمتها.

انتهت الحرب التي فتحت الطريق لعملية السلام بالنسبة إلى إسرائيل، قال سمحادينتز الذى كان سفيرًا لإسرائيل في واشنطن في ذلك الوقت: "إن تقويم إسرائيل كدولة كان يتم من خلال أدائها في الحروب، وكانت كل حرب دخلناها تمثل حجر أساس في بناء إسرائيل منذ حرب التحرير ٤٨ (على حد تعبيره) وحملة سيناء ٥٦ وحرب الاستنزاف بعد ٦٧، لكن في حرب أكتوبر أعتقد أنها هي التي فتحت الطريق أمام السلام، وهذه الحرب بالنسبة إلى مصر تعني قدرتها على إزالة آثار ٦٧، فإن عبور قناة السويس جعل مصر تتخلص من الشعور بالمهانة" - وإن كان دينتز قد شكك في أن مصر ستكون مستعدة للتفاوض لو أن هذه الحرب - ٧٣ - انتهت بهزيمة كاملة لإسرائيل، ثم يقول دينتز: "بالنسبة إلى إسرائيل كانت الحرب حافزًا للسلام من منطلق الشعور بأن القوة في حد ذاتها أو الأرض في حد ذاتها ليست هي الحل".

وبالنسبة إلى الولايات المتحدة فإنها بعد ٦٧ حصرت نفسها في دائرة إيجاد إطار للسلام وأيديولوجية السلام، لكنها لم توجد الميكانزيم الذي يمكن أن يحقق السلام، وعندما ظهرت خطة ويليام روجرز وزير خارجيتها وقتئذ كمقترحات، فإنها لم تتضمن أي ميكانزيم، وهنا تأتي أهمية حرب أكتوبر في أنها دفعت الولايات المتحدة للقيام بدور دوبلوماسي فعال، أي أوجدت إستراتيجية للسلام وأن إدارة الأزمة التي نراها اليوم هي نتيجة أن الحرب فرضت دبلوماسية للسلام في المستقبل على أساس:

١ - أن مصر يجب ألا تلحق بها أي مهانة.
٢ - أن إسرائيل يجب ألا تهزم.

أي بقاء الطرفين قادرين على أن يكونا شريكين في صنع السلام، وكان لدى كيسنجر هدف مكمل، هو تقليص النفوذ السوفييتي من خلال ثقة العرب في دبلوماسية أمريكا، ولقد انتهت الحرب وكانت الأطراف مستعدة لدبلوماسية ما بعد الحرب ومهدت الإستراتيجية الأمريكية للمسرح بدبلوماسية ناجحة لم يسبق أن وجدت في الشرق الأوسط، وكان على الولايات المتحدة أن تواجه موقفًا جديدًا.

كان واضحًا اتفاق جميع المشاركين في المؤتمر على أن الإستراتيجية المصرية، وحرب ٧٣ هي التي غيرت مواقف جميع الأطراف، خاصة أنها دفعت الولايات المتحدة إلى أن تكون لها سياسة وإستراتيجية للسلام ودفعت إسرائيل لإعادة النظر في جميع المسلمات السابقة لديها عسكريًا وسياسيًا، أو على حد تعبير سفيرها في واشنطن في ٧٣ "سمحا دينتز" أن إسرائيل بعد حرب أكتوبر ليست هي إسرائيل قبل هذه الحرب، وبناء على أن حرب أكتوبر خلقت حقائق إستراتيجية جديدة في المنطقة، فإنه يرتبط بذلك السؤال: ما الذي كان يدور في عقل الرئيس السادات في دخوله الحرب أولاً، ومن دبلوماسية ما بعد الحرب ثانيًا؟

الإجابة على هذا السؤال جاءت من المشاركين في المؤتمر على النحو التالي:

هارولد سوندرز قال: السادات كان رجلاً ملتزمًا بمبادئ، وكان لجوؤه إلى الحرب يبدأ بهدف استعادة الكرامة العربية، فالدبلوماسية قبل هذا لم تكن قد استجابت لما يريد، وكانت هناك انقسامات في الحكومة الأمريكية منعت الاستجابة لمبادرة السادات الأولى في عام ١٩٧١.

ويقول السفير مايكل ستيرنر: أعترف بأن الظروف السائدة في الولايات المتحدة كانت غير فعالة دبلوماسيًا، فالموقف الداخلي الأمريكي كان يشهد في

منتصف ١٩٧١ استعداد نيكسون لإعادة انتخابه، ولم يكن مطلوبًا أي عمل يدفع إسرائيل لضغط داخلي عليه، ثم إن البيت الأبيض كان مشغولاً بمبادرة أخرى في باريس للسلام في فيتنام، وبالنسبة إلينا نحن المسئولون في وزارة الخارجية في ذلك الوقت كانت هناك اختلافات فيما بيننا، وبعضنا يرى أنه بدون تحقيق تقدم لحل المشاكل الرئيسية في الشرق الأوسط فسوف يتدهور الموقف في المنطقة والفرصة كبيرة أمام اشتعال النزاع، وأخيرًا هناك النزاع الشخصي بين كيسنجر الذي كان يشغل منصب مستشار الأمن القومي وويليام روجرز الذي كان وزيرًا للخارجية، وقد أثرت الخلافات الحقيقية بينهما على الدبلوماسية الأمريكية في ذلك الوقت.

وكان لدى كل من مصر وإسرائيل أسبابها المختلفة التي تجعلها تشعر بانقسام أمريكا على نفسها حول سياساتها، وهو ما أثر بالفعل على دبلوماسيتنا في الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٣.

وعن إسرائيل، فقد كان الإسرائيليون تنقصهم المرونة وليست لديهم استجابة أو رؤية للسلام، ولم تكن هناك مقترحات مضادة من جانب إسرائيل تقابل أي مبادرة تقدم إليها فيما يريده الرئيس السادات من المفاوضات، وبعدها ازداد تصلب الإسرائيليين تجاه الأمريكيين الذين حملوا إليهم مبادرة روجرز.

مردخاى جازيت الوزير الإسرائيلي والذي كان في سنة ١٩٧١ مساعدًا لوزير الخارجية لشئون أمريكا الشمالية قال: في الستينيات عرض دين راسك وزير الخارجية الأمريكي في حكومة الرئيس جونسون على محمود رياض وزير خارجية مصر أثناء لقائهما في نيويورك إعادة سيناء كلها إلى مصر، لكنه رفض لأن العرب مرتبطون بعودة كل الأراضي، ثم إن السادات عندما جاء إلى الحكم، كان يفكر في حل للانسحاب من كل الأراضي، وليس من سيناء وحدها.

هارولد سنوندروز قال: من بين أهداف الرئيس السادات لحرب ٧٣ إيجاد الصيغة المناسبة لتغيير مواقف كل الأطراف، بما فيها القوة العظمى، وأن تكون أمريكا اللاعب الرئيس في التسوية التي يجب أن تتحقق كتسوية شاملة، وكان

هذا واضحًا في أول لقاء لكيسنجر والسادات بعد حرب ٧٣، والسبب نفسه كان وراء حضور الرئيس السادات إلى كامب ديفيد.

جوزيف سيسكو قال: "عندما كنا نتفاوض مع السادات بشأن قناة السويس - مع أنه كان يركز على القناة - لكن من الواضح أنه كان ينظر إلى التسوية الشاملة، وكان شعوري عندئذ أن علينا أن نختبر هذا الاتفاق المحدود لنرى من خلاله إمكان الربط بينه وبين الاتفاق الشامل، أي إن المفهوم الذي ساد هو: أن يكون الاتفاق المحدود خطوة إلى ما يليه، وأنا لا أختلف هنا مع الذين قالوا إن السادات كان مصممًا على اتفاق شامل، ولو أننا لم نختبر الاتفاق المحدود لأنه لم يحدث".

من المهم كما يقول سترنز إن السادات غيَّر الموقف الأمريكي من خلال حرب أكتوبر فلم يكن الشرق الأوسط قبل ٧٣ ضمن أولويات الحكومة الأمريكية، والوفاق الأمريكي السوفييتي كان لدى أمريكا أهم من تحريك الموقف في الشرق الأوسط، وكان من رأي كيسنجر في يونيو ٧٣ أنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا يضر حلفاءنا (إسرائيل) ولا تستطيع أن تفعل شيئًا يفيد أعداءنا (السوفييت) وكان نيكسون يميل لموافقة كيسنجر على رأيه، ولما كانت هذه الفترة عام انتخابات وهناك مبادرة أخرى خاصة لفيتنام أكثر أهمية، فقد كان لكيسنجر يد مطلقة في السياسة التي اتخذت.

والاتفاق العام داخل المؤتمر على أن قرار مصر بدخول حرب أكتوبر قد حرك المياه الراكدة وغير مواقف كل الأطراف تغيرًا كاملاً. في هذا يقول السفير روسكو سوردات: كان هناك صمت في وزارة الخارجية الأمريكية وفي وزارة الدفاع تجاه المبادرات التي يقدمها الرئيس السادات لمحاولة إيجاد حل سلمي لاحتلال الأرض.

السفير أشرف غربال قال: لم نر أي خلاف بين حكومة جونسون وحكومة نيكسون، وهناك وقت لا بد أن يأتي ويكون على الدولة أن تتصرف بصرف النظر عن الظروف.

شبلي تلحمي تساءل: في سنة ٧٣ من كان سينظر بجدية لفكرة أن الحرب ستقوم؟ ولم يكن ممكنًا قبول أي شيء للحل قبل أن يحقق السادات النجاح الذي تحقق في ٧٣.

السفير هرمان أيلتس قال: "السادات نظر إلى الولايات المتحدة من منظور واسع، فهو لم يكن يريد مشاركتها في عملية السلام فقط، بل كان يريد الولايات المتحدة ويحتاجها للمساعدة في إعادة بناء مصر، وكان يرى أنه عن طريق المساعدة الأمريكية، فإن مصر تستطيع إعادة بناء نفسها اقتصاديًا، ويمكنها أيضًا الحصول على مساعدات عسكرية، لكن أمله خاب في الناحيتين، فقد مر عام بين فض الاشتباك الأول وفض الاشتباك الثاني دون أن يحدث شيء، كما تأخرت المساعدات الاقتصادية لمصر.

وكان السادات في موقف صعب ولم يشعر بأي ارتياح إلى أن زار الولايات المتحدة في عام ٧٥، وكان مؤمنًا بأن مصر هي الدولة القائدة للمنطقة وأنها هي التي تستطيع إقرار السلام فيها مع كل الدول العربية، وكان السادات مصريًا صميمًا يحب بلده بعمق، ولقد تعود أن يتكلم عن مصر الخالدة وعن حضارتها منذ قدم التاريخ".

لو أننا عدنا إلى أول جملة افتتح بها السفير ريتشارد باركر جلسات المؤتمر وهي قوله: إننا نتمنى أن نتعلم شيئًا من هذا المؤتمر ونحن ننظر إلى المستقبل، نبحث عن مبادئ ومفاهيم وما زلنا نعيش تحت ظلال هذه الأيام من ٧٣، ولا شك أن حرب ٧٣ غيرت أشياء كثيرة.

ثم الإضافة التي قالها جوزيف سيسكو: إن هذا المؤتمر مهم جدًا لأننا ننظر من خلاله إلى الوراء لنرى أشياء لم نكن نعرفها في ذلك الوقت، وإنني اليوم وأنا أتطلع إلى الماضي لأتعلم ما لم أكن أعلم فإن هذا قد تحقق في هذا المؤتمر.

وعلى حد التعبير الذي استخدمه بيتر راندوم الذي كان مساعدًا خاصًا لهنري كيسنجر وقت شغله منصب وزير الخارجية قال: إنني وأنا أراجع وثائق عام ١٩٧٣ أجد أمامي قول كيسنجر: إننا لن نقبل أو نتسامح في هزيمة إسرائيل، كما أننا لن نستطيع ترك سياستنا رهينة لإسرائيل، وبعد الحرب قال كيسنجر: إن ما

لدينا الآن هو أنه لا يوجد منتصر ولا يوجد مهزوم وبذلك نستطيع إيجاد تسوية جوهرية، لكن راندوم أضاف: أن كيسنجر لم يقل تسوية شاملة ولا أعلم ما كان يدور بعقله، هل كان يعني بالحل الجوهري الحل الشامل؟

صراع حدود أم صراع وجود!

ومن العبارات التي صدرت عن الجانب الإسرائيلي في المؤتمر التي تجيب عن كلمة: ما الذي تعلمناه من هذا المؤتمر؟ هي ما قاله سمحا دينتز: "إن هذا المؤتمر أعطاني نظرة أقوى من أي نظرة خرجت بها من أي مؤتمر آخر، إن النزاع مع الفلسطينيين ليس نزاعًا على حدود أو ماء أو أرض كأي نزاع موجود مع أي دول أخرى، لكنه نزاع على وجودهم، وهذا هو الفرق في المشكلة بين إسرائيل وأي دولة عربية، والمشكلة بين إسرائيل والفلسطينيين؛ لأن التعايش بيننا يعني وجودنا معًا، والمشكلة الفلسطينية هي مشكلة حقيقية خاصة بالوجود والتعايش".

وإذا كان جميع المتحدثين تقريبًا قد تعرضوا للدروس المستخلصة من حرب أكتوبر، وهو ما جاء في سياق كلماتهم في تناول مختلف جوانب هذه الحرب وأسبابها ونتائجها، فإني هنا أتوقف أمام أربعة من المتحدثين جاءت على لسان كل منهم عبارات لا تتعرض لما فات، لكنها تنظر إلى المستقبل، أولهم جوزيف سيسكو الذى قال في الجلسة الأخيرة التي كانت محاولة لإجمال نتائج المؤتمر: إنني أود أن يكون هناك تركيز أكبر على إقامة الثقة بين الشعوب والدول التي تجرى بينها المفاوضات، وما زلت أنظر باهتمام لمبدأ الثقة الذي قام بين إسحاق رابين وياسر عرفات حتى إن عرفات إلى ذلك اليوم وعندما يأتي ذكر رابين يصفه (بشريكي في السلام) وإنني آمل لو استطعنا استعادة هذه الثقة التي فقدناها في السنتين الماضيتين.

السفير أشرف غربال قال: بعد حرب أكتوبر حل السلام بين مصر وإسرائيل ومن المهم ألا تكون القوة هي الملاذ الوحيد في حل النزاعات، وأملي ألا تدفع إسرائيل الفلسطينيين أو اللبنانيين إلى هذه النهاية.

هارولد سندروز قال: إن كيسنجر لم يكن قد وصل في عامي ٧١ و٧٢ إلى إستراتيجية للسلام في الشرق الأوسط، ولا تنسوا أن فلسفة عملية السلام التي بدأت بدبلوماسية المكوك كان تتلخص في أنه بمجرد أن يتم الاتفاق بين مصر وإسرائيل فسوف يكون ممكنًا أن يتحقق في الأسبوع التالي ما لم نستطع تحقيقه في الأسبوع السابق، لأن ما فعلناه هو أننا غيرنا المناخ الموجود، أي إن عملية السلام هي عملية ذات طريق مفتوح، وليس لها حد نهائي بمجرد الوصول إلى الاتفاق الأولى.

وجدت بعد انتهاء المؤتمر بيومين وأنا أرتب أوراقي أن أتصل بالبروفيسور شبلي تلحمي باعتبار أن كرسي أنور السادات بجامعة ماري لاند، الذي يتولى رئاسته كان شريكًا مع معهد الشرق الأوسط في تنظيم وعقد مؤتمر حرب أكتوبر، وسألته أن يلخص لي في رأيه أهم نقطتين خرجنا بهما من المؤتمر، فقال شبلي تلحمي: إن أهم نقطتين هما:

١ - المفاجأة التي أحدثها قيام الحرب، ولم تكن فقط بسبب عدم معرفة كافية من المخابرات بها، لكنها كانت في عدم النظر بالجدية الواجبة للجيشين المصري والسوري ولمستواهما الذي ظهر في الحرب.

٢ - ما اتضح في المؤتمر من أن الدعم العسكري الأمريكي لإسرائيل أثناء الحرب مهم جدًا، كما ذكر وزير الدفاع شليزنجر، وكان أساسيًا للحرب الإسرائيلية لأن الوضع الإسرائيلي كان خطيرًا في الأسبوع الأول للقتال.

٣ - وظهر من المناقشات التي شهدناها أنه كان هناك خلاف في الرأي حول ما قيل من تأخير المساعدات الأمريكية لإسرائيل، فالمسئولون في الخارجية قالوا: إن ذلك سببه وجود تردد في وزارة الدفاع، والبعض قال: إنه نتيجة سياسة وزارة الخارجية، لكن البعض الآخر أكد أن ذلك غير صحيح وأنه لم يكن هناك تأخير على الإطلاق.

وأختتم بكلمة تلحمي: هذه أول مرة يقال فيها هنا في الولايات المتحدة: إن المساعدات الأمريكية لإسرائيل أثناء الحرب كانت حاسمة، ومعناه أن الوضع العسكري لإسرائيل بدونها كان سيختلف تمامًا عما كان.

لم يكن هذا المؤتمر وحده، رغم أهميته وقيمته الفائقة، هو الحقيقة الوحيدة التي أكدت التغيير الأساسي الثاني في السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط، كنتيجة مباشرة لحرب أكتوبر ١٩٧٣، والاعتراف بأن هذه الحرب هزت الفكر العسكري الإسرائيلي أيضًا.

حرب ٧٣ زلزال هز إسرائيل سياسيًا وعسكريًا

فلقد أخذت تتوالى على الساحة الأمريكية شهادات أطراف أخرى تحمل النتيجة نفسها، وإن أسهبت في التعمق في تفصيلات، لم يكن مؤتمر واشنطن، معنيًا بالخوض فيها، منها كتاب لمؤلف يهودي ما زال يحتفظ بهويته الإنجليزية هو السير مارتن جيلبرت وهو من أبرز المؤرخين الإنجليز منذ كلف في عام ١٩٦٨ بمهمة كتابة السيرة الذاتية الرسمية للزعيم البريطاني سير ونستون تشرشل، والسير جيلبرت له أكثر من ٥٠ كتابًا، منها تاريخ الهولوكوست.

والكتاب بعنوان "إسرائيل" وأهميته أنه أشبه برؤية شاهد عيان يقص ما جرى داخل الغرفة المغلقة، وكيف أن قادة إسرائيل رأوا رأي العين شواهد تتحرك أمامهم قبل حرب ٧٣ بثلاثة أيام تنبئ بأن القوات المصرية والسورية على وشك الهجوم، لكنهم استبعدوها لأنهم لم يصدقوا، وحين وقعت الحرب لم تكن حدثًا مضى أثره وتلاشى، بل لقد زلزلت الكيان الإسرائيلي من الداخل سياسيًا وعسكريًا معًا، وخسرت فيها إسرائيل من القتلى أضعاف ما خسرته في كل حروبها السابقة، والأهم - بشهادة المؤلف المؤرخ - أن مصر نجحت واجتازت خط بارليف وحققت اختراقًا سيكولوجيًا في إسرائيل، أسفر عن معاهدة السلام.

فما الذي يسجله سير مارتن جيلبرت في مؤلفه؟

المؤلف يتعرض لتاريخ إسرائيل - فكرة ودولة، لم يتعرض فقط للدولة التي تأسست قبل خمسين عامًا - بل يذهب إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ليعطي بُعدًا فكريًا - عقائديًا - صهيونيًا لنشأة الدولة.

والكتاب الضخم الذي يصل عدد صفحاته إلى ٧٥٠ صفحة يضم الأيديولوجية والسياسة والديبلوماسية والحروب من خلال وثائق ومذكرات وأحاديث مع من صنعوا الأحداث أو شاركوا فيها أو عاصروها.

وغلاف الكتاب يحمل بجانب كلمة "إسرائيل" بحروف كبيرة صور ١٤ شخصية يهودية إسرائيلية، لتيودور هيرتزل وحاييم وايزمان وإيجال يادين ومناحم بيجين وإريل شارون وإسحاق رابين و... بنيامين نتانياهو، وكما يتضح من قراءة الكتاب أن هؤلاء هم أبرز من كتبوا سطور تاريخ إسرائيل قبل وبعد تأسيس الدولة منذ ٥٠ عاماً، جاء في الكتاب:

وفي حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان عنصر المفاجأة أهم صدمة في تاريخ إسرائيل الحديث، فإسرائيل وقياداتها لم تكن تظن أن مصر أو العرب عمومًا سيتحركون في هذا الاتجاه.

وخلال الأسبوع السابق لـ ٦ أكتوبر، قتل ضابط بوليس إسرائيلي في غزة بسبب إلقاء قنبلة على سيارته، ولم يحتل هذا الحادث الصدارة في الأنباء كما أن أحداثًا أخرى لم تنل الاهتمام الكافي في إسرائيل، كانت مجرد أحداث، وتلك الأحداث شملت قرار الأعضاء الـ ١٨ في الجامعة العربية ببدء حملة عالمية تسعى إلى منع الاتحاد السوفييتي من السماح لليهود السوفييت بالهجرة إلى إسرائيل. كما أن الجامعة العربية حثت دولاً أوروبية على عدم فتح معسكرات بديلة لليهود السوفييت، وقررت سوريا إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع الأردن، وقرر موبوتو رئيس زائير قطع العلاقات مع إسرائيل حتى تستعيد مصر والدول العربية الأخرى الأراضي التي فقدتها في حرب الأيام الستة.

وفي صباح يوم ٣ أكتوبر عقدت جولدا مائير رئيسة الوزراء اجتماعًا مع كبار مستشاريها وذلك بعد عودتها من فيينا، في هذا الاجتماع فهم موشى ديان أن التحركات العسكرية المصرية والسورية على ضفة القناة ومرتفعات الجولان كانت

"غير عادية"، ولكن لم يكن هناك إحساس عام أو توقع في هذا الاجتماع بأن الحرب مقبلة أو أنها في الأفق، حتى إن الحاضرين وافقوا على اقتراح ايجال بعدم دعوة كل أعضاء المجلس الوزاري قبل الموعد المحدد لاجتماعهم المقبل وهو ٧ أكتوبر - أي بعد ٤ أيام.

يوم ٤ أكتوبر تناول ديان الغداء مع الجنرال رافالنام زئيفي، الذي كان قد استقال حديثًا من منصبه كقائد للجبهة المركزية ودار بينهما الحديث التالي... كما سجله روبرت سلاتي كاتب السيرة الذاتية لديان:

ديـــان: ماذا يحدث؟

زئيفي: أظن أننا نتحرك تجاه الحرب... ولن أكون مشاركًا فيها.

ديـــان: عن أي شيء تتحدث؟ لن تكون هناك حرب لا في هذا الصيف ولا في هذا الخريف.

صباح اليوم نفسه وصلت التقارير التي تفيد أن المستشارين السوفييت وعائلاتهم تركوا سوريا، وكان الرئيس المصري السادات قد أخذ خطوة في هذا الاتجاه من قبل ترحيل السوفييت، وأصدر ديان أوامره للقوات الجوية بأن تكون على أهبة الاستعداد ووضع الجيش في حالة استعداد ولكن لم يتم استدعاء الاحتياطي.

على الجبهة الشمالية، أي في مرتفعات الجولان، طلب القائد الإسرائيلي الجنرال إسحاق حوفي تعزيزات من ديان بعد أن رصد تحركات سورية على الجبهة.

وافق ديان على طلب حوفي وتم تحريك أكثر من ١٠٠ دبابة من الاحتياطي في جنوب إسرائيل، وصل عدد الدبابات الإسرائيلية فوق هضبة الجولان صباح يوم ٧ أكتوبر إلى ١٦٠ دبابة (وكانت ٦٠ دبابة من قبل).

ويذكر أن الوزراء الإسرائيليين الذين لم يذهبوا إلى عائلاتهم بمناسبة عيد الغفران (يوم كيبور) اجتمعوا مع رئيسة الوزراء جولدا مائير في مكتبها، ولايلى

زيرى - مدير المخابرات العسكرية - نبه الحاضرين إلى احتمال فتح النار من جانب مصر وسوريا دون سابق إنذار، واختلف مع هذا الرأي جنرال إلعازر - قائد المنطقة الشمالية - وتجادل مع الحاضرين حول قيام الحرب وضرورة استدعاء الاحتياطي، وأعطى لجولدا مائير التفويض لهذا الأمر، وكانت تستعد لقضاء العطلة مع ابنتها في الجنوب، وقالت في الاجتماع بأنها تستطيع أن تعود بالهليكوبتر في أي وقت، فجاء رد ديان إذا بدأت الحرب قد لا يكون في إمكانك أن تعودي بالهليكوبتر.

ومساء نفس يوم الجمعة ٥ أكتوبر... ومع بدء الاحتفال بيوم كيبور - يوم الغفران والصيام والصلاة - فوجئ إسحاق رابين بأن ابنه عاد إلى موقعه في البحرية من جديد... ثم استدعاؤه وهو على وشك الدخول إلى منزله، الأمر نفسه تكرر مع زوج ابنته، وكما قال لست في حاجة أن تكون رئيسًا سابقًا للأركان لكي تتأكد أن الجيش الإسرائيلي على أهبة الاستعداد، ولكن مع هذا كنت لا أتوقع اشتعال حرب.

هكذا كان الأمر كما يذكر الكتاب مع قادة إسرائيل العسكريين، فرغم توافر معلومات المخابرات حول احتمال حدوث شيء خطير إلا أن أغلب الخبراء، اتفقوا على أن الحرب أمر مستبعد.

في الساعة الرابعة صباح يوم السبت ٦ أكتوبر وصلت معلومات إلى الجنرال زيرا مدير المخابرات العسكرية، أن الحرب ستبدأ في نهاية اليوم نفسه بالقرب من ساعة الغروب، فاتصل الجنرال زيرا بموشى ديان وتم التأكد من المعلومات وفي رأي البعض كانت أفضل خطوة هي بدء الهجوم ضد سوريا، ديان رفض هذه الفكرة على أساس أن الولايات المتحدة حذرت إسرائيل من بدء الهجوم، ثم طلب من ديان تحرك القوات الإسرائيلية، وأن تكون على كامل الاستعداد بكل أفرادها، رفض ديان مرة أخرى هذه الفكرة أيضًا على أساس أن مثل هذه التحركات قد تكون تحرشاً عسكريًا، فإسرائيل - حسب رأي ديان - لا تريد أن تبدو في صورة المحرض على عمل عسكري، ولا تريد أن تظهر في صورة المعتدي بل في صورة المعتدى عليه.

وبدأ الخلاف يشتد حول حجم التحرك الإسرائيلي فديان كان لا يريد أكثر من ٥٠ ألفًا، في حين كان مطلب إلعازر ١٥٠ ألفاً، وأخيرًا بعد مناقشات في مكتب رئيسة الوزراء تم إيجاد حل وسط وهو ١٠٠ ألف، وجاء هذا القرار في العاشرة صباح يوم السبت ٦ أكتوبر.

الهجوم المصري - كما وصفه الكتاب - كان سريعًا وناجحًا، ويقول: لقد حدث ما لم يكن في الحسبان تمامًا قبل ستة أشهر، عندما كان موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي في جولة لبعض المواقع الإسرائيلية على خط قناة السويس في صحبة مجموعة من زعماء اليهود في المهجر، سأله أحدهم هل في إمكان المصريين أن يشنوا هجومًا مباغتًا عبر القناة؟ وجاء رد ديان: في اللحظة التي سنرى فيها ومضة الحرب في عيونهم، سنقوم بنسفهم.

في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم السادس من أكتوبر شنت القوات المصرية والسورية معًا هجومًا على إسرائيل حسب خطة مشتركة ظلت سرية وبنجاح ملموس في إشارة إلى عنصر المباغتة الذي كان له دور في تحديد مسار الحرب، وفي إحداث زلزال عسكري وسياسي داخل الكيان الإسرائيلي.

إشارات الإنذار كما جاءت من الجانب العربي، والطريقة التي تم بها تفسير وفهم أو سوء فهم مضمون الإشارة من جانب إسرائيل كانت في حاجة إلى دراسة لتقصي الحقائق وكشفها، لذلك تم تكوين لجنة خاصة برئاسة دكتور سيمون إجرانات رئيس المحكمة العليا وتوصلت اللجنة إلى أن قادة الجيش الإسرائيلي تكونت لديهم عقيدة بأن مصر لن تشن هجومًا على إسرائيل بدون قوة جوية كافية لضرب العمق الإسرائيلي وإحداث خلخلة في القوات الجوية الإسرائيلية، وهو شيء كان من غير الممكن تحقيقه من جانب مصر في ٦ أكتوبر، كما أن سوريا حسب هذه العقيدة الإسرائيلية لن تهاجم إسرائيل بدون مصر، وتقرر لجنة إجرانات أن إشارات الإنذار ومعلومات المخابرات وصلت قبل الهجوم بـ ٤٨ ساعة إلا أن العقيدة التي سادت جعلتهم يقومون بتقويم خاطئ للمعلومات.

ووفق تقرير لجنة إجرانات؛ الذي كشف جزء منه خلال سنة من إعداده، رفع بنجامين سيمان توف أحد العاملين في المخابرات بالجبهة الجنوبية تقريرًا في اليوم الأول من أكتوبر إلى الكولونيل دافيد جيداليه مسئول المخابرات بالجبهة يوضح فيه التحركات المصرية على الجبهة الغربية لقناة السويس، وأن هذه التحركات وانتشار القوات - حسب التقرير المرفوع - كانت إشارة واضحة إلى احتمال استعداد الحرب، بعد يومين رفع الشخص نفسه - سيمان توف - تقريرًا أوضح فيه أن التدريبات العسكرية التي كانت تجرى في ذلك الوقت على الجبهة المصرية قد تكون تمويهًا لاستعدادات تجرى لشن الحرب.

ولكن الكولونيل جيداليه الذي تم رفع التقرير إليه لم يأخذ بمضمون ما قاله توف، ولم يتم ضمه إلى التقرير الذي أعدته قيادة الجبهة الجنوبية لرفعه إلى القيادة المركزية، وبالتالي لم يعرف الجنرال زيرا - مدير المخابرات العسكرية - بمضمون هذين التقريرين عن التحركات المصرية واحتمال الحرب إلا بعد خمسة أشهر من انتهاء الحرب خلال جلسات الاستماع للجنة إجرانات، وكان توف مستبعدًا من وظيفته فاستدعاه الجنرال زيرا واستمع إليه ثم تمت ترقيته إلى رتبة كابتن.

تقرير الموقف العسكري ودرجة استعداد القُوات المصرية على الجبهة كانت موضع نقاش وجدال متواصل طوال الأيام السابقة لحرب أكتوبر، ويوم ٦ أكتوبر الساعة ٨,٣٠ صباحًا تلقى رابين مكالمة تليفونية تطلب منه الحضور مع قادة أركان سابقين للاجتماع مع وزير الدفاع. في الثالثة من مساء نفس اليوم لوحظ وجود حركة في الشوارع وفي بعض المعابد بسبب الاستدعاء، كان شيئًا غير طبيعي وغير مألوف في يوم كيبور.

وفي الثانية ظهرًا انطلقت صفارات الإنذار في جميع أنحاء البلاد، وهرع الناس إلى أجهزة الراديو لمعرفة ماذا حدث، رغم معرفتهم أن الإذاعة لا تعمل يوم عيد الغفران. بعد نحو نصف ساعة قالت الإذاعة: إن صفارات الإنذار كانت صحيحة وإذا انطلقت مرة أخرى على الناس أن يذهبوا إلى المخابئ لكن لم يتم الكشف عما حدث.

ويقول الكتاب: إن أهم ما حدث من "صدمة" للمجتمع الإسرائيلي بعد عنصر المفاجأة، هو عدد القتلى من الإسرائيليين على جبهات القتال، فيذكر أن عدد القتلى على الجبهتين المصرية والسورية بلغ ٢٥٢٢ إسرائيليًا وهذا العدد يساوي عدد القتلى في حرب الأيام الستة ٥ يونيو ١٩٦٧ - ثلاث مرات، ودار خلاف عنيف حول العدد الصحيح، وكيف أن الآباء والأبناء معًا كانوا مشاركين في الحرب ولأول مرة في تاريخ إسرائيل.

وحسب ما يتضمنه الكتاب فإن عواقب أو نتائج حرب أكتوبر كانت ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى إسرائيل في السنوات التي تلت.

أولاً: لقد تأكد اعتمادها على الولايات المتحدة، وهذا الاعتماد انعكس على الجبهات الدبلوماسية والعسكرية خلال الحرب وبعدها، بما قدمته الولايات المتحدة من مساعدات اقتصادية وعسكرية لإسرائيل، وحجم هذه المساعدات زاد مع الحرب خصوصًا أن الحرب تكلفت ما يوازي حجم الناتج القومي لإسرائيل في سنة كاملة... ووصلت ديونها الخارجية إلى أرقام لا يمكن معها إلا الاعتماد على أمريكا.

النتيجة الثانية أن دول العالم الثالث قطعت علاقاتها الدوبلوماسية مع إسرائيل وبذلك ازدادت عزلتها العالمية، وكانت دول الكتلة الشيوعية قد قطعت علاقاتها مع إسرائيل بعد حرب ٦٧.

أما النتيجة الثالثة فكانت الحرب وما حدث فيها، ففي رأي المؤلف أن نجاح مصر في البداية في عبور قناة السويس واجتياز خط بارليف أوجد اختراقًا سيكولوجيًا، أدى إلى اتفاق سياسي مصري، إسرائيلي واستعادة مصر لكرامتها.

ويضيف: بالنسبة إلى مصر لم تكن حرب أكتوبر حربًا للهجوم بل لتأكيد الذات "بالإضافة إلى مصر فإن الدول المنتجة للبترول اكتسبت قوة جديدة، وذلك بفرض المقاطعة البترولية على الدول التي وقفت مع إسرائيل... وارتفعت أسعار البترول ودفعت اقتصادات الغرب إلى المجهول، وأدى ذلك إلى ظهور "دوبلوماسية" البترو دولار ومن خلالها بدأت بعض الدول العربية - كما يروي الكاتب - في ممارسة الضغط على إسرائيل.

أما داخليًا - كما يقول المؤلف - فإن آثار حرب أكتوبر على إسرائيل كانت عميقة وإن الحرب هزت أركان ثقة المجتمع الإسرائيلي في قياداته، وهذه الآثار استمرت خلال الـ ٢٥ سنة التالية للحرب.

تلك شهادة من لا يستطيع أحد وصفه بأنه غير منتم للتوجهات الإسرائيلية، ونضيف إليها الوثائق الأمريكية الرسمية أن البنتاجون ووكالات المخابرات الأمريكية مدنية وعسكرية كانت سندًا رئيسيًا لإسرائيل، وأن جسرًا جويًا امتد طوال فترة ٢٤ ساعة في اليوم، يحمل الأسلحة والذخيرة التي تعزز مركز إسرائيل وهي تخوض حرب ٧٣، أي إنهم وجدوا من يحارب لهم حربهم حتى ولو ظلوا يملئون الدنيا صياحًا بعكس ذلك.

أفيقوا من وهم القوة اليهودية الخارقة

وعندما تخرج علينا جهة يهودية، أمريكية، لا يعتبر ارتباطها أو تعاطفها مع إسرائيل موضع شك، بتقويم لهذه الحرب، بعد ٢٥ عامًا من وقوعها، فإنها بالضرورة تقدم تقويمًا يخلو تمامًا من أي مبالغة، وهذا هو ما عرضته الصحيفة اليهودية الأمريكية ذات الوزن (Washington Jewish Week) في دراسة طويلة وتحليلية عن حرب أكتوبر ٧٣، وأيضًا في مقالها الافتتاحي في العدد نفسه.

والدراسة والمقال يقدمان الحقائق المجردة لما جرى عام ٧٣، والآثار التي ترتبت على سير المعارك على الدولة الإسرائيلية، ثم - وهذا هو الأهم - النتائج بعيدة المدى والمستمرة، حتى الآن بالنسبة إلى إسرائيل وهي كما طرحتها كانت على النحو التالي:

١ - في المقال الافتتاحي جاءت هذه العبارات: إن حرب ٧٣ قد جعلتنا نفيق من حلم القوة اليهودية، والقدرة العسكرية التي لا تقهر، وأرغمتنا على الاعتراف بأن المعجزة التي دفعت بإسرائيل إلى مجتمع الدول هي معجزة هشة.

٢ - إن الحرب من وجهة نظر إسرائيل التي كان من الممكن أن تخسرها قد أصبحت حربًا لا انتصار فيها.

وضمن الدراسة التي قدمتها (Washington Jewish Week) كانت هذه العبارات لأحد شهود الحرب مايكل ميلينسن: "إن ثقة إسرائيل بنفسها التي وجدت في أعقاب حرب ٦٧، قد تلاشت ليحل محلها اكتئاب بسبب الخسائر الكبيرة في الأرواح ووصولنا إلى حافة الهزيمة".

٣ - في تحديد مادي للخسارة تقول الدراسة اليهودية: "إن إسرائيل دفعت ثمنًا مخيفًا في أكتوبر ٧٣ فقد خسرت أكثر من ٢٥٠٠ قتيل من جنودها، وأصيب الألوف بجراح، وأضعفت الحرب إسرائيل سياسيًا، وجعلتها دولة معتمدة بدرجة كبيرة على حليف أمريكي، وبدون عملية تدفق السلاح من الولايات المتحدة على إسرائيل خلال المعارك، فإن النتيجة العسكرية لها كان يمكن أن تكون مختلفة، وأدت حرب أكتوبر إلى اضطراب كبير في السياسات الإسرائيلية، فقد استقالت جولدا مائير من رئاسة الوزراء وشكلت لجنة للتحقيق في الحرب وأدت إلى إنهاء الخدمة العسكرية لعدد من قيادات المؤسسة العسكرية، بمن فيهم رئيس الأركان ديفيد إليعازر، بالإضافة إلى ذلك استمرت صدمة ما بعد الحرب تهز إسرائيل لأربع سنوات لاحقة، حتى بلغت ذروتها بتحول رئيس في السياسات الإسرائيلية، شهد خروج حزب العمل من الحكم، الذي ظل هو الحزب الحاكم منذ أن تأسست الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ وفوز مناحم بيجين وحزب الليكود في الانتخابات، وإن كان معظم الإسرائيليين يتفقون على أن الحرب كانت لها على الأقل نتيجة سعيدة واحدة هي نهاية عجرفة العسكرية الإسرائيلية التي سيطرت على البلاد، وعلى الجيش خلال السنوات الست ما بين حرب الأيام الستة وبين حرب يوم كيبور.

٤ - استعادة العالم العربي ثقته بنفسه، ونستطيع أن نقول الآن: إن حرب يوم كيبور قد وضعت الرئيس أنور السادات في موقف يسمح له بأن يسافر إلى القدس بعد ذلك بأربع سنوات، وأن تبرهن المفاوضات لإنهاء الحرب للعالم كله على أن إسرائيل والدول العربية تستطيع أن تجلس معًا للوصول إلى اتفاقات، وأن عملية السلام الإقليمي أصبحت إمكانية حقيقية.

٥ - على الجانب المعنوي - وحسب ما تقوله الدراسة اليهودية - فإن الإسرائيليين شعروا بالصدمة بمجرد أن بدأت صورة الموقف تتضح أمامهم، فقبل هذا اليوم بست سنوات ألحقت إسرائيل بالجيوش العربية أسوأ هزيمة في تاريخ حروبها معهم، وذلك في عام ١٩٦٧.

وفي هذا اليوم (أكتوبر ٧٣) تساءل الإسرائيليون: ما الذي تغير في هذه الفترة القصيرة؟

وكانت الإجابة مزيجًا من التقدم التكنولوجي على الجانب العربي، بسبب استعادة الثقة التي كانت تمثل آخر خط حدود للعرب، يقف على الجانب الآخر منه الشعور بالغطرسة لدى إسرائيل.

إن اختيارنا النظر إلى حقائق ما جرى في أكتوبر ١٩٧٣، من زاوية دراسة متعمقة لجهة يهودية ليس لديها أي دافع للمبالغة أو التحريف، كانت له أسبابه، التي تجعلنا نقيس الأمور من زاوية نظر الذين قاموا بهذا الجهد بهدف استخلاص العبر، وطرح الحقائق كما هي، وعدم السقوط في فخ الوهم المصنوع.

ولو أننا بعد هذا العرض، أعدنا النظر بسرعة إلى خلاصة ما نحن بصدده، فإن هناك عددًا من العبارات أو الحقائق، تطل برأسها بقوة من قلب هذه الدراسة هي الاعتراف بأن المعجزة الإسرائيلية هشة، وأن عقيدة تفوق القوة الجوية انتهت بكارثة، وأن أسطورة العسكرية الإسرائيلية تلاشت، بل إن إسرائيل كانت على حافة الهزيمة لولا تدخل أمريكا، ثم إنها - أي إسرائيل - أصبحت دولة معتمدة على أمريكا أولاً، ثم يبقى ما نحن فيه اليوم من أن عملية السلام بدأت نتيجة للوضع العسكري الذى تحقق لمصر في ٧٣، ثم جرت المفاوضات من أجل سلام أصبح ممكنًا.

وحتى إذا طوينا هذه الصفحة فإن العالم نفسه قد تغير بعد أن انتهت الحرب الباردة، وتلاشى الصراع الأمريكي، السوفييتي، الذى كانت إسرائيل أداة من أدواته، كجزء من عمليات منع توسع النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط، وهو ما يفرض حقائق جديدة على صانع قرار السياسة الخارجية الإسرائيلية، تجعله

وقتها يستوعبها ويعيد ترتيب أولوياته بناء عليها، وهو ما أدركه بالفعل الفهم السياسي لحزب العمل على يد قيادته، رابين/ بيريز، سواء بقولهم: إن السلام أصبح أهم من الأرض، وقبول الدول الفلسطينية، والاعتراف بأن مستقبل العلاقة مع الولايات المتحدة قابل للتغير بدوره، وفق ما يجري من تحولات في العالم، وبالتالي في مستقبل إسرائيل في أن تكون جزءًا من هذه المنطقة، وفي علاقات طبيعية معها.

في السياق نفسه، جاءت شهادة الرئيس الإسرائيلي الأسبق عيزرا وايزمان الذي جاهر على الملأ وفي حضور ٨٠٠ من الشخصيات التي دعيت في أكتوبر ١٩٩٧ من جامعة ماري لاند لحضور الاحتفال بافتتاح البرنامج الدراسي الجديد "كرسي أنور السادات للتنمية والسكان والسلام"، الذي كنت حاضرًا جلساته.

ووايزمان الذي كان أحد جنرالات إسرائيل الكبار، قد شغل منصب وزير الدفاع في الفترة التي تمت فيها اتفاقات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل.

في هذا المؤتمر بجامعة ماري لاند قال وايزمان: إن الرئيس السادات لم يكن ينوي في حرب ٧٣ إنزال هزيمة بإسرائيل، لكنه بالتأكيد كان ينوي إنزال ضربة موجعة بنا، وهذا هو ما فعله حين عبر القناة، واتخذ له مواضع أقدام على الضفة الشرقية في سيناء.

وقال وايزمان: كان السادات يتحدث بفخر شديد عن أنه دخل حرب أكتوبر تحت قيادة مصرية.

وقال: بنهاية حرب يوم كيبور (حرب أكتوبر)، خصوصًا في عام ١٩٧٥ عقب الاتفاق الثاني لفض الاشتباك، بدأ عصر جديد في الشرق الأوسط.

وعن الحرب أيضًا ألقى وايزمان كلمة أمام نادي الصحافة القومي في واشنطن قال فيها: إنهم أحدثوا صدمة لمصر في حرب ٦٧، وإن مصر ردت لهم الصدمة في ٧٣.

حتى وهو يتحدث عن الحرب، وكان أحد جنرالات الجانب الآخر في قتال بين أعداء، لم يثر مثلما يفعل الآخرون حتى هنا في دروب العلم في الجامعات والمدارس الأمريكية ضبابًا يحيل الصورة إلى غمامة يرسمون عليها انتصارًا إسرائيليًا في حرب ٧٣، فالرجل لم يكذب ولم يزيف ولم يناور، لأنه اعتبر أن ما فات قد فات، وأن قضيته اليوم - كما قال - هي السلام.

الفصل الخامس

نظـرة من وراء الكواليـس

آراء عمرو موسى السياسية

ليست على هوى مبارك

اعتاد الرئيس السابق مبارك أن يزور واشنطن كل سنة، وكانت السفارة تجهز له لقاءات مع الصحافة، وبعض القنوات التليفزيونية، التي تجري معه حوارات.

وحدثت واقعة لافتة للانتباه، رواها لي عدد من شهودها من الدبلوماسيين في سفارة مصر تتعلق بزيارة السيد عمرو موسى وزير الخارجية - وقتئذ - للولايات المتحدة، التي بدأها قبل وصول الرئيس بعشرة أيام، لجولة في بعض الولايات البعيدة عن العاصمة، ومنها زيارة لمدينة ريترويت التي يمثل العرب حوالي ٤٠٪ من سكانها، بقصد الالتقاء مع الجاليات العربية وتبادل الرأي معها، فيما يخص دعم القضايا العربية، وقد صاحبته في هذه الجولة خارج العاصمة. وبعد انتهاء جولته، ذهب مع أعضاء السفارة لاستقبال الرئيس السابق، عند وصوله إلى مطار نيويورك قادمًا من القاهرة. قال لي عدد منهم: إنهم فوجئوا بالرئيس السابق وهو ما زال على سلم الطائرة، يبدى لعمرو موسى عدم ارتياحه قائلاً: أنت أكثرت من الظهور في شبكات التليفزيون الأمريكية، فما الذي تركته لي لأقوله؟!

أثارت طريقة كلام مبارك دهشة الحاضرين، لكنهم فهموها على أنها تكشف عن أن العلاقة بين الرجلين وقتها لم تكن على ما يرام.

والحقيقة أن عمرو موسى كانت له مواقفه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، التي لم تكن على هوى مبارك، ففي المؤتمر الصحفي المشترك الذي عقد عام ١٩٩٨ في واشنطن بين عمرو موسى ومادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية، كان موسى قاطعًا في كلامه عن استقلالية السياسة المصرية، وأن الاختلاف مع ما تراه الولايات المتحدة أحيانًا معبرًا عن مصالحها، هو حق طبيعي لمصر، وأن على الولايات المتحدة أن تعترف بذلك.

وحدث أن جاء نتنياهو إلى نيويورك لحضور افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة، وهي المناسبة التي يحرص كثير من رؤساء الدول وجميع وزراء الخارجية، على حضورها.

واتفق على عقد اجتماع بين عمرو موسى، ونتنياهو، في فندق U.N.Blaza الذي نزل به رئيس وزراء إسرائيل، والواقع في مواجهة مبنى الأمم المتحدة مباشرة، على ناصية شارع ضيق يوجد في بدايته من الناحية الأخرى مقر البعثة المصرية في الأمم المتحدة.

كنت أجلس في هول الفندق الذي يطل من خلال حائط زجاجي على الشارع الضيق. وحان موعد الاجتماع، ولاحظت أن السيد عمرو موسى، ومعه السفير الدكتور نبيل العربي الذي كان مندوب مصر في الأمم المتحدة، يقطعان الشارع الصغير، من أوله إلى آخره جيئةً وذهابًا، بينما قد مضى وقت على موعد بدء الاجتماع، وكنا نعرف أن نتنياهو موجود بالطابق الثامن بالجناح الذي يقيم به في الفندق.

فخرجت إلى الشارع أستطلع الأمر، وأسأل وزير خارجيتنا عن سبب عدم صعوده للاجتماع، قال لي: قبل موعد الاجتماع، اتصل بي أحد المرافقين لنتنياهو وقال إن طائرته وصلت من إسرائيل متأخرة عن موعدها، وإنه الآن في الحمام يأخذ دشًا، وندعوك إلى الصعود، والتكرم بانتظار خروجه ليبدأ الاجتماع بينكما في الحال، فرددت عليه، بأنني لن أصعد قبل أن يكون رئيس وزرائكم جاهزًا لمقابلتي، وعندما يجهز عليكم إعلامي بذلك، واخترت أنا والسفير نبيل العربي أن نتمشى في الشارع كما ترى، وكان هذا نموذجًا لطريقة تعبير عمرو موسى عن مواقفه، التي لم تكن تلقى ارتياحًا من الرئيس السابق.

إسرائيل زرعت أجهزة تجسس على الرئيس في البيت الأبيض

اعتدنا أثناء متابعتنا للأحداث في واشنطن، أن يظهر لنا جزء منها، بينما الجزء الغاطس تحت السطح يظل مثيرًا لاهتمامنا، والنماذج متعددة، منها ما أعلنه متحدث رسمي بالبيت الأبيض في مارس ١٩٩٨ عن العثور على أجهزة تنصت دقيقة ومتطورة داخل البيت الأبيض، وأنها من وضع أشخاص تابعين لدولة أجنبية، وأمام سيل التساؤلات من المراسلين، أمريكيين وأجانب عن اسم هذه الدولة، فقد تكتم البيت الأبيض اسمها، إلى أن استطعنا أن نعرف من مسئول أمريكي رفيع المستوى وبشكل شخصي، أن الدولة المقصودة هي إسرائيل، التي أرادت التجسس على كلينتون الذي لم تكن ترتاح إليه.

وبعدها تفجرت قنبلة حكاية مونيكا لوينسكي التي أحيطت في البداية بأجواء من الغموض، ثم صارت حديث العالم كله وليس أمريكا وحدها، إلى أن بدأ يخرج من خلفيات مستترة وراء الكواليس، ما بدد هذا الغموض.

مونيكا مبعوثة الموساد للإيقاع بكلينتون

كنا كمراسلين عرب على وجه الخصوص، قد علمنا عام ١٩٩٨ من مصادرنا بوزارة الخارجية الأمريكية، أن الرئيس كلينتون يعد خطة لسلام نهائي بين إسرائيل والفلسطينيين، في مناسبة وجود نتنياهو وياسر عرفات في واشنطن، لمباحثات ثلاثية، وبدأنا نلاحظ شن حملة هجوم إسرائيلية على البيت الأبيض، من ضمنها تصريحات أدلى بها ديفيد بار إيلان مستشار نتنياهو الذي وصف خطة كلينتون بأنها محاولة من حكومة كلينتون لفرض تسوية سلام على إسرائيل.

وعلمنا أن نتنياهو كان قد أوفد بار ايلان إلى واشنطن، قبل بدء زيارته لمنع كلينتون من إعلان أي خطة ملزمة لإسرائيل، كما بعث بمندوبة في الأمم المتحدة دور جولد إلى واشنطن، لحشد حملة ضغط من عدد أعضاء الكونجرس ضد

رئيس أمريكا، وبدا أن هذه الضغوط لم تؤت ثمارها، وحل موعد الاجتماع الثلاثي في البيت الأبيض بين كلينتون، ونتنياهو، وياسر عرفات، والمصادر الرسمية تؤكد لنا أن الخطة المرتقبة سوف تعلن في هذا الاجتماع.

لكن حدث ما لم يكن في حسبانهم، دخل الصحفيون كالمعتاد إلى المكتب البيضوي ليتوجهوا بالأسئلة للرؤساء قبل بدء اجتماعهم وسأل أحد الصحفيين - وهو أمريكي - الرئيس كلينتون عن حقيقة علاقته بفتاة تدعى مونيكا لونيسكى؟ كانت هذه أول مرة نسمع فيها عن هذا الاسم، وبدا أن السؤال أحدث زلزالاً قويًا، ستتردد تداعياته فيما بعد.

المفاجأة الساحقة ظهرت على وجه كلينتون الذي نفى معرفته بفتاة بهذا الاسم، وظهر على نتنياهو تعبير مختلف يوحي بأنه لم يفاجأ، بينما بدا على عرفات أن هذا سؤال عادي، فهو لم يكن على دراية بخلفياته، وعقد الرؤساء الثلاثة اجتماعهم المغلق بعد خروج الصحفيين، وانتهى الاجتماع، ولم تعلن الخطة المنتظرة من كلينتون.

وابتداء من اليوم التالي، أخذت تداعيات فضيحة مونيكا وكلينتون تتوالى، وتنشر تفاصيلها في صحف، وفي قنوات تليفزيونية، تبعها الإعداد لعملية تحقيق سياسي وقانوني، قاده أقطاب الحزب الجمهوري، وتركزت اتهاماتهم على أن كلينتون كذب عندما نفى وجود هذه العلاقة وفي الحال تحركت حملة منظمة لمحاكمة كلينتون.

لكن عددًا من المجلات الأمريكية راحت تنشر معلومات تكشف عن أن هذه الفضيحة مدبرة أصلاً من الإسرائيليين، وبمشاركة قيادات قوية من الحزب الجمهوري، وأن مونيكا اعتادت أن تذهب سنويًا في العطلة الصيفية إلى إسرائيل، ضمن شباب يعدهم الموساد لأدوار مطلوبة، وأن أبوها نفسه ينتمي إلى الليكود، وأمام هذه الحقائق حال الرأي العام الأمريكي دون نجاح خطة المحاكمة، لشعورهم بأن الجمهوريين أرادوا استغلال هذه العلاقة، لأسباب سياسية وانتخابية، لكن الإسرائيليين كانوا قد نجحوا في شل فاعلية كلينتون في اتخاذ أي قرارات سياسية لحل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

علاقة أمريكا بمصر

ستظل جيدة لكن بشرط

كنت مهتمًا فور انتقالي إلى واشنطن بمقابلة خبير شئون مصر بوزارة الخارجية الأمريكية جورجى أفتانديليان، ليس بسبب منصبه، بل للغوص في عمق مسألة مر عليها سريعًا في كتابه الذي صدر بعنوان "سعي مصر لقيادة العالم العربي: وانعكاساته على سياسة الولايات المتحدة".

سبق أن قرأت الكتاب في عام ١٩٩٣، سنة صدوره عن مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي، وكنت وقتها في لندن مديرًا لمكتب الأهرام.

الكتاب تناول بشكل عام العلاقة المصرية الأمريكية، في إطار عدد من الموضوعات تناولت النظام الإقليمي العربي الجديد، ودور مصر في العالم العربي، والمؤثرات الداخلية على سياسة مصر الخارجية، وانعكاسات ذلك على السياسة الأمريكية، وبدا هذا التناول لموضوعات الكتاب، وكأنه معالجة تسجيلية، لكنني لاحظت أن النقطة الأهم في الكتاب لم تنل من المؤلف الوقفة التي تستحقها، فهو طرحها في عجالة، ثم مضى مبتعدًا عنها، وبدا ذلك تصرفًا مقصودًا، خصوصًا أنه صادر عن رجل ينتمي - وظيفيًا - إلى وزارة الخارجية الأمريكية، بحكم عمله محلاً بالوزارة لشئون مصر، والشرق الأوسط.

النقطة التي توقفت طويلاً أمامها في كتاب أفتانديليان، شرحها بحديثه عن تحسن العلاقة المصرية الأمريكية منذ السبعينيات، وأنه في ظل العلاقة الثنائية الوثيقة تستطيع القاهرة أن تتعامل مع واشنطن بشأن دفع أهداف السياسة الأمريكية في المنطقة، وأن هذا الافتراض يحتاج إعادة تقييمه على ضوء سعى مصر لدور قيادي في العالم العربي؛ حيث إن العلاقة المصرية الأمريكية كانت قد تطورت في وقت كانت فيه مصر خارج دائرة العلاقات الطبيعية مع الدول العربية، من بعد اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٩، وقطع علاقتها تقريبًا مع الاتحاد السوفيتي، ومن ثم فقدت مواقع الدعم التقليدية اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا.

لكن ثبت للمصريين - كما شرح أفتانديليان في كتابه - أن هذا الوضع ليس في صالحهم؛ لأنهم مقتنعون بأن مصر تتحمل دورًا تاريخيًا في قيادة العالم العربي، لكن قيامها بهذا الدور لا بد أن يفرض عليها إظهار أنها لا تساعد في دفع أهداف السياسة الأمريكية في المنطقة.

ويضيف أن الاحتمال قائم أمام وجود مجالات للاحتكاك في العلاقة المصرية الأمريكية، بأكثر مما كان قد حدث في الماضي، إذا عملت مصر على دعم دورها البارز في العالم العربي، وبالتالي فسوف تتجه العلاقة المصرية الأمريكية نحو مرحلة من الفتور، وإن بقيت في حاجة لعدم تحولها إلى البرودة، ما دام فهم كل من الجانبين أن كلاهما له مصالح وأهداف مختلفة في المنطقة.

بعد انتهائي من قراءة الكتاب، شعرت أنه وضعنا في موقف علينا فيه أن نستنتج ما الذي يعنيه، دون أن يقدم إجابة شافية، ولأن هذه النقطة بالتحديد هي التي يهمنا فهمها، والإحاطة بما يعنيه المؤلف ولم يذكره صراحة لهذا سعيت بعد وصولي إلى واشنطن بوقت قصير للقاء أفتانديليان. وعلمت أنه انتقل للعمل محللاً لشئون مصر، بالكونجرس (وفي مرحلة لاحقة عين الوظيفة بنفسها بوزارة الدفاع).

اتصلت به تليفونيًا، ودعاني للقاء في كافتيريا الكونجرس، ووجهت إليه سؤالاً محددًا هو: المعنى الذي فهمته من كتابك، أن العلاقة الأمريكية المصرية، ستبقى قوية، ما دامت مصر لا تخرج بدورها وتأثيرها إلى أبعد من حدودها كدولة، وإذا كان ذلك صحيحًا، فهل هذه سياسة للرئيس الحالي، أم أنه مبدأ ثابت في سياسة أمريكا الخارجية تجاه مصر، مهما تغير الرؤساء؟

قبل أن يجيب ابتسم وقال ليكن حديثي معك Off Reeord أي إن كلامه لا ينسب إليه، ولا يذكر عنه أنه قاله لي، شرح لي رؤية أمريكا لسياستها الخارجية تجاه مصر، بأنها مهتمة بالاستقرار الداخلي في مصر، باعتبارها مركز الاستقرار

الإقليمي في منطقة تحوي مصالح إستراتيجية بالغة الأهمية للولايات المتحدة، لكن بشرط أن يبقى الدور المصري محصوراً داخل حدود الدولة، ولا يتعداها إلى دور إقليمي يؤثر على الأوضاع الثابتة في المنطقة، من وجهة نظر السياسة الأمريكية.

ملاحظة: بالطبع حدث تغيير في الإستراتيجية الأمريكية في بداية الألفية الثالثة، برفض ثبات هذه الأوضاع على حالها، ويتبنى إستراتيجية جديدة لتغيير الأنظمة في مختلف الدول العربية.

واستطرد أفتانديليان قائلاً: لو حدث تغيير أساسي في دور مصر فإن العلاقة الأمريكية مع مصر، لن تبقى قوية مثلما كانت، وسيحدث تغيير في سياسة الولايات المتحدة، أما عن الجزء الثاني من السؤال، فإن هذه السياسة لا تتغير من رئيس إلى آخر، بل هي مبدأ ثابت في إستراتيجية السياسة الخارجية الأمريكية.

علقت على كلامه بأنني لا أرى أن هذا المبدأ يستند إلى قدرات خلاقة تعطى صانع قرار السياسة الخارجية إمكانيات فرض ما يراه على الطرف الآخر، ما دامت السياسة الخارجية للولايات المتحدة، تعمل وفق مبدأ حيوي هو توازن القوى، فإذا نجح الطرف الآخر في حشد قدراته لبناء دولة قوية، وأنجز تنمية اقتصادية مبهرة، واستطاع تعبئة رأي عام داعم له في الداخل، عندئذ تضطر الولايات المتحدة، لإعادة حساباتها، في التعامل مع هذه الدولة، وهو ما حدث في علاقاتها مع عدد من دول العالم، بتأثير التغيرات التي لحقت ميزان القوى بينها وبين هذه الدول، وأبرزها الصين والهند على سبيل المثال.

أمريكا تتغير من الداخل

كنا ونحن في أجواء سنوات تحول هائل في النظام الدولي، أخذ يلقى بتبعاته على الولايات المتحدة كقوة عظمى، أو كما كانت توصف به في التسعينيات بأنها القوة العظمى، الوحيدة، إلى أن راحت تتوالى الشكوك في احتمالات استمرارية أمريكا القوة الأولى، التي تقود العالم، وتؤثر فيه.

وتوالت هذه الشكوك منذ كتاب المؤرخ الأمريكي بول كنيدي "صعود وهبوط القوى العظمى" في منتصف الثمانينيات، وما تبعه من مؤلفات سارت في الاتجاه نفسه مثل كتاب البروفسور ديفيد كاليو "حماقة القوة: وهم أمريكا القوة الوحيدة"، ودراسة ساره سيوال التي كانت تشغل منصب مساعد وزير الدفاع في عهد كلينتون، التي شرحت كيف أن التغيير الجاري في النظام الدولي يعمل على تقويض أمن الولايات المتحدة، وطريقتها في الحياة، وأن التحدي الأكبر لها يتمثل في احتفاظها بقوتها، في وقت تحدث فيه تحولات في البيئة العالمية، وحتى كتاب روش ليامبرج المتخصص في دراسات الأمن القومي، والشئون العسكرية، الذي تساءل فيه: هل الولايات المتحدة دولة تحتضر؟

وعلى الرغم من قسوة السؤال، بالنسبة إلى بلد لا يزال يملك الكثير من إمكانيات التقدم، فإن مختلف هذه الكتابات كانت ترى تغييرات تجرى داخل الولايات المتحدة. تنتقص من النمط المألوف للحياة الأمريكية، يرافقها تراجع في دور بلادهم في العالم، وتقلص مصداقيتها لدى شعوب الدول الأخرى، وضعف قدراتها التقليدية على حل المشكلات والأزمات الدولية والإقليمية، يحتوي ذلك كله مسار من التناقضات والتردد، في إدارة السياسة الخارجية الأمريكية.

زيارة لآرثر ميللر
وتشخيصه للحالة الأمريكية

في بدايات تواجد هذا الإحساس الذي تقبله البعض ورفضه الكثيرون، نزل آرثر ميللر إلى الساحة يدلي بدلوه، لكن برؤية أدبية مستقبلية رائعة صاغها في مسرحية أسماها "علاقات مستر بيتر"، وكأنه في عام ١٩٩٨، يتنبأ من المنظور الأدبي، بما سيكون عليه حال أمريكا بعد نحو عشر سنوات.

في العام نفسه كانت صحيفة صنداى تايمز البريطانية قد أجرت استفتاء على مستوى العالم بين كبار كتاب المسرح في مختلف الدول لاختيار أبرز وأهم كتاب المسرح في العالم كمؤلف ومفكر، واختاروا جميعًا آرثر ميللر.

المسرحية جذبتني بقوة لمشاهدتها في قاعة مسرح سيجنتشر في نيويورك، وبعدها للقاء مع ميللر أجريت خلاله حوارًا مطولاً معه في شقته بمدينة نيويورك.

وقبل أن أعرض لموضوع المسرحية أود الإشارة إلى أن آرثر ميللر في كتاباته المسرحية اعتاد أن يتخطى حدود الواقع الأمريكي داخل بلاده، ويلقي نظرة إلى الأفق البعيدة تستوعب الأحداث المتداخلة في بعضها، بحكم أن بلاده هي الطرف الرئيس وراء الأحداث، ليس داخل حدودها فقط، بل على امتداد العالم بأكمله. وربما كان ثراء فكره في اللحظات التي كتب فيها هذه المسرحية، التي تجاوز فيها عمره الثمانين، إن تلك اللحظات متصلة اتصالاً وثيقًا بالماضي البعيد، وتتقافز فيها أمام عينيه علامات استفهام لا تنتهي؛ حيث ينظر فيرى أمريكا التي كانت في الماضي حاضرًا أبديًا، تبدو وكأن حاضرها على وشك أن يختفي، فكل العلاقات والأوضاع التي كانت موجودة في الماضي تتغير تمامًا، حتى أن علامة الاستفهام الكبرى أمامه هي أمام سؤال عما إذا كان الحلم الأمريكي الذي كان في الماضي يمثل المعنى للدولة ذاتها - أمريكا، سوف يبقى على ما هو عليه، بعد أن كانت بلاده لعقود طويلة هي مركز العالم والحلم، والهدف المحدد، والمعروف، ولعله استطاع أن يصيغ هذه الفكرة في مسرحيته القصيرة - ٩٠ دقيقة - علاقات مستر بيتر، من خلال الشخصيات والحوار الذي ينتقل من موضوع إلى آخر دون ربط، وبكلمات تعكس انعدام التوافق الداخلي لبطل المسرحية مع ما يحيط به في الخارج، حتى إن الأفكار التي يطرحها تظل بلا ربط، وإن أوحت لنا أن مستر بيتر لم يعد ينتمي إلى الحاضر أو إلى اللحظة التي يعيشها، وتتبلور الفكرة التي تدور حولها الأحداث في انقطاع الصلة أو العلاقة بين الناس وبعضهم البعض، وكذلك بين الناس والأشياء والأماكن المحيطة بهم؛ لنكتشف مع تطور الأحداث أنه يضعنا أمام أمريكا ذاتها، كبلد ووطن، التي كانت العلاقات المتينة فيها مبنية على نمط وعلى أسباب، لم تعد موجودة، مثلما كانت في الماضي، فلا هدف مرئي، ولا حلم، ولا فكرة ظاهرة في الأفق بعد أن تقطعت الصلات، وتقطعت معها الذكريات.

وجاءت لحظة العرض المسرحي

من أول دقيقة بدأت أمامنا أحداث مسرحية ميللر الجديدة "علاقات مستر بيتر" لاحظنا أنها شيء مختلف تمامًا عن كل مسرحياته السابقة، قبلها كان ذلك واضحًا وأنا في الطريق إلى مسرح سيجنتشر في نيويورك خارج دائرة برودواي، فهو مسرح تجريبي يسع ١٦٠ مقعدًا، ويخصص عروضه للأعمال التجريبية المتميزة.

هذه المسرحية يمكن وصفها بأنها دراما الحالة النفسية، أو هي نوع من الحلم، أو مسرحية تقع أحداثها في المساحة ما بين النوم واليقظة، فكلها تجري في عقل مستر بيتر، وهي مسرحية يتطور فيها المزاج النفسي وليس المواقف، بخلاف كل ما كتبه أرثر ميللر من قبل، ومنذ اللحظة التي يدخل فيها بطل المسرحية أو الشخصية الرئيسة فيه مسر بيتر، الذي يلعب هذا الدور (بيتر فولك) الذي عرفناه بطلاً لحلقات كولومبو الشهيرة، إلى المكان الذي تقع فيه الأحداث وهو شيء أشبه بالملهى الليلي أو الكافتيريا، وهو يرتدي حذاء من لونين أبيض، وبني.

وهو شيء يرمز إلى معنى سوف نعود إليه فيما بعد، نلاحظ أنه رجل يمشي داخل مساحة عقله، وهو يبحث في الصور التي تشكل عالمه وزمنه ويفتش فيها، حتى ديكور المكان الذي تقع فيه الأحداث متكسر وشبه متهدم، وتتكاثر فيه قِطع الطوب، على جانب أحد الجدران، وفوقها موائد وكراسي مكسرة نشعر في هذه اللحظة بأن المكان نفسه ليس فيه اتصال بين ما فيه وبينه وبين الناس.

وعندما يتحدث مستر بيتر مع بقية الشخصيات فإن الحوار ينتقل من موضوع إلى موضوع دون ربط، وكلماته تعكس عدم توافقه الداخلي مع ما في الخارج، وأحيانًا يستخدم تشبيهات واستعارات، لكنه يتجنب التفسير؛ لأن أكثر جمل حواراته عبارة عن تساؤلات يتكرر فيها على طول العرض سؤال على لسان مستر بيتر يقول: "ما هو الموضوع؟"

تبدأ أحداث المسرحية بظهور شخصية غامضة لها مظهر أصحاب المناصب المسئولة يدخل إلى المكان شبه المظلم، وهو الملهى الليلي الذي اختفت فيه المظاهر التي يفترض أنها توجد في ملهى ليلي، فهو صامت ساكن وخشبة المسرح من مستويين، المستوى على اليسار توجد فوقه المقاعد، والمستوى الآخر على اليمين عبارة عن مدخل الباب الرئيس للملهى الليلي ينتهي بسلم من ثلاث درجات إلى الداخل، ولا توجد ستارة.

الرجل الغامض يدعى كالفين، يتجه إلى الباب ليستقبل الرجل المتقدم في السن مستر بيتر (بيتر فولك) ويتقدمه إلى الطرابيزة الصغيرة الوحيدة السليمة وسط الملهى، ويجلس ويتحدثان، ونعرف أنه ينتظر وصول زوجته (شارلوت) التي اتفق معها على أن يتقابلان في هذا المكان، وفي حواره نلمس حالة من تدفق الأفكار التي يطرحها، ولكنها في الفترة الأولى تظل أفكارًا بلا رابط وإن كانت توحي لنا بأنه لم يعد ينتمي إلى الحاضر أو إلى اللحظة التي يعيشها وأنه ليس سعيدًا بها، لكن سعادته تنتمي إلى الماضي الذي مات، وأن أسباب سعادته لم تعد موجودة هذه الأيام، فهو مثلاً وهو يتحدث مع كالفين يبدي حيرته عن سبب سعادته في هذه اللحظة، وهو يسأل: لماذا أنا سعيد الآن؟!

ويمشي حائرًا فيتنبه إلى الصوت الذي يحدثه حذاؤه وهو يحتك بالأرض ويصرخ فجأة قائلاً: آه... آه... لقد اشتريت اليوم حذاءً جديدًا، ويرفع قدمه فوق المقعد ينظر إلى حذائه الجديد الذي أسعده، وهو ليس من موضة هذه الأيام. لكنه موضة زمنه الذي مضى، وفى بعض اللحظات ولغير سبب شعر أنه يريد أن يبكي، وأثناء حوارهما يبدأ ظهور بقية الشخصيات الأخرى، كاتي ماي (كريس كار) وهي امرأة تتحرك عن بُعد وينظر إليها نظرة توضح أنه يعرفها بالفعل، لكن ظهورها وحديثه إليها وعدم ردها عليه يبدأ في توضيح انقطاع الصلة بينه وبينها، فهي إما في عالم آخر إما أنها ماتت، وهي تخرج إليه من ذكرياته أو من المساحة التي تتحرك فيها الأفكار في عقلة، ما بين النوم واليقظة، وهو حين رآها أبتهج، لكنه بسرعة يحزن؛ لأنها ليست في متناول يده أو أنها ليست واقعًا

حيًا، ويظهر بعدها رجل فظ (دانيال أوريكس) يبحث عن هذه المرأة ويتوعدها بإساءة معاملتها، وهو يعرفه أيضًا، ثم شاب وشابة يحضران إلى المكان ويدخل معهما في مناقشة حول الجنين في بطنها، وهل الرجل الذي معها هو والده؟ فترد بأنها لا تعرف ولا الرجل يعرف، ولا أحد يعرف، وليس مهمًا أن يعرف أحد.

وفي خلفية المكان تجلس عن بعد امرأة سوداء لا تظهر ملامحها كاملة؛ لأنها تبدو كأنها جالسة في الظلام وكأنها تأتي من عمق ذاكرته، لكنها ليست واضحة له تمامًا، تشرب كثيرًا ولا تتكلم إلا قليلاً، وبعبارات تعلق بها فقط، وحين يرد عليها مستر بيتر، فلا رابط بين حواراتهما باستثناء أن الكلمات التي يقولها هو، التي تقولها هي تكشف الفكرة التي تدور حولها الأحداث، وهي انقطاع الصلة أو العلاقة بين الناس وبعضهم البعض، وكذلك بين الناس وبين الأشياء والأماكن المحيطة بهم، وآخر شخصية تدخل إلى خشبة المسرح هي زوجته شارلوت (آن جاكسون) عالية الصوت، متدفقة النشاط كأن جسدها ينتفض مع كل كلمة تقولها بعكس مستر بيتر زوجها الذي تقدم به السن ويبدو منهك الجسد أيضًا، بحيث إن الشخصية والحوارات والمكان والشخصيات الأخرى حوله، تجعلنا نكشف مع تطور الأحداث، أنه يحاول أن يعثر على طريقه في الحياة بينما هو في مواجهة مع الموت، حتى أن الناس الذين أحبهم يومًا مثل كاتي ماي قد ماتوا، وهو يكاد يضع يده على ما تبقى لهم من أثر في نفسه، ويقترب البُعد الخاص من البُعد العام للمسرحية، وهو يضعنا أمام أمريكا ذاتها كبلد ووطن له، التي قاتل يومًا من أجلها في الحرب، وهو شاب، التي كانت وظيفته فيها طيارًا مدنيًا في أحد خطوط طيرانها، وتبدو أمريكا التي كانت تعتبر حاضرًا قد اختفت، أو أنها على وشك الاختفاء، فهي التي كانت بالنسبة إليه مركز العالم والحلم والهدف المحدد والمعروف، والعلاقات المتينة التي بنيت على منطق، وعلى أسباب، كل ذلك لم يعد موجودًا مثلما كان في الماضي، فلا هدف ولا حلم ولا فكرة محددة ظاهرة في الأفق لما نريد، ولذلك تقطعت الاتصالات وتقطعت معها الذكريات أيضًا.

إن آرثر ميللر الذي كتب مسرحياته الكبيرة الشهيرة التي ما زال بعضها يعرض في برودواي هذه الأيام ومنها (مشهد من الجسر) قد اختار بعد أن بلغ ٨٢ عامًا أن يجرب شكلاً آخرَ من المسرح مختلفًا تمامًا عن كل مسرحياته السابقة محكمة البناء الدرامي، مثل "بعد السقوط، ووفاة بائع متجول، والثمن، وكل أبنائي" وغيرها، إن كل ذلك لا يقلل من قيمة "علاقات مستر بيتر" بالمقارنة بسابقاتها؛ لأن ما يرفعها إلى مستوى راقٍ يليق باسم آرثر ميللر هو لغتها الشاعرية الغنية بالكلمات المعبرة جدًا، ورسم الشخصية المحورية بطريقة وافرة الخيال.

وحين انتهت المسرحية، ومستر بيتر لم يجد إجابة عن سؤاله المزمن: "ما هو الموضوع؟" كنا نحن المتفرجين قد تلقينا الرسالة التي جعلتنا نشعر بأن آرثر ميللر بآخر أعماله التي استغرق عرضها ٩٠ دقيقة قد قال لنا الكثير جدًا.

ثم كان اللقاء لحوار مباشر

وكان هذا الحوار مع آرثر ميللر:

– مسرحيتك الأخيرة "علاقات مستر بيتر" تبدو مختلفة عن جميع مسرحياتك السابقة فهي تتجه للشكل التجريبي، فما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إليك؟

ميللر: في بداية عملي كمؤلف مسرحي حاولت كسر القواعد التقليدية وتستطيع أن تلاحظ مسرحيتي "وفاة بائع متجول" التي ينظر إليها الآن كعمل واقعي، كانت في البداية محاولة لكسر الطرق التقليدية لكتابة المسرحية في ذلك الوقت، فالمسرحية لها بُعدان فبطلها يعيش في الحاضر لكن أحداثها تقع في الماضي وهو يعيش الحاضر والماضي معًا في اللحظة نفسها، وفي عام ٨٢ عندما استخدمت لغة القرن السابع عشر في عمل معاصر فقد كانت هذه محاولة للتجريب أيضًا، لكني حاولت أن أكتب لغة اخترعتها حتى ولو كانت لغة "أنتيك".

وبالنسبة إلى "علاقات مستر بيتر" فإنني كسرت الحاجز بين الحاضر والماضي طالما أننا في حضور رجل في حالة عقلية، هو فيها أشبه بنصف نائم

ونصف مستيقظ، وفى هذه الحالة فهو يتحرك بحرية يضع فيها كل أنواع العلاقات التي لا نستطيع ونحن في حالة الوعي أن نفعلها، أي أن مستر بيتر يتحرك في أرض التجريب.

والتيمة الأساسية للمسرحية أنها تجسيد للحالة التي نعيشها نحن في الوقت الحاضر ومن حيث الشكل فهي لا تعرض في شكل تراجيدي، بل هي كوميديا نابعة من أن ما يقوله مستر بيتر في المسرحية هو أشياء تجريدية، وعلاقاته نفسها كلها تجريدية.

- ما زالت أذكر مستر بيتر وهو لا يكف طوال المسرحية عن السؤال "ما هو الموضوع؟" وأنا هنا أسألك أيضًا ما هو الموضوع؟

ميللر: مستر بيتر يحاول العثور على قيم تستمر مع استمراره في الحياة لكن هذه القيم كلها من الماضي ولا يستطيع العثور عليها في حياته الحاضرة. وهو حين يدخل إلى المكان الذي تجري فيه أحداث المسرحية يكتشف أن العالم الذي كان يعرفه منذ عام واحد فقط، قد اختلف عما كان عليه آخر مرة، وأن المباني التي كانت موجودة اختفت هي أيضًا، وظهرت مكانها مبانٍ غيرها، حتى الذكريات فهي مفككة، ولا تتماسك مع بعضها، وفى النهاية فهو لا يستطيع أن يجد نفسه وسط هذا التغيير لكن ما يبقى له ما يجده في النهاية من علاقات تربطه بالحياة هو حبه لابنته، وما عدا ذلك فليس هناك اتصال بالمكان والناس والأشياء.

- هل تغيرت طريقتك في كتابة المسرحية خلال السنوات القليلة الماضية؟

ميللر: - أعتقد أنها تغيرت لكن بصورة قد لا أكون أنا نفسي واعيًا لها. فكما نعرف أن من يكتب مسرحية ليس كمن يكتب مقالاً، فالذي يكتب مقالاً يضع خطوطًا وأفكارًا على الورق يسير عليها، ولكنى عندما أكتب مسرحية فالأمر يختلف؛ لأنني أستلهم من روحي ومن ذاتي، وقد أرجع إلى الشكل القديم الذي سبق أن كتبت به مسرحيات لي من قبل، لكن لو حدث هذا فهو يحدث دون أن أدري.

- ما الذي تعنيه الكتابة بالنسبة إليك؟

ميللر: سأحكي لك قصة، لي صديق في مثل عمري تقريبًا. كان يعمل طيارًا مدنيًا على أحد خطوط الطيران الأمريكية، ثم تقاعد منذ سنوات، وهو يزورني وأزوره، وفى أحد الأيام جاء لزيارتي في بيتي، ثم دخل إلى مكتبي ووجدني مشغولاً بالكتابة على الكمبيوتر لمسرحية جديدة، ثم نظر إليَّ مستفسرًا وقال: "لماذا تستمر تعمل بهذه الطريقة ودون توقف؟" ثم نظرت إليه وقلت: "تصور أنهم اتصلوا بك الآن وقالوا لك نريدك أن تأتي غدًا لتقود الطائرة لرحلة إلى باريس"، ووجدت صديقي يقفز من مكانه على الأرض ويهلل فرحًا، ما أجمل ذلك! فنظرت إليه وقلت: "أرأيت أنك تود أن تؤدي العمل الذي تحبه، لكنك لا تستطيع أن تؤديه الآن وفي عمرك هذا، أما أنا فإنني أعمل وأستطيع أن أستمر في أدائه".

- حدثنا عن مسرحيتك الجديدة التي تعرض في شهر سبتمبر الحالي في برودواى.

ميللر: المسرحية اسمها "الهبوط من جبل مورجان" وهو اسم خيالي. وتدور قصتها حول رجل أعمال غني جدًا له شركة تأمين كبرى في نيويورك، ومتزوج وله ابنة، وحدث أن أحب امرأة أصغر منه سنًا تسكن على بعد خمسمائة ميل من نيويورك، فأنشأ فرعًا آخرَ لشركته هناك عند جبل مورجان الذي تسكن حبيبته عند سفحه، وفى إحدى الليالي وهو يهبط الجبل بسيارته تهب عاصفة ثلجية وتتحطم السيارة وينقل إلى المستشفى، ولأن الناس هناك لا يعرفون سوى المرأة التي يرتبط بها، ويعرفون أنهما زوجان، فقد أبلغوها بالحادث، وجاءت إلى المستشفى، بعدها عرفت زوجته في نيويورك بالحادث فجاءت هي الأخرى، وتلتقي المرأتان لأول مرة وهذه هي البداية، وبعدها تجري بقية أحداث المسرحية.

- وماذا عن الميلاد الجديد؛ أي المسرحية التي تكتبها الآن؟

ميللر: حسب تعبيرك هي كالمولود فأنا لم انته منها بعد، ولا أعرف الشكل الذي سيخرج عليه المولود الجديد، لذلك أترك نفسي لشخصياتها وأحداثها إلى أن تكتمل الصورة والملامح.

.. إن أرثر ميللر الذي كتب المسرحية، والرواية، والسيناريو السينمائي، والمقال، كانت أعماله تستوعب الإطار الأشمل لعالمه، فهو يعيش ظروف بلده وعلاقاتها بالخارج وأحداث العالم على اتساعه، وظروفه وتغيراته، ولهذا خرجت أعماله إلى الآخرين الذين ترجموها إلى مختلف اللغات وعرضوها في بلادهم وتعايشوا معها.

ولأن العالم الذي كان يعرفه الذي عبر عنه بالكتابة قد تغير بدوره ولم تكتمل للآن الرؤية لما سيكون عليه هذا العالم، فربما يكون ذلك قد أضفى إلى فكره وحسه شحنة جديدة من التفاعل مع هذا الواقع الذي ما زال المستقبل فيه مولوداً لم ينزل بعد إلى الدنيا، فرأينا ميللر يستأنف، وهو مكتمل النشاط، كتاباته الثرية بالفكر والإبداع، كان الشغل الشاغل لآرثر ميللر كمفكر وكاتب مسرحي، أن تفقد أمريكا إحساسها بالماضي؛ لأن الإحساس بالاستمرارية لا يأتي إلا حين يكون الماضي والحاضر متداخلين في بعضهما في نسيج واحد، أو أن تفقد إحساسها بالحاضر لأن كل العلاقات والأوضاع التي كانت موجودة في الماضي، تتغير ولم تبعد عن حالها.

لم يكن فكر آرثر ميللر بعيداً عن طريقة عمل النظام السياسي في الولايات المتحدة، أو مقطوع الصلة به، فالفكر في هذا النظام يسبق الخطى التنفيذية، وهو مصدر إلهامها، وهذا شيء ملموس من كون الكثير من النظريات السياسية التي تتحول لاحقًا إلى واقع، وأيضًا جانب من القرارات السياسية الكبرى، تستلهم مما تجود به قريحة مفكرين، سواء في مراكز البحوث، أو معاهد أكاديمية أو مؤسسات متخصصة.

من أين تتدفق المعلومات في أمريكا

يبقى تنوع الزوايا التي نطل منها على أمريكا، وبصورها المتنوعة والمتعددة، تثير غريزة الصحفي المهم بحكم مهمته بالوصول إلى المعلومة، الخفية، أو الغائبة، أو تلك المحجوبة وراء أشعار، بعضها مقصود، وبعضها عفوي.

وإذا كنت قد تناولت مسألة غزارة المعلومات المتوافرة في أمريكا، فإن هذا لم يكن يمنع من تدخل مهني متعمد لتحريف المعلومات في بعض الأحيان، خصوصًا ما يتعلق منها بإسرائيل، وكمثال على ذلك - كنا نحضر مؤتمرًا صحفيًا للمتحدث بوزارة الخارجية. وهو يصرح لنا بمعلومات تدين إسرائيل، وتعمد مراسل إحدى وكالات الأنباء الأمريكية، أن يسأل عن جزئية من المعلومة، والمتحدث يجيبه، والمراسل يعيد السؤال عن جزئية من الجزئية، بهدف الحصول منه في النهاية على تصريح يفيد أنه كان هناك تصرف إيجابي ولو محدود من إسرائيل، وأن موقفها من المقترحات الأمريكية للسلام مع الفلسطينيين لم تكن سلبية تمامًا.

وانصرفنا بعد نهاية المؤتمر، وأرسلت ما دار فيه للأهرام، وتعمدت أن أرجع للصحف الأمريكية في اليوم التالي لقراءة ما أذاعته هذه الوكالة، ووجدت أن المراسل بدأ الخبر بالجزئية الإيجابية، بطريقة توحى وكأن هذا هو أساس التصريح، ثم أورد الإدانة في نهاية الخبر، وبكلمات مختصرة.

ويتصل بموضوع غزارة المعلومات المتوافرة في أمريكا، الدور الذي تلعبه The Think Tanks التي تترجم إلى مراكز البحوث، وإن كنت قد اعتدت أن أسميها مراكز الفكر السياسي أو مصانع السياسة الخارجية، فهي شريك فعلي في صنع القرار السياسي، وأحيانًا ما يأخذ الرئيس الأمريكي أفكارًا ومقترحات طرحت في هذه المراكز، في ورقة عمل، أو من خلال المناقشات، ويتبناها ويبنى عليها سياسته الخارجية.

ويشارك في المناقشات التي تجرى في ندواتها مسئولون حاليون، ومسئولون سابقون منهم من كان وزيرًا للخارجية، أو مستشارًا للأمن القومي، أو وزيرًا للدفاع، بجانب خبراء، وأكاديميين، وصحفيين، ويخرج ما يدور في هذه الندوات إلى الرأي العام عن طريق الصحافة وشبكات التلفزيون.

دفعني الدور الذي تلعبه هذه المراكز إلى إجراء مناقشة مع عدد من الشخصيات الأمريكية، من أصل مصري وعربي حول إمكانية إنشاء مركز بحوث مصري، يكون مقره مكتب الأهرام في واشنطن، بما لا يشكل عبئًا ماليًا إضافيًا،

لعدم الاحتياج لاستئجار مكان، خصوصًا أن مكتب الأهرام يقع في مبنى الصحافة القومي الشهير في واشنطن.

ودرسنا حدود الميزانية، ووجدنا أنها لن تكلفنا الكثير، واستطلعنا آراء بعض السفراء الأمريكيين السابقين في مصر، وفى دول عربية أخرى، ممن عرف عنهم تعاطفهم مع وجهة النظر العربية، للمشاركة في مجلس أمناء المركز، وأن يقوموا بدور مهم في ترتيب حضور مسئولين من الحكومة الأمريكية، بحيث نخرج من الندوات بالمعلومات الإخبارية والتحليلية التي تهم الإعلام، وبذلك نكون قد أوجدنا نافذة يطلع منها الرأي العام الأمريكي على وجهات نظرنا، في القضايا المثارة.

وبعد أن انتهينا من هذه الدراسة، جاءني قرار بتغيير رئاسة مكتب الأهرام، وعودتي للقاهرة، فتوقف المشروع وهو لا يزال في مرحلة الدراسة.

هكذا يصنع قرار السياسة الخارجية

وقد أتاحت لي السنوات التي أمضيتها في الولايات المتحدة، رؤية أمريكا من الداخل، ومعايشة مراكز صناعة السياسة الخارجية، التي واظبت على حضور ندواتها، ومناظراتها، ومقابلة مسئولين كبار منهم وزراء خارجية، مثل: جيمس بيكر، وهنرى كيسنجر وكولين بول ومستشارين سابقين للأمن القومي للرؤساء، مثل برنت سكوكرفت، وغيرهم.

وهو ما ساعدني على الاطلاع على الطريقة التي تتم بها صناعة السياسة الخارجية، وهي طريقة معقدة، وتختلف تمامًا عن مثيلاتها في الدول الأخرى، بما فيها الديموقراطيات الغربية الحليفة للولايات المتحدة. وإذا لم تكن لدى أي رئيس أجنبي زائر للولايات المتحدة، معرفة مسبقة بهذه الطريقة، فهو يخطئ الطريق في تحقيق هدفه من الزيارة.

كثيرون من الرؤساء كانوا يعتبرون البيت الأبيض، والرئيس الأمريكي بالتحديد، هو مفتاح إدارة السياسة الأمريكية، ومن كان منهم على علم بصناعة

القرار فهو يهتم بأن يجوب الولايات المتحدة قبل وصوله إلى واشنطن، ففيها أيضًا مراكز تأثير، وتنتشر فيها القُوى المؤثرة على الرئيس في اتخاذ قراره، وهي: مراكز البحوث - وقوى الضغط - وجماعات المصالح - والصحافة والإعلام - والرأي العام - ويضاف إليها الكونجرس، والرئيس، بحيث تشكل معًا حسب طبيعة النظام السياسي، الأطراف الشريكة في التأثير على قرار الرئيس بالنسبة إلى السياسة الخارجية. أي أن الرئيس أمامه خريطة، تتربع كل من هذه القُوى على جزء منها، وكل منها يستخدم أدوات الضغط التي سمح له بها الدستور الأمريكي، والنظام السياسي، الذي وضعه الآباء والمؤسسون للدولة.

وهذا النظام وطريقة عمله، كان المدخل إلى الحوار الذي كنت قد أجريته مع روبرت بلليترو، مساعد وزير الخارجية للشرق الأوسط في إدارة كلينتون، الذي استهل كلامه معي قبل بدء الحوار، بملاحظات عامة أوضح فيها، أن كثيرًا من الحكومات لا تعرف كيف تدار السياسة الخارجية في أمريكا، فيأتي رئيس أجنبي زائر ولديه تصور أن هذه العملية تجري بشكل مشابه لما هو معمول به في بلده، أو أنه مشابه لما يجري العمل به في دول ديموقراطية أخرى.

حدث أن شهدت واقعة ربما تكون متصلة بهذه الطريقة نوعًا ما، فقد جاء كوفي عنان زائرًا لواشنطن في عام ١٩٩٧، فور تعيينه أمينًا عامًا للأمم المتحدة، خلفًا للدكتور بطرس غالي، وكان السبب الرئيس للزيارة أن ترفع الولايات المتحدة الحظر الذي فرضته على دين عليها للأمم المتحدة قيمة مليار ونصف مليار من الدولارات، هو حجم متأخرات عليها من المعونة التي تسهم بها مع دول أخرى للمنظمة الدولية.

وذهب عنان لاجتماع مع الرئيس بيل كلينتون يطلب منه أن تسدد حكومته هذه المبالغ لاحتياج الأمم المتحدة له.

وكان رد كلينتون عليه، اذهب إلى الكونجرس، وناقش هذا الطلب أولاً مع جيسي هيلمز رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، وكان هيلمز

معروفًا عنه إنه من الجمهوريين المتشددين، مقتنعًا بأن على الأمم المتحدة ألا تتخذ قرارات، تتعارض مع مصالح السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

وجاء عنان إلى نادي الصحافة القومي في واشنطن، - وكنت حاضرًا لكوني عضوًا بالنادي مثل بقية المراسلين الأجانب - وبدأ لقاؤنا معه في حفل استقبال بإحدى قاعات النادي، وعرفنا منه ما قاله له كلينتون، ثم انتقل إلى قاعة المؤتمرات الكبرى ليلقي خطابًا، يرد على أسئلة الصحفيين وكان واضحًا أنه أراد أن تصل رسالته حول ما جرى معه، لعل قوة الصحافة تكون داعمًا له، لدى الرأي العام الأمريكي.

باب الدخول إلى أمريكا

اعتدت أحيانًا أن أذكر في مقالاتي أن أمريكا ساحة منتوحة، لمن يعرف كيف يدخل من الباب الذي يوصله إلى غايته، وأن في أمريكا رأى عام مستعد لأن يستمع، المهم أن يكون لدى القادم إليهم إرادة عرض قضيته في المنابر المناسبة، وأن يكون على معرفة بالعقل الأمريكي، وكيف يخاطبه.

وأذكر أن مساعدًا لوزير الخارجية الأمريكية كان قد ذكر لي أن العرب لا يدخلون ساحة الرأي العام من أبوابها، وأنهم تركوا ذلك للقوى اليهودية، كما ذكر مثلاً آخرَ لمزيد من الشرح لوجهة نظره، قال إن صناعة قرار السياسة الخارجية عندنا تجرى داخل ما يشبه السوق، والرئيس الأمريكي في هذه السوق هو البائع المشترى، وينتشر في المكان ما يمكن أن نشبههم بسماسرة، معلنون، ومروجون للسلع (أي لوجهات نظرهم)، والرئيس يمسك في يده بميزان، وإذا كان هناك طرفان متنافسان، فكل منهما يضع في إحدى كفتي الميزان، الثقل الذي معه، وفي النهاية يكون الرئيس تحت ضغط وتأثير الكفة الراجحة، ويأتي القرار لصالحها.

وعندما يتعلق القرار بالعرب وإسرائيل، تكون إسرائيل قد حشدت في السوق كل ما لديها من أثقال، بينما العرب خارج أسوار السوق، يجلسون كمتفرجين ينتظرون القرار الذي سيتخذه الرئيس الأمريكي.

هذه التشبيهات كنت أشعر بتطبيقاتها العملية منذ اليوم الأول لعملي في الولايات المتحدة وحتى مغادرتي لها.

وقبل الرحيل والعودة إلى القاهرة، كنت قد مررت بواقعة عابرة، لكن اتضح فيما بعد أنها بداية خيط لأحداث لاحقة، واجهتني في مصر.

ففي عام ١٩٩٥، وعقب تعييني رئيسًا لمكاتب الأهرام في الولايات المتحدة، بعد انتقالي من عملي مديرًا لمكتب الأهرام في لندن، طلبت لقاء مع ويليام بيرى وزير الدفاع في إدارة كلينتون، لحوار ينشر في الأهرام.

اتضح من حواراتي معه التي كان بعضها للنشر، وبعضها الآخر نوعًا من الدردشات السياسية تعبر عن تعاطفه مع القضية العربية، بالصورة التي تبدت في مواقف كلينتون، من قبل إطلاق حملة مونيكا لوينسكي، وتقديره بشكل خاص لمصر، والحرص على متانة العلاقة معها، وفى نهاية اللقاء طلب منى عمل اشتراك في الأهرام، باسم وزير الدفاع، حتى يطلع من خلاله، على ما يجري في المنطقة بعد ترجمة المادة التي يهمهم الاطلاع عليها، وبدأنا نرسل نسخة من الأهرام الدولي - الذي يطبع في نيويورك - إلى مكتب وزير الدفاع يوميًا.

تلك مقدمة لإيضاح ما هو آتٍ.

تحذير للأهرام في خطاب من نائب وزير الدفاع الأمريكي

فقبل الغزو الأمريكي للعراق في مارس ٢٠٠٣، بواحد وثلاثين يومًا، وصل إلى رئيس تحرير الأهرام، عن طريق السفارة الأمريكية بالقاهرة خطاب من بول وولفوتيز نائب وزير الدفاع، ويطلب نشره في الصفحة نفسها التي نشر لي قبلها بأسبوع مقال تحدثت فيه عن وولفويتز، وأفكاره كأحد المفكرين الأساسيين في حركة المحافظين الجُدُد، أقطاب حملة تغيير الدول العربية من داخلها، ونظرتهم إلى حرب العراق، باعتبارها المدخل إلى عملية التغيير بالشكل الذي يتصورونه.

وجاء الخطاب حاملاً مؤشرات مبكرة لما شهدناه من بعد ٢٥ يناير ٢٠١١، من الكشف عن خطط تغيير الأنظمة العربية، وإعادة رسم الخريطة الإقليمية للمنطقة، والتحركات الأمريكية للهيمنة عالميًا.

حكاية خطاب نائب وزير الدفاع الأمريكي

الغاضب رداً على مقال بالأهرام:

كان قد بقى على حرب العراق ٣١ يومًا، حين وصل إلى الأهرام خطاب بول وولفوتيز نائب وزير الدفاع الأمريكي، صادر من مكتبه وعلى أوراقه الرسمية، يطلب نشره في الأهرام، ردًا على مقال لي، وكان اللافت للنظر أن المقال المقصود مضى على نشره أربعة شهور (١٦ أكتوبر ٢٠٠٢) وأن المعلومات التي تضمنها متداولة في واشنطن وليست سرًا، وإن أغفل أي إشارة لما ذكرته عن التجهيز لحرب العراق، وأن وولفويتز هو واضع خطة الحرب قبل عشر سنوات (عام ١٩٩٢)، تجاهل هذا كله وركز رده على نفى تحيزه لإسرائيل وعلاقته الوثيقة بها، وموقفه من عملية السلام، وتضمن الخطاب هجومًا حادًا واتهامًا لي بسوء النية، وكان الواضح أن لديه قصدًا آخرَ لكتابة رد على مقال بعد نشره بأربعة شهور، وللمعنى الذي اختار أن يوصله في رده.

ومنذ النشر وحتى اليوم كان واضحًا أن وولفويتز وبقية الفريق المسيطر على السياسة الخارجية في وزارة الدفاع وعلى وجه الخصوص، يضيق بأي انتقاد للسياسة الأمريكية، سواء من الصحافة أو بعض شبكات التليفزيون، بينما يفترض أن تكون الأنظمة الشمولية هي التي تضيق بحرية التعبير عن الرأي، وليس المنتمين إلى أنظمة ديمقراطية، يتقبل فيها كل فريق أي اختلاف معه في الرأي.

ولما كنت قد شعرت أن المقال الذي اعترض عليه لا يخرج في شيء عن سياق ما هو موثق في هذا الفصل من الكتاب وأن المقال المعترض عليه، وخطاب

وولفويتز، ثم المقال اللاحق الذي كتبته ردًا على خطابه، وتمثل مدخلاً للإجابة على السؤال: هل انتهت حرب العراق عند حدود العراق، أم أن العراق كانت مجرد باب للدخول إلى العالم العربي كله للهدف نفسه، وأن الحرب أصبحت محورًا وفلسفة للسياسة الخارجية الأمريكية، لهذا وجدت من المفيد أن أضع أمام القارئ في الصفحات التالية نصوص المقال الأول، وخطاب وولوتيز، والتعليق اللاحق عليه، وهي كما يلي:

بتاريخ ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢، نشر لي في الأهرام المقال التالي بعنوان "دليل التخطيط الإستراتيجي للمنطقة بعد العراق" ويقول: "التفسيرات لمن هو الأكثر تأثيرًا على السياسة الخارجية للرئيس بوش، تقدم لنا أكثر من اسم لشخصيات تحتل مناصب الصف الأول لكنها تتوقف أكثر أمام اسم بول وولفويتز نائب وزير الدفاع.

وتتعدد الأوصاف التي تميز تفكيره السياسي، وهي كثيرة بالنسبة إلى نظرته لعلاقات أمريكا بالعالم ككل، لكن يبقى على رأس هذه الأوصاف القول إن إسرائيل هي مركز ومحور تفكيره.

وهذا الوصف قد يحمل إجابة على السؤال الذي يتردد الآن كثيرًا وهو: وما الذي سيحدث في المنطقة بعد الضربة العسكرية للعراق؟

وما سيحدث ليس بالضرورة أن تكون له الصبغة العسكرية، لكن المؤكد أنه سيعني محاولة فرض الشكل السياسي أو الخريطة الإقليمية المعدلة للشرق الأوسط، التي قيل كثيرًا - من جانب خبراء ومؤسسات الفكر السياسي الأمريكية - إن ضرب العراق هو الباب أو المدخل إلى هذه الخريطة.

وبينما نتابع الدور الذى يقوم به كل من ديك تشينى نائب الرئيس، ودونالد رامسفيلد وزير الدفاع، وكوندوليسا رايس مستشارة الأمن القومي ممن هم داخل الدائرة الضيقة المحيطة بالرئيس بوش، ونفوذ كل منهم في رسم السياسة الخارجية، في العالم، وتجاه النزاع العربي - الإسرائيلي، والعراق، وفى صياغة

وثيقة "إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة" التي أعلنت يوم ٢١ سبتمبر ٢٠٠٢. كمبدأ جديد للسياسة الخارجية، ينهي العمل بالإستراتيجية التي طبقت طوال خمسين عامًا مضت، فإننا نجد أن تشيني ورامسفيلد ينتميان إلى التيار نفسه الذي يضم وولفويتز، ويضمهم جميعًا تحت اسم حركة المحافظين الجُدُد في الحزب الجمهوري، فكر الهيمنة على العالم، أو الإمبراطورية الجديدة المنفردة بالقرار.

لكن وولفويتز يظل وسطهم قائمًا بدور التنظير، وفلسفة الاتجاه السياسي، فهو صاحب الأفكار التي تمثل قوة الدفع وراء ضرب العراق، بينما يتولى تشيني ورامسفيلد مهام القيادات المحترفة، والتنفيذية، وأن يظل الجميع جزءًا من إطار عقائدي أوسع يسمى يمين الحزب الجمهوري.

بينما كوندوليسا رايس القادمة من دائرة العمل الأكاديمي، وصاحبة النظرة المحيطة بالعالم والمتابعة للتحولات الجارية فيه، قد حسمت وضعها داخل حكومة بوش، وانتقلت من موقفها الذي كان ينتمي إلى الواقعية السياسية أو الاعتدال، إلى جانب من يسمون بالصقور في حكومة بوش، عندما وجدت أن الميزان يميل إلى جانبهم، وأن الصراع بينهم وبين كولن باول ومجموعته، قد حسم لمصلحتهم، فأخذت جانب الفريق الذي فاز.

وداخل هذه الدائرة يتحرك وولفوتيز ليضع الصياغة الفلسفية لفكر المجموعة التي ينتمي إليها، في رسم خط جديد بين المواقع السياسية القائمة في الشرق الأوسط، وفق المبدأ الذي سموه "من ليس معنا فهو ضدنا".

ولما كان وولفويتز هو المنظر، وواضع اللمسات الفلسفية على هذه السياسة، فإنه يكون من المهم التوقف أمامه... وإن أكثر ما لفت نظري في شخصيته منذ كنت أتابع في واشنطن في الفترة من ١٩٩٥ - ٢٠٠٠ كتاباته في الدوريات السياسية، والندوات والمؤتمرات التي يشارك فيها، عرض مفهومه بشكل واضح وصريح تجاه العرب وإسرائيل، فهو كان يعلن انحيازه الكامل وبلا حدود

لإسرائيل، ويحدد معارضته لعملية السلام حسبما يرى الليكود، رافضًا اتفاقات أوسلو، ومنظمة التحرير، والسلطة الفلسطينية، وياسر عرفات، قائلاً: إنه لا يوافق على عملية السلام؛ لأنها من وجهة نظره تؤدي إلى سحب أرض من تحت يد إسرائيل؛ أرض هي معها وتحت يديها!

وولفويتز كان في الفترة التي سبقت دخوله حكومة بوش حتى عام ٢٠٠٠ يشغل منصب عميد كلية الدراسات الدولية العليا بجامعة جون هوبكنز، وعنصرًا قياديًا نشيطًا في حركة المحافظين الجُدُد اليمينية المتشددة في الحزب الجمهوري ومشاركًا بنشاط ملحوظ في المناقشات والمجادلات السياسية التي تعتبر ظاهرة يومية لنشاط النخبة السياسية في الولايات المتحدة.

وبدأ عمله في المرحلة التنفيذية الأولى في وزارة الدفاع عام ١٩٧٣. في حكومة نيكسون، كمحلل سياسي للأوضاع في العالم العربي، والخليج، ومنذ البداية كان له تركيز على ما يرى أنه يمثل تهديدًا للولايات المتحدة ومصالحها في الخليج، والتوصية بدفع المنطقة، وبالتهديدات التي يراها، إلى أولوية الاهتمام السياسي الأمريكي.

ومن التعريفات التي أطلقت عليه ما جاء في تقرير سبتمبر ٢٠٠٢ لايفو دالدر الخبير بمعهد بروكنجر وهو من أشهر مراكز البحوث السياسية في واشنطن، بوصفه أنه "من الاستعماريين الجُدُد الذين يريدون تغيير العالم" والقول في دراسات أخرى إنه من دعاة التدخل، وتغيير الأنظمة والدعوة إلى تجاوز الحلفاء في وضع قرارات السياسة الأمريكية في العالم، وإن من أبرز أفكاره مبدأ الضربة الوقائية ضد عدو محتمل التي تحولت من أحد البدائل والخيارات السياسية، إلى مبدأ سياسي لحكومة بوش، وإطلاق يد شارون في التعامل مع الفلسطينيين، من منطلق أن إسرائيل هي مركز تفكيره.

وإذا كان تشيني ورامسفيلد يحتلان أهم موقعين في الحكومة في داخل الدائرة نفسها التي لا يقل فيها نفوذ وولفويتز عن نفوذ رئيسه المباشر ووزيره رامسفيلد، فإن هناك مجموعة أخرى تحتل مراكز مساوية أو تالية لها، وكلهم

معروفون على المستوى السياسي في الولايات المتحدة بأنهم يتبنون فكر الهيمنة نفسه عالميًا، وتحتل إسرائيل مركز تفكيرهم إقليميًا، وأبرزهم ريتشارد بيرل رئيس المجموعة الاستشارية السياسية بوزارة الدفاع، ودوجلاس فيث مساعد وزير الدفاع، وجون هاناه مساعد تشيني في البيت الأبيض لشئون الشرق الأوسط.

ولهم تصريحاتهم ومواقفهم التي ترى عدم التفرقة بين الإرهاب، والدول التي يرون أنها تساند الإرهاب، التي يحرضون فيها على الضربة العسكرية للعراق، ولا يخفون أن تلك مجرد مقدمة تتجاوز العراق، وأن قواعد العلاقات بالمنطقة يجب أن تتغير وفق إعادة رسم خريطتها السياسية.

ولما كان وولفويتز هو أبرزهم من حيث دوره في وضع أفكار الخطاب السياسي الأمريكي الذى يطالعنا هذه الأيام من وقت إلى آخر، فلنا أن نلاحظ أن ما صرح به مسئول أمريكي حرص على عدم ذكر اسمه، من أن التقاء حدث بين بوش وولفويتز، أثر كل منهما خلاله في نظرة الآخر للتحول الإستراتيجي في المنطقة، وأن وولفويتز كان بمثابة الطاقة التي تحرك الاتجاه للحرب على العراق، منذ تمسك بهذا عقب أحداث الهجوم الإرهابي في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. وأن وولفويتز ومجموعته - المحافظين الجُدُد - من وراء حملة التدخل الوقائي لهز الأنظمة أو تغييرها، وأنه هو الذى كان أول من طرح فكرة الهجوم الوقائي قبل عشر سنوات، عندما قام بتكليف من ديك تشيني وكان وزيرًا للدفاع عام ١٩٩٢، في حكومة بوش الأب، بصياغة ما سمى "دليل التخطيط الدفاعي للبنتاجون" وتضمن جملة تقول" ينبغي أن ينال العقاب من هم أعداء لنا، وأن نجعل الذين يرفضون تأييدنا، يندمون على ذلك، وهذا هو جوهر المبدأ الذي خرجت علينا به الإستراتيجية الجديدة، أو ما يسمى مبدأ بوش للسياسة الخارجية، الذي يبيح للولايات المتحدة توجيه ضربة لما تقرر هي أنه قد يكون عدوًا محتملاً يمثل تهديدًا لمصالحها مستقبلاً، وما لحق بهذا المبدأ، من ترديد للقول إن من ليس معنا فهو ضدنا.

إن توقفنا أمام وولفويتز أكثر من غيره؛ لأنه يمثل النافذة التي حين نطل منها نرى الآخرين أكثر وضوحًا، فالذين يتصدرون أمامنا مسئولية صناعة السياسة الخارجية من رايس، ثم تشيني ورامسفيلد على وجه الخصوص، يظهر لنا منهم تصريحات، ومواقف، وقرارات تنفيذية، تفصح عن أشياء كثيرة، لكن وولفويتز القابع في الصف الثاني، يكشف أكثر؛ لأنه المعبر عنهم، أو هو لسان حالهم، والمتقلد دور المنظر، والمشارك بدور أساسي في صياغات السياسات، وإضافة اللمسات التأثيرية، والمبررات المقدمة عليها، ولأن أصابعه موجودة في سطور الخطاب السياسي الذي تخاطب به حكومة بوش العالم وأن يظل تشيني في مقعد الأكثر نفوذًا يجاوره رامسفيلد.

وإذا كانت لوولفويتز آراؤه القديمة عن دور أمريكا ووضعها في العالم، خصوصًا منذ أن قام في عام ١٩٩٢ وهو مساعد لوزير الدفاع، بصياغة توجيهات للقيادة العسكرية، تحدد لها العمل على عدم السماح بظهور أي قُوى تنافس الولايات المتحدة في انفرادها بوضع القوة العظمى الوحيدة، فإن كونه "صهيوني الاتجاه السياسي" - وهو وصف لخبراء ومختصين أمريكيين - ثم ما هو معلن من قبل على لسانه من مواقف تجاه العرب وإسرائيل، يجعلنا نضيق دائرة النظر إلى ما يخص الشرق الأوسط في شخصيته، وهى القضية المطروحة الآن ونعيشها يومًا بيوم وساعة بساعة، فهذه النظرة تستوعب ما لا يترك أي مجال للاجتهاد في العثور على إجابة على السؤال المتكرر - حتى في واشنطن - عما تنوى مجموعة السياسة الخارجية في حكومة بوش، أو حزب الحرب على العراق، بالنسبة إلى المنطقة العربية، بعد الانتهاء من المهمة في العراق؟

... فماذا ننظر مما يوصفون في بلدهم بأصحاب اتجاه سياسي صهيوني، وبأن إسرائيل هي مركز تفكيرهم؟!

نص الخطاب الغاضب في ١٩ فبراير ٢٠٠٣ من وولفويتز للأهرام:

٢- وكان نص كتاب بول وولفويتز هو:

نائب وزير الدفاع البنتاجون - واشنطن .D.C

أكتب هذا الخطاب ردًا على مقال عاطف الغمري وعنوانه "دليل التخطيط الإستراتيجي للمنطقة بعد العراق"، بتاريخ ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢ - الصفحة العاشرة.

لقد جزم السيد الغمري على نحو غير صحيح بأنني أعلنت تأييدي التام وغير المحدود لإسرائيل، وأني قمت بتبني رفض الليكود لعملية السلام، واتفاقات أوسلو، ومنظمة التحرير والسلطة الفلسطينية، وياسر عرفات.

وجزم على نحو غير صحيح أيضًا، أني لا أوافق على عملية السلام، وأني أعارض مبدأ الأرض مقابل السلام، ولقد وضع كلامًا على لساني، مدعيًا أنى قلت لماذا تنسحب إسرائيل من أرض تسيطر عليها بالفعل، وهو كلام لم يحدث أن قلته ولا أعتقد فيه.

وزعم السيد الغمري أنه يؤسس هذه الاختلافات على متابعته لكتاباتي ومحاضراتي خلال الفترة من ١٩٩٥ - ٢٠٠٠ عندما كان في واشنطن، ومع ذلك فإنني لم أدلِ بمثل هذه التصريحات أثناء تلك الفترة أو أي فترة أخرى.

وعلى العكس فإنني شاركت في عام ١٩٩١ في مجموعة دراسية رئاسية من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، قدمت توصيات إلى رئيس الولايات المتحدة، لتكون دليلاً للسياسة الأمريكية نحو تحسين العلاقات العربية الإسرائيلية.

وأوصينا بمواصلة السير في عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية على النحو الذي جرى بيانه تفصيليًا في اتفاق الخليل، وأوصينا بتجديد جوهر اتفاق أوسلو، الذي يدعو قيادة إسرائيل لإعادة تأكيد مفهوم الحكم الذاتي الذي يوفر غطاءً سياسيًا واقتصاديًا حقيقيًا للشعب الفلسطيني، ويقدم طريقًا واضحًا نحو مفاوضات فعلية حول الوضع النهائي.

كما أننا دعونا لاتصال مباشر بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، ولدفع التنمية الاقتصادية للفلسطينيين كأولوية قصوى.

وهذه الآراء قد جاءت بوضوح في تقرير منشور خلال عملي لثلاث سنوات سفيرًا في إندونيسيا وكونت لي صداقات عديدة مع عرب وأتراك ومسلمين آخرين، وهو ما أكسبني احترامًا عظيمًا للإسلام كدين وللثقافة والحضارة الإسلامية. وقد عبرت عن وجهات نظري حول الحاجة إلى بناء جسور بين الغرب والعالم الإسلامي، في عدد من محاضراتي، خصوصًا تلك التي كان عنوانها تضييق الفجوة الخطيرة بين الغرب والعالم الإسلامي، ألقيتها في الخامس من مايو ٢٠٠٢ في مونترى بولاية كاليفورنيا.

وتبدو الرواية الملفقة للسيد الغمري، مخصصة عن عمد لتوسيع الفجوة بين العالم العربي والولايات المتحدة. وهي ألحقت ظلمًا بملايين الأمريكيين الذين يسعون من أجل السلام والرخاء لشعوب الشرق الأوسط، وتشكك في مصداقيته شخصيًا، وفى مهنة الصحافة في مصر، وإن النشر دون التأكد من دقة الرواية المنشورة هو إساءة لقرَّاء الأهرام، وللعلاقة الأمريكية المصرية، وللتفاهم بين المسلمين والغرب، ولقضية السلام.

٣- في الأسبوع الثالث بتاريخ ٢٦ فبراير ٢٠٠٣، نشرت ردًا في الأهرام كتبته تحت عنوان:

عندما تنزعج من أجل السلام، هذا نصه:

شعرت بارتياح شديد لتأكيد السيد بول وولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكي، بأنه لم يعارض مبدأ الأرض مقابل السلام... وهو بهذا يؤكد الأساس المحوري لعملية السلام، الذي يعيد إليها التوازن، ويضعها في الطريق الصحيح الذي يوصل إلى نجاحها.

لكن هذه النقطة وبقية النقط الأخرى التي اعترض عليها في رده الذي نشر على هذه الصفحة يوم ١٩ فبراير ٢٠٠٣، تعقيبًا على مقال سابق لي، كلها نشرت أكثر من مرة، في الصحف الأمريكية الرئيسة، وفى الفترة التي يشغل فيها منصبه الحالي في حكومة الرئيس جورج دبليو بوش.

وإذا كان يؤكد أنها تعابير لم يقلها، فربما تكون الصحافة الأمريكية نفسها هي التي تنسب أحيانًا إليه ما لا يقوله، وتصور تفكيره السياسي بما ليس فيه، الذي يدعوني إلى هذا القول، المقال الذي أرسله إلى صحيفة "واشنطن بوست" ونشرته بتاريخ ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢ يرد فيه على مقال نشر في الصحيفة نفسها يوم ١٩ ديسمبر ٢٠٠٢. ويقول فيه السيد وولفويتز إن هذا المقال هو محاولة لإظهار وجود انقسام في البنتاجون، وهو أمر ليس موجودًا بين كِبار القيادات العسكرية والمدنية حول التخطيط لحرب محتملة في العراق، وإن محرر الواشنطن بوست نسب أشياء متعددة لي، "ولمدرسة وولفويتز"، ووجهة نظر وولفويتز" وإنه كان لي رأي بأن حكومة صدام حسين ستسقط فور الهجوم على العراق، وأن هذه لم تكن أبدًا وجهة نظري، ولا وجهة نظر القيادات المدنية الكبيرة في وزارة الدفاع".

كان هذا جزءًا من مقال السيد وولفويتز لكنني ألاحظ من متابعة لما ينشر يوميًا في الصحافة الأمريكية، ومن أوراق ومناقشات في مراكز البحوث think tanks، إن الصحافة الأمريكية ما زالت مستمرة في نشر أقوال أو تحليلات عن السيد وولفويتز، من النوع الذي اعترض على روايتي له، في مقالي السابق الإشارة إليه، وسوف أذكر بعضًا منها مثل:

أولاً: الصحفي المعروف بيل كيللر كتب تقريرًا طويلاً في مجلة "نيويورك تايمز مجازين" بتاريخ ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٢، قدم فيه شرحًا تحليليًا لشخصية السيد وولفويتز، وتفكيره واتجاهاته السياسية، ونفوذه على السياسة الخارجية، كأحد الأقطاب الرئيسية لحركة "المحافظين الجُدُد" في الحزب الجمهوري، مشيرًا إلى أن إسرائيل في مركز تفكيره، وقوله إن مسئولاً كبيرًا كان يراقب علاقة التفاعل بينه وبين الرئيس بوش، وأن وولفويتز والرئيس يعزز كل منهما اعتقاد الآخر بشأن التحويل الإستراتيجي للمنطقة كلها".

ثانيًا: التقرير الذي كتبه اثنان من المحللين السابقين بالمخابرات المركزية الأمريكية بتاريخ ١٣ ديسمبر ٢٠٠٢ في مجلة counter punch وهما: كاثلين كريستيون، وبيل كريستيون، والأولى عملت محللة سياسية للمخابرات المركزية

لمدة ستة عشر عامًا اختصت في السبع سنوات الأخيرة منها بالشرق الأوسط، قبل أن تستقيل، وتصبح كاتبة لعدد من الصحف، ولها مؤلفات عن الشرق الأوسط، آخرها "جرح الإبعاد: رواية القصة الفلسطينية" المنشورة في مارس ٢٠٠٣.

والثاني عمل في المخابرات المركزية ٢٨ عامًا، وقبل أن يتقاعد في عام ١٩٧٩ كان يشغل منصب مدير مكتب المخابرات المركزية للتحليل السياسي والإقليمي.

يشرح التقرير وضع السيد وولفويتز ضمن مجموعة "المحافظون الجُدُد" في حكومة الرئيس بوش، ويقول إن فحص سجل الكتابات الوافرة للمحافظين الجُدُد، يظهر أن إسرائيل تأتي دائمًا نقطة مرجعية لديهم.

أفكار الصقور التي تحولت إلى أهداف إستراتيجية لصالح إسرائيل

وبقول التقرير إن الأوراق الإستراتيجية للمحافظين الجُدُد منذ خمس سنوات تحمل أفكارًا مثل إعادة صياغة العراق وإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط وتشجيع إيجاد بديل لياسر عرفات، وهي أفكار تحولت في الشهور الأخيرة إلى أجزاء مألوفة في اللغة الدبلوماسية لحكومة بوش، وإن الأهداف الواردة في هذه الأوراق، كأهداف إستراتيجية لإسرائيل تشمل إقصاء صدام حسين، والتحول الإستراتيجي للشرق الأوسط وموت عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، وتغيير أنظمة يتصادف أن الولايات المتحدة وإسرائيل لا تحب هذه الحكومات القائمة، والتخلي عن أي جهود للتقدم نحو سلام شامل بين الدول العربية وإسرائيل، أو حتى سلام محدود فلسطيني/ إسرائيلي، وإن هذه الأهداف أصبحت الآن وتحت توجيه هذه المجموعة من المحافظين الجُدُد الموالين لإسرائيل، أصبحت أهدافًا إستراتيجية مهمة للولايات المتحدة.

وإن تسلط فكرة التخلص من ياسر عرفات على الحكومة هي سياسة مقترحة من المحافظين الجُدُد من قبل أن يصل بوش إلى الحكم، وهي حيلة تحول الاتجاه، بشكل يؤدي إلى دوام النزاع بسبب الإخفاق في معالجة جذوره الحقيقية.

ثالثًا: في إطار المعاني السابقة، فقد كتب الصحفي الأمريكي روميش ريتنسار romesh retnnesar في مجلة تايم في ٢٥ مارس ٢٠٠٢، يقول إن نائب الرئيس ديك تشيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد يعارضان منذ وقت طويل أن تكون أمريكا ضالعة بعمق في عملية السلام، وإن "التايم" سبق أن نشرت في فبراير، يوضح أن كلًا منهما دعا في اجتماع لفريق الرئيس بوش للأمن القومي في مطلع يناير ٢٠٠٢. بضرورة أن تقطع الولايات المتحدة صلاتها بعرفات.

رابعًا: وفى إطار هذه المعاني أيضًا نشرت "نيويورك تايمز" تقريرًا لأليسون ميتشيل في ٢٢ أبريل ٢٠٠٢ جاء فيه أن المشاعر القوية الموالية لإسرائيل تعكس تحولاً عميقًا وظاهرًا داخل الحزب الجمهوري، حسب وصف الإستراتيجيين السياسيين، وإن حزب الليكود في إسرائيل قد أقام روابط مع المحافظين وأن مارشال ويتمان الذي يعتبر من المحافظين قال إن هذه هي ربما تكون المرة الأولى في تاريخ الحزب الجمهوري التي تجذب فيها مجموعة مؤثرة موالية لإسرائيل، عين البيت الأبيض.

خامسًا: واتصالاً بما سبق عن التحول الإستراتيجي والتغيير الكامل للمنطقة ككل، فإنني أرجع إلى رسالة جلين كيسلر في واشنطن بوست، التي تحدث فيها عن الخطاب المفتوح الذي وجهه في عام ١٩٩٨ بول وولفويتز وتسعة آخرون يشغلون مناصب في حكومة بوش حاليًا، يحثون فيه الرئيس كلينتون على البدء في تطبيق الإستراتيجية للإطاحة بصدام حسين، وتضيف أن كثيرين من هؤلاء كانوا يرون أن الإطاحة بصدام هي المفتاح لتغيير الواقع السياسي لمنطقة الشرق الأوسط كلها.

مشروع تغيير الشرق العربي كله خلال ١٠ سنوات من بعد حرب العراق

بالإضافة إلى ذلك، فقد نشرت تايم في ٦ يناير ٢٠٠٣ تقريرًا مفصلاً من سبع صفحات شارك فيه تسعة من محرريها، جاء في فقرة منه في صفحة ٧٦: إن الرئيس بوش عندما احتاج إستراتيجية جديدة للأمن القومي، لعالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، فقد اتجه نحو ديك تشيني، الذى كان يحمل هذه

الإستراتيجية في حقيبة أوراقه لمدة عشر سنوات وإن تشيني عندما كان وزيراً للدفاع (عام ١٩٩٢) في حكومة بوش الأب، فإنه كلف اثنين من أكبر مساعديه أحدهما بول وولفويتز، لرسم خطة لإعادة توجيه السياسة الدفاعية بعد الحرب الباردة، وإن الإستراتيجية التي قام برسمها لتشيني، أصبحت كبرنامج عمل الآن لمبدأ بوش.

واستكمالاً لهذا المعنى كان ما ذكره أخيراً الكاتب المعروف ويليام باف من أن جزءاً من مجموعة المحافظين الجُدُد الموالية لإسرائيل ذات النفوذ على سياسة حكومة بوش، يدعون لضرورة أن ينظر إلى الحرب ضد صدام حسين، في إطار السياسة الأمريكية بعيدة المدى لإحداث تحول في الشرق الأوسط الإسلامي.

وحددت تغيير النظام في العراق، كخطوات ضرورية في برنامج أمريكي عمره عشر سنوات لتغيير الأنظمة في الشرق الأوسط وإجراء إصلاح اجتماعي واقتصادي، وإن تفاصيل هذا المشروع الجديد كان قد عكف على إعدادها مايكل لادين وآخرون من معهد أمريكان إنتربرايز The American Enter Prise Institu لينشر في مجلته بوليسى ريفيو، إن التصور لهذا المشروع هو لتسوية عربية إسرائيلية تتم وفق شروط مقبولة لإسرائيل.

لقد حرصت في الاستناد لهذه النماذج من كتابات لصحفيين، ولصحف رئيسة في الولايات المتحدة أن ألتزم بحرفية كلامهم، ومؤكداً أن ما سبق أن ذكرته في مقالات سابقة في هذا الموضوع، قد ظهر لاحقًا وفى أوقات متفاوتة في الصحافة الأمريكية ودراسة لها، حتى قبل أكثر من عشرين عامًا من ذهابي للعمل في واشنطن عام ١٩٩٥ وأن ما عرضته في "الأهرام" هو نتيجة دأب على المتابعة والاهتمام، يحدث كثيراً أن يختلف معي فيه زملاء آخرون، يعرضون وجهة نظرهم في إطار اختلاف الآراء فيما ينشر في الصحافة المصرية.

ولن يكون التعبير الحر عن الرأي مدعاة لفجوة مع الولايات المتحدة، ثم إنه عندما يعارض صحفي أو مواطن، أو مسئول، حربًا على العراق، يراها مدمرة للمنطقة، وتفتح لها أبوابًا من القلاقل لا يعرف أحد إلى أين ستؤدي، فإن هذا

حقه الطبيعي، وعندما تتحرك آلة حرب على الإرهاب، وهناك من يرى أن هذه الحرب لا تقوم بأي محاولة لعلاج الجذور الحقيقية للإرهاب واستئصالها، فمن حقه أن يعترض، وعندما نرى في مصر - وهي التي كانت لها المبادرة بمد يدها للسلام، وشق طريق إستراتيجي له - أن هذا السلام توضع في طريقه العراقيل، فمن حقنا أن ننزعج على هذا السلام.

أما عن التوجه بقوة في اتجاه ما تراه إسرائيل، فليس لأحد اعتراض على خصوصية العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، لكن ما أزعجنا ألا يكون هذا التوجه مجرد تحيز، بل يصل إلى حد تطابق النظرة الأمريكية والإسرائيلية للنزاع العربي الإسرائيلي وللقضية الفلسطينية.

وكانت عملية السلام، حين كانت لها قوة دفعها المثيرة للتفاؤل، محل تركيز رئيس من جانبي كصحفي يكتب للأهرام، في فترة عملي في واشنطن، بل وفى فترة تعثرها بعد عام ١٩٩٦ ينقل ما يدور من مناقشات في مراكز البحوث، والندوات والمؤتمرات التي كنت موجودًا فيها دائمًا واللقاءات في نادي الصحافة القومي في واشنطن الذى كنت عضوًا فيه، وكان من ضيوفه كولن باول، وهنرى كيسنجر، وكِبار صناع القرار السياسي، وكذلك الأحاديث Interviews التي كنت أجريها وينشرها الأهرام مع شخصيات منها قيادات مرموقة في الحزب الجمهوري بعضهم يشغل الآن مناصب في وزارتي الدفاع والخارجية التقيت معهم في مكاتبهم منهم: جيمس بيكر، وبرنت سكوكروفت وريتشارد هاس، ودوف زاكهايم وجيفرى كمب، وجيمس شليزنجر وغيرهم كثيرون، ولقاءات محدودة العدد في مجلس العلاقات الخارجية، وبعض قاعات الكونجرس، وغيرها.

وكنت أحد الذين حضروا وقاموا بالتغطية الصحفية لأولى جلسات الحوار الإستراتيجي بين مصر والولايات المتحدة، الذي افتتحه معًا مادلين أولبرايت، وعمرو موسى، ووزيرًا خارجية البلدين وقتئذ.

وكنا نبشر في هذه التغطية بقناة مؤسسية مهمة للعلاقة المصرية الأمريكية التي نضجت مما استدعى الاعتراف بأن الاختلاف في وجهات النظر أمر طبيعي ومقبول في إطار علاقة تجمع طرفيها بما بينهما من عناصر اتفاق ومصالح

مشتركة، وأن الحوار الإستراتيجي سيعمل على ألا يؤثر أي خلاف على جوانب الاتفاق والمصالح المتبادلة.

وإذا كنت أعود إلى نقطة البداية في هذا المقال، فإنني أعود للترحيب بما ذكره السيد بول وولفويتز - المفكر السياسي، والعميد السابق بكلية الدراسات الدولية العليا بجامعة هوبكنز، الذي يتكلم ست لغات، الذي يوصف بالسياسي من الوزن الثقيل - في توضيح رأيه من عملية السلام، وكل ما يتعلق بها، ومؤكدًا من جانبي أننا سنظل نتمسك بمبدأ الأرض مقابل السلام، طالما أننا نريد أن يكون هناك سلام، وأن ننزعج عندما نشعر بأن السلام مهدد.

"عاطف الغمري"

الفصل السادس

العودة للقاهرة بعد غياب ٧ سنوات
الصحافة في قبضة الإخوان

عدت إلى القاهرة لأتفرغ للكتابة في الأهرام، وتأليف الكتب، في مناخ تجسدت فيه فلسفة الرئيس مبارك بشكل واضح، في معنى دعهم يكتبون، ودعونا نفعل نحن ما نريده.

وفي تلك الفترة كانت أعداد الصحف الخاصة والمستقلة قد زادت، وارتفعت نبرة انتقادها للنظام وسياساته، وفي صفحات الرأي بالأهرام، احتفظ بعض الكتاب من أبناء الأهرام باستقلالية مواقفهم، واستمروا في انتقاد سياسات النظام، حتى وإن حمل نبرة هادئة أحيانًا بالمقارنة بالصحف المستقلة، وتفاديًا لأي مبررات لمنع النشر، إلا أن الرسالة التي أرادوها، كانت تصل واضحة تمامًا للقارئ.

وأذكر من بين المقالات التي نشرت لي بالأهرام مقالات عن خطيئة إلغاء المشروع القومي لتنمية سيناء - وإيقاف تنفيذ الاتفاق الموقع مع الصين بإنشاء مدينة صناعية تكنولوجية شمال غرب خليج السويس - وقرار إلغاء إنشاء مصانع للمبيدات الزراعية الآمنة، بمنحة مجانية من الوكالة الدولية للطاقة الذرية، بالإضافة إلى كتب تنتقد النظام وتدعو للتغيير منها، كتاب أزمة الديموقراطية عام ٢٠٠٥، وكتاب الإصلاح السياسي - من أين يبدأ، عام ٢٠٠٨. بخلاف ما كتبه زملاء آخرون في الاتجاه نفسه.

ولم يقدم النظام على منع مقال، أو مصادرة كتاب، فهو قد غاب عن وعيه الأثر الذي يمكن أن تحدثه كتابات عدد من الكتاب الذين اختاروا القيام بدورهم، في تكامل مع موجات احتجاجية في الشارع تتصدرها حركة كفاية، لكن الرئيس قد حبس عقله وراء مقولته "دعهم يكتبون"، التي تطورت فيما بعد إلى عبارته الختامية "خليهم يتسلوا".

الصحافة من مبارك إلى الإخوان

وطوال فترة حكم مبارك، اتخذت الرقابة على حرية الرأي والتعبير، وكل تحرك ونشاط مدني في مصر صيغة مختلفة تمامًا، عما كان متبعًا، في عهود سابقين، باستخدامه جهاز أمن الدولة سلاحًا حادًا للبطش، وإهدار الكرامة، والتضييق على الحريات، بعد أن مد أذرع أمن الدولة، إلى جميع قطاعات المجتمع، منذ استبداله مفهوم الأمن القومي للدولة، بمفهوم أمن النظام الذي تولى مهامه جهاز أمن الدولة، وأبقى على قانون الطوارئ الذي يعطي صلاحيات واسعة للأجهزة الأمنية، ويضفي الصفة القانونية على الرقابة.

ثورة ٢٥ يناير ترج المؤسسات الصحفية

وجاءت ثورة ٢٥ يناير، وسرت نشوة الانتصار في أرجاء البلاد، الآن حانت الفرصة لكي تستعيد مصر مكانتها التي تستحقها، ويسترد الشعب شعوره بالكرامة، ويمسك بين يديه بزمام أمره، ليبدأ خطاه نحو الازدهار والتقدم.

وحدثت هزة في كل المؤسسات بعضها سعت لأن تتوازن، وتتخلص من قيود شلت فاعليتها لسنوات، ومنها من كانت القيود قد نفذت إلى عمق وعيها فاستعصى عليها الخلاص منها. حدث الشيء نفسه في الصحافة والإعلام عمومًا، وكان الأهرام بحكم التراث التاريخي الذي يشكل كيانه وشخصيته، عبر تراكم خبرات جيل وراء جيل من صحفيين، وكُتَّاب، ومفكرين، قد شهد عقب تفجر شرارة الثورة تفاعلاً داخليًا، للفكاك من قيود طال زمنها، ونجح بسرعة في أن يستعيد توازنه.

لكن الحال لم يستمر طويلاً، فكانت الكبوة.

الأهرام في قبضة انعدام المهنية

حين تدخلت السلطة في إجراء تشكيل جديد لقيادات المؤسسة العريقة، يجذبها بعيداً عن دائرة المهنية، ويلبسها ثوب النشرات الدعائية الفجة، التي تطمس هويتها، فلقد تم تعيين رئيس مجلس إدارة إخواني، تفصح كتاباته عن انحياز فكرى للإخوان، في خروج على أصول المهنية، واتخاذ إجراءات لصبغ الصحيفة ذات التاريخ المهني العريق، بطابع يمسح هويتها التاريخية، ويلبسها ثوبًا، لا يليق بها، مما كان له مردوده السلبي على قطاع كبير من قُرَّاء الأهرام التقليديين، الذين كانت قراءة الأهرام الذي ألفوه، جزءًا أساسيًا من طقوس يومهم منذ بدايته في الصباح.

كانت حجة مجلس الشورى في تعيينه رؤساء مجالس الإدارة ورؤساء التحرير، أن هذا حق للمجلس بحكم القانون، والحقيقة أن الذين وضعوا هذا القانون بداية، كان غرضهم ضد أن يكون ستارًا، يحمون من ورائه ترتيبات لأحكام قبضة السلطة على الصحافة.

ففي العهد السابق من قبل ثورة ٢٥ يناير، لم يكن مجلس الشورى يختار أيًا من رؤساء مجالس الإدارة أو رؤساء التحرير، فرئيس الجمهورية هو الذي يختارهم بالاسم. ويبعث إلى رئيس مجلس الشورى، ورقة تتضمن الأسماء، ويقرؤها رئيس المجلس، وكأن المجلس هو الذي اختارهم.

وحين ترك الرئيس السابق مهام الشئون الداخلية لنجله في السنوات الخمس الأخيرة من حكمه انتقلت إليه مهمة اختيار رؤساء الصحف، وصار جمال مبارك بالاشتراك مع صفوت الشريف، هما الجهة التي تتولى الاختيار، يضاف إليهما تقديرات جهاز أمن الدولة، الذي صار شريكًا في اختيار من يشغلون المناصب، في كل مكان في مصر. ثم ترسل "الورقة" بالطريقة نفسها إلى رئيس مجلس الشورى ليعلنها، وكأنه هو الذي اختار.

وبعد الثورة استخدم مجلس الشورى بالطريقة نفسها الخادعة، متعللاً بأنه يفعل ما نص عليه القانون!

تجربة ذاتية

مذبحة الكِبار في الأهرام

فما الذي فعلوه بالأهرام؟

سوف أبدأ بما حدث معي، باعتباري طرفًا، أو على الأقل شاهد عيان في تسجيل دقيق لواقعة، من النادر حدوثها بهذه الصورة الفجة، في تاريخ الصحافة المصرية.

في يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ٢٠١٢. كنت في مكتبي بالأهرام، وطلبت بروفة مقالي الذي ينشر في اليوم التالي - الأربعاء - لتصحيح الأخطاء المطبعية. وهو ما اعتدت عليه يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وجاءتني البروفة في مكتبي بالدور السابع، وصححت الأخطاء. لكني لاحظت كثرتها، فاتصلت بالمطبعة؛ لكي أنبه الشخص الفني على الصفحة، للاهتمام بتصحيح كل هذه الأخطاء، وفوجئت به يقول لي لقد تم استبعاد المقال، وأمامي على الصفحة مقال آخر، ذكر لي اسم كاتبه، ولم أكن قد سمعت به من قبل، لم أصدق ما أسمع، المقال ينشر أسبوعيًا في صفحة الرأي، منذ ما يزيد على ٣٠ عامًا، وتشتريه من الأهرام صحف في ثلاث دول عربية، لتنشر مع الأهرام في نفس يوم صدوره. وكان مقالي المستبعد في هذا اليوم بعنوان "قانون العلاقة بين الحكم والمعارضة".

اتصلت في الحال تليفونيًا بالزميل المسئول عن صفحات الرأي، وما أن قلت له: ما هذا الذي حدث؟!. حتى سارع بالقول: متأسف جدًا، كنت سأتصل بكم. وأضفت: تتصل بي بعد أن أفاجأ غدًا باختفاء مقالي من الأهرام؟

قال: إن اسمي جاءه ضمن قائمة من عشرين من كِبار الكُتَّاب، مطلوب وقف نشر مقالاتهم نهائيًا، وإنهاء التعامل معهم ماليًا.

سألته من الذي وقع القرار؟... أجابني أنه رئيس مجلس الإدارة، فقلت له ساخرًا: رئيس مجلس الإدارة أم مكتب الإرشاد؟!

فكان رده: ما تفرقش!

وأمسكت بسماعة التليفون وطلبت رئيس مجلس الإدارة الإخواني لأعرف منه تفسيرًا لهذا العبث غير المسبوق، الذي يتجاوز أصول المهنة واللياقة في التعامل. وردت على سكرتيرته بأنه غير موجود في مكتبه، فتركت لها رقم الموبايل الخاص بي، ليتصل بي عند عودته، وبالطبع لم يتصل.

وحين نشرت إحدى الصحف المستقلة عنوانًا رئيسًا يقول "مذبحة الكِبار في الأهرام"، راح رئيس مجلس الإدارة ينفي أن شيئًا من هذا قد حدث، بعدها تصاعدت حملات الهجوم عليه، في الصحف وفي برامج التلفزيون، والكل يتعجب كيف يجرؤ من جرى تمكينهم من مسئولية صحيفة عريقة لها قيمتها كالأهرام، على استبعاد كِبار كتابها الذين يشكلون في نظر قارئها، هوية الصحيفة، وارتبط بهم القارئ، عبر عشرات السنين التي أمضوا فيها عمرهم، وصار لكل منهم خلالها قراء ينتظرونهم أيًا كان عددهم.

وأمام تصاعد الحملة التي فضحت فعلتهم، فكروا في طريقة لتهدئتها، والادعاء بأنهم لم يكذبوا حين نفوا، ولتبرير الإجراء الذين اتخذوه.

فماذا فعلوا؟

سأروي ما حدث معي شخصيًا وهو نموذج لما حدث مع غيري من الكُتَّاب.

فى يوم الرابع من نوفمبر ٢٠١٢ نشر مقال عنوانه "توضيح واجب"، يبرر قرار منع كِبار الكُتَّاب.

لكن الحملة لم تتوقف.

وبعدها ببضع ساعات اتصل بي الزميل المسئول عن صفحات الرأي ليقول لي إنه مكلف من رئيسي مجلس الإدارة والتحرير، بإبلاغي قرارهما بعودتي للكتابة.

لكنني فهمت منه أن هذه العودة مقيدة بشروطهم. فهو أبلغني أن المقال سينشر مرة كل أسبوعين وليس أسبوعيًا كما كان متبعًا من قبل. وأن المساحة المسموح بها للمقال ستكون صغيرة، بخلاف المساحة الأكبر التي اعتدت عليها،

عندما كان مقالي يشغل مساحة معروفة في الصفحة العاشرة، وقبل نقله فجأة ودون استئذان الكاتب، لي الصفحة الحادية عشرة.

شعرت من الرسالة بأنها استمرار لتصرفاتهم في التضييق على الكُتَّاب، واستفزازهم، فطلبت منه أن ينقل إلى رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، رفضي للعرض المشروط، ورأيي في تصرفاتهم، بعد أن حدث السطو على الأهرام، وطلبت من الزميل أن ينقل إليهما ردي عليهما حرفيًا وهو: أنتم أولاد صغار، وأنا لا أعترف بكم، ولن أكتب في الأهرام إلا بعد خروجكم منه.

وعلمت بعدها أن عددًا من الزملاء رفضوا هذا العرض، وإن كان البعض الآخر قد قبله.

وبدأت صفحات مقالات الرأي تصبغ، بطابع ليس له بهوية الأهرام صلة من قريب أو بعيد، فقد كان أحد أسباب استبعاد المستبعدين، أنهم أصحاب رأي مستقل، وهذا ليس من شيم الإخوان، حتى ولو لم تكن استقلالية الرأي في خصومة معهم، فهم نشأوا وتربوا ودربوا وتثقفوا، من قياداتهم، على السمع والطاعة، وهذا في حد ذاته يعني الخصومة مع إعمال العقل، وإطلاق سراحه، ليفكر، ويتدبر، ويختار. وتلك ليست عقيدتهم.

هذا أحد الأسباب.

والسبب الثاني ـ بعد الاستبعاد ـ إحلال كوادر إخوانية محل كتاب الرأي في الأهرام، بمقالات تعكس طبيعة أصحابها، من حيث كونهم ليسوا أصحاب رأى، لا يقبلون الاختلاف، ولا يؤمنون بحق الإنسان في أن يكون له رأي نابع من عقله، منغلقون على ذواتهم، يسيطر عليهم اقتناع بتفردهم وتفوقهم ونقائهم! وهو ما سوف أعود إليه في قراءة سريعة لنماذج من كتاباتهم التي احتلت صفحات الرأي في الصحيفة.

فضلاً عما هو مستقر في العمل الصحفي، من أن الكتابة في صفحات الرأي، ليست عملية تسويد سطور، لكنها كانت ـ ومنذ البداية ـ مهمة لا تتاح إلا لمن تأكد نضجه مهنيًا، وامتلك رؤيةً وفكرًا، ويشهد عليه تاريخ مهني ممتد.

عدد كبير من الزملاء كتبوا عما جرى لكِبار الكُتَّاب في الأهرام. كان منهم، أحمد عبد المعطي حجازي في مقال نشره بالمصري اليوم بتاريخ ٢٩/ ٣/ ٢٠١٣. بعنوان: شهادة لم أدلِ بها. وكان كالتالي:

قال:

حتى الآن، لم أدلِ بشهادتي حول ما حدث لي في صحيفة "الأهرام" الغراء، على يد إدارتها الجديدة التي اختارتها جماعة الإخوان المسلمين أو من يمثلونها في أجهزة الدولة المختلفة.

لم أدل بشهادتي حول ما حدث لي؛ لأنه لم يحدث لي وحدي، وإنما كان مذبحة مدبرة لم ينج منها كاتب صاحب رأى، لا في صحيفة «الأهرام» ولا في غيرها، مما يسمى بالصحف القومية، وهي ترجمة غير أمينة للاسم الذي يجب أن نطلقه على هذه الصحف الحكومية، سوى أن أصحاب السلطة فيما قبل الثورة كانوا أكثر ثقة بأنفسهم وأقل طمعًا، ولهذا كانوا يقنعون برئيس تحرير موال يخصص لهم الصفحة الأولى، ويراقب المعارضين ويكبح جماحهم، أما جماعة الإخوان فلا ترضى بأقل من الصحيفة كلها، هكذا فتحت عيني ذات صباح من صباحات نوفمبر الماضي فلم أجد نفسي في الأهرام، ولم أجد من كانوا معي، وإذن لم أجد الأهرام، وإنما وجدت صفحات شاغرة، وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان! الذي حدث في الأهرام حدث في الأخبار وحدث في الجمهورية. وحدث في أجهزة الإعلام الأخرى وفي غيرها من مؤسسات الدولة على اختلافها.

وأنا لم أستغرب ما حدث لي ولزملائي، ولم أره خسارة لحقتني، فالإخوان المسلمون ليسوا أصحاب رأي يؤمنون بالتعدد ويقبلون الخلاف، ولا يسوؤهم أن ترجح كفة خصومهم في بعض الأحيان، وليسوا طلاب حق؛ لأنهم يعتقدون أنهم يملكون الحق كله، فلم يبق إلا أن يملكوا السلطة لا بإرادة الشعب ولا بإقناع الخصم، وإنما بابتزاز الشعب وخداعه ورشوته، وإرهاب الخصم وقهره، فالشعب في نظرهم رعية وليس مصدر السلطات، والخصم في نظرهم عدو دائم لا يملك إلا الباطل، ولا يحارب إلا الحق الذي يمثلونه وحدهم، أو هكذا يتوهمون، مثلهم مثل كل الجماعات الفاشية التي تلعب بالدين والوطنية.

الخميني في إيران لم يجادل خصومه ولم يصحح لهم ما كتبوه وما قالوه، وإنما رصد ملايين الدولارات لمن يغتالهم. وكذلك فعل النميري في السودان والقذافي في ليبيا، وكذلك فعل النازيون في ألمانيا، والفاشيون في إيطاليا.

النازيون بدأوا عهدهم بمحرقة هائلة في برلين، احتفلوا خلالها بإلقاء مؤلفات خصومهم في النار، وسخروا الثقافة في الدعاية، وزجوا بالديمقراطيين والاشتراكيين واليهود في معسكرات الاعتقال.

والفاشيون في إيطاليا اغتالوا خصومهم في الشوارع، ودمروا مقار أحزابهم في المدن والقُرى، وكذلك فعل الإرهابيون في مصر باسم الإسلام خلال العقود الثلاثة الماضية، وكذلك يفعل الإخوان مع المثقفين والإعلاميين والقضاة المصريين، ومع كل القُوى المدافعة عن الديمقراطية، فإرهاب الخصم وقهره واغتياله ماديًا ومعنويًا هو الرد الذي لا تملك هذه الجماعات غيره، وهو سلاحها الذي تتوارثه جيلاً عن جيل.

لهذا لم أستغرب ما حدث لي في «الأهرام»، فأنا خصم من خصوم الإخوان، ليس من يوم وصولهم للسلطة، ولا من يوم اختطافهم للثورة، بل منذ أمسكت بالقلم وأدركت أن الكتابة هي الحرية، فإن فرطنا في حريتنا فرطنا في عقولنا. وحين نفرط في عقولنا نفرط في إنسانيتنا ونصاب بالعمى والخرس والعته والجنون. من هنا كنت خصمًا صريحًا لكل طغيان أيًا كان اسمه، وأيًا كان رسمه.

هذا الموقف الذي اخترته كان له ثمنه الباهظ الذي دفعته دائمًا عن طيب خاطر، اعتقلت في الستينيات وإن لم تطل فترة اعتقالي، وكنت سنوات طويلة ممنوعًا من السفر لا أغادر مصر إلا بتصريح، ثم تعرضت لما هو شر من ذلك حين فصلت من عملي في مؤسسة روز اليوسف مع عشرات غيرى من الصحفيين عام ١٩٧٣، فتحول مرتبي إلى معاش، وهبط من نحو مائة جنيه إلى ثلاثة عشر جنيهًا، وهو الوضع الذي اضطرني للهجرة والإقامة في فرنسا سبعة عشر عامًا متواصلة، اشتغلت خلالها بتدريس الأدب العربي في جامعات باريس حتى عدت

في آخر التسعينيات بعد أن عرض علي السيد إبراهيم نافع العمل في «الأهرام» التي كانت قد فقدت في ذلك الوقت معظم كُتَّابها الكِبار، فلبيت الدعوة وواظبت على الكتابة في الصفحة التي كان يكتبها توفيق الحكيم، وحسين فوزي، وزكي نجيب محمود، ولويس عوض، وهي مسئولية فنية وأخلاقية كان شعوري القوى بها وراء ما كتبته في الدفاع عن العقل، والديمقراطية، والمواطنة، وفي التصدي للطغيان والابتذال والسوقية وخلط الدين بالسياسة، وسواها من الأمراض التي توطنت في مصر خلال العقود الماضية، وهذا ما أزعج الأستاذ نافع الذي قرر أن يسد علي السَّبل ويضيق المساحة، فقسم الصفحة التي كنت أكتبها بيني وبين آخرين، ثم زاد فعين بعض المحررين المستفيدين به رقباء علي.

وبقدر ما كان سخيًا إلى غير حد مع نفسه ومع من يستفيدون به ويستفيد بهم، كان شحيحًا معي، فلم يزد مرتبي الشهري بعد خمسين عامًا قضيتها في الكتابة، منها خمسة وعشرون في «الأهرام» على ثلاثة آلاف جنيه، ضاعفها لي عبد المنعم سعيد بعد أن رأس مجلس الإدارة، حتى استولى الإخوان على السلطة وأرسلوا مندوبيهم إلى الصحف القومية ليؤخونوها، أليسوا هم الحكومة؟ إذن فالصحف الحكومية صحفهم، ونحن في مأدبتهم أيتام لا يحق لنا إلا هذا الفتات الذي عرضوه عليَّ، وهو أن أقنع بألفين وخمسمائة جنيه أو أرحل، وقد فهمت المقصود من هذا التصرف البذيء الذي أساء لمن قاموا به ولم يسئ لي ولا لغيري ممن وجهت لهم هذه الإهانة فتركوا أماكنهم وواصلوا طريقهم كأن لم يحدث شيئًا.

لم يحدث شيء؛ لأن كل شيء كان متوقعًا كما ذكرت، ولأن الذي حدث لي حدث لغيري، فأنا لست المقصود، وإنما المقصود إسكات المعارضين والانفراد بالسلطة، ولقد تركت مكاني في «الأهرام» لأجد بعد ساعات بديلاً عنه ولا أريد أن أقول خيرًا منه، لهذا لم أدل بشهادتي من قبل في هذه الواقعة مكتفيًا ومعتزًا بما كتبه حولها الزملاء الأعزاء «عادل حمودة، وحمدي رزق، وخالد منتصر، ونبيل

عمر، ومكرم محمد أحمد، وجمال الغيطانى».

لكني أدلي بشهادتي الآن لأقول للإخوان الذين يلعبون في هذه الأيام دور الضحايا ويهددون شباب الثورة وزعماء المعارضة وأجهزة الإعلام بالويل والثبور وعظائم الأمور - أقول لهم: لستم ضحايا، بل أنتم دائمًا جُناة، لكنكم تضربوننا وتبكون، وتسبقوننا وتشكون، ولأن اللعبة أصبحت مكشوفة فهي لا تثير الخوف، بل تثير السخرية!

٦ شهور من استهداف الصحفيين وشيطنة الإعلام

وكذلك العرض التفصيلي الذي كتبه في المصري اليوم، خالد السرجاني، الذي استعرض فيه المشهد كما جرى في الصحف العربية، بعنوان: خطة أخونة الصحف القومية بدأت بمعايير مجلس الشورى وانتهت بمذبحة الحريات، وكان العرض كالتالي:

بدأت معركة أخونة الصحف القومية بما عرف بمعركة المعايير عندما أصدرت لجنة الثقافة والإعلام بمجلس الشورى تقريرًا وضعت فيه معايير لاختيار رؤساء التحرير وشكلت لجنة قالت إنها محايدة ومهنية لاختيار رؤساء تحرير جُدُد للإصدارات، وهو الأمر الذي رفضته نقابة الصحفيين، كما رفضته الجماعة الصحفية، ونظمت عدة مظاهرات على سلم النقابة وأمام مجلس الشورى للإعلان عن رفض قيام المجلس بتغيير رؤساء التحرير، وكان منطق النقابة والرافضين هو أن المجلس نفسه مشكوك في شرعيته؛ لأن القانون الذي انتخب على أساسه صدر قرار من المحكمة الدستورية العليا بعدم دستوريته، وكانت هناك دعاوٍ أمام مجلس الدولة تطالب بحل مجلس الشورى، أحيل بعضها إلى الدستورية العليا.

إضافة إلى ذلك فإن الرافضين رأوا أن الدستور الجديد سوف ينظم الإعلام ويعيد هيكلة المنظومة الإعلامية بما فيها ملكية المؤسسات الصحفية القومية، وبالتالي ليس هناك مجال للاستعجال في تعيين رؤساء للتحرير، ثم يعاد النظر

في شرعية وجودهم بعد أشهر قليلة الأمر الذي يسبب عدم الاستقرار في المؤسسات الصحفية القومية، وبعضها كان قد بدأ يستعيد جزءًا من مصداقيته المفقودة في عهد النظام السابق.

لكن مجلس الشورى أصر على موقفه الأمر الذي أكد أن هناك نية مبيته للسيطرة على الإعلام القومي من قِبَل الحزب الذي يسيطر على أغلبية مجلس الشورى، وتم تعيين رؤساء تحرير جدد للإصدارات القومية.

وإذا كان المجلس وضع معايير للاختيار، وزعم أن من قام بالاختيار لجنة محايدة تضم ٨ من خبراء الإعلام وشيوخ المهنة و٦ فقط من أعضاء مجلس الشورى، وبالتالي فإن عملية الاختيار بعدت عن الأهواء السياسية والتربيطات الشخصية، فإن المعلوم هو أن اختيارات اللجنة لم يؤخذ بها، وهناك مرشحون استبعدتهم، ولكن هناك لجنة أخرى موازية قررت اختيارهم، والمعايير نفسها لم يعمل بها.

ومع تعيين رؤساء التحرير الجُدُد بدأ العصف بالحريات داخل الإصدارات الصحفية القومية، وشهدت بعضها مذبحة للحريات، وتم إلغاء التنوع من معظم هذه الصحف على النحو الذي رصده تقرير لشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان. فقد منع مقال الروائي يوسف القعيد «لا سمع ولا طاعة»، يوم السبت ١١ أغسطس ٢٠١٢ من النشر بصحيفة «الأخبار»؛ حيث كان المقال يتضمن انتقادات لجماعة الإخوان المسلمين، وذلك على خلفية الاعتداءات التي تعرض لها بعض الإعلاميين بمدينة الإنتاج الإعلامي.

كما تم منع مقال الكاتبة الصحفية عبلة الرويني، رئيس تحرير «أخبار الأدب» التي طالتها حملة التغيير في التعيينات بعد عام ونصف العام من رئاستها تحرير أخبار الأدب بسبب اعتراضها على حذف كلمة «أخونة الصحافة» في إشارة منها إلى حركة التغييرات الصحفية التي أجراها مجلس الشورى يوم الأربعاء ٨ أغسطس، وقد ذكرت أنها بعد امتناعها عن الكتابة يوم ٩ أغسطس، استجابة لدعوة امتناع كتاب الرأي التي أطلقها رؤساء التحرير مساء يوم الأربعاء ٨

أغسطس ٢٠١٢، سلمت مقالها الذي تكتبه تحت عنوان «نهار» الذى كانت تشير فيه إلى سبب احتجابها وامتناعها عن الكتابة ٩ أغسطس، إلا أنها فوجئت بالمشرفين على الصفحة التي ينشر بها المقال يقولون إن الأوضاع تغيرت وإن ما كان يسمح به الثلاثاء لا يمكن أن يتم السماح به اليوم، وتم أيضًا منع المقال الأسبوعي للروائي إبراهيم عبد المجيد من جريدة «الأخبار» وذلك يوم ٩ أغسطس ٢٠١٢ والمقال الأسبوعي للكاتب والسيناريست مدحت العدل بعد امتناعه عن كتابة مقاله الأسبوعي بجريدة «الأخبار» احتجاجًا على تعيينات مجلس الشورى الأخيرة وتضامنًا مع الكتاب الممتنعين عن الكتابة، وكان مقاله بعنوان «سيادة الرئيس... مصر أم الجماعة؟!» المقال عبارة عن رسالة للرئيس مرسي طالبه فيها بخلع عباءة الإخوان المسلمين إذا أراد أن يحكم مصر، وتم أيضًا منع نشر مقال الكاتب والمحامي ثروت الخرباوي، القيادي الإخواني، السابق، الذي كان يتناول الدولة المدنية في الإسلام بعنوان «ليت الذين يحكموننا يفهمون»، وجاء قرار منع نشره دون إبداء أي أسباب واضحة تذكر للكاتب الذي تم الاتفاق معه منذ فترة على كتابة مقال أسبوعي ينشر صباح كل خميس في جريدة «الأهرام».

وتم إلغاء صفحة آراء حرة بجريدة «الأخبار» يوم ١٥ أغسطس، التي يكتب بها كتاب من خارج مؤسسة «الأخبار» مثل: إبراهيم عبد المجيد، ومدحت العدل، ومحمود الورداني، وغيرهم من كِبار الكُتَّاب والمفكرين والمبدعين، وتم استبقاء كاتب واحد من بين كل الكُتَّاب هو بدر محمد بدر المنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين. وبعد ذلك تم التضييق على نقيب الصحفيين الأسبق جلال عارف حتى ترك الكتابة في بيته، وانتقل إلى جريدة التحرير، ثم منع مقال أحمد طه النقر المتحدث باسم الجمعية الوطنية للتغيير، وفي آخر ساعة تم إيقاف مقالات عدة كُتَّاب في مقدمتهم سلمى قاسم جودة، ومنى ثابت.

وفي جريدة «الجمهورية» تم منع مقال الكاتبة غادة نبيل من النشر بعنوان «الحرية والعدالة... كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان». الذي وجهت من خلاله الانتقادات لحزب الحرية والعدالة، بصفة خاصة، وتيار الإسلام

السياسي بصفة عامة، بعد منع نشر مقالات عدد من الكُتَّاب والصحفيين في الصحف القومية، وتم إلغاء الصفحة الثقافية بجريدة «الجمهورية» التي كانت تشرف عليها، بسبب المقال المشار إليه، وقال رئيس تحرير «الجمهورية» السابق جمال عبد الرحيم إن الصفحة سوف تعود بعد تطويرها، مهاجمًا غادة نبيل وطالب بعودتها لقسم الترجمة بالجريدة! ولكن جمال نفسه أطيح به من منصبه وحصل على عدة أحكام قضائية بالعودة لكنها لم تنفذ.

ومنع الكاتب الصحفي عبد الجليل الشرنوبي منسق «جبهة الإبداع المصري»، من الكتابة بالصفحة السياسية بمجلة الإذاعة والتليفزيون بسبب آرائه، وذكر الشرنوبي أن إدارة تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون طلبت منه عدم الكتابة في قسم السياسة، لأن إدارة المجلة لا تستطيع أن تتحمل تبعات معارضته للنظام الحاكم، خصوصًا في ظل تبعية وزارة الإعلام لوزير ينتمي إلى الإخوان، وأنه مضطر للكتابة في قسم الفن فقط، وتم إيقاف نشر باقي حلقات كتاب عائد من جنة الإخوان للكاتب الشاب سامح فايز في مجلة المصور، الذي يحكي عن قصة فايز مع جماعة الإخوان المسلمين، وكانت المجلة قد نشرت خمس حلقات بعد اتفاق مع الصحفي حمدي رزق رئيس تحرير المجلة السابق.

وتم استبعاد الكاتب إبراهيم حجازي من كتابة مقاله الأسبوعي في عدد الجمعة بجريدة «الأهرام» الذي يداوم على كتابته منذ ٢٢ عامًا، وذلك بعد طلب رئيس التحرير منه تقليص المساحة المخصصة لمقاله إلى نصف المساحة، وبعد رفض إبراهيم حجازي هذا الطلب، نشر العدد مع اعتذاره عن الكتابة في العدد دون إشارة لعودته للكتابة في الأسبوع التالي، كما تم التضييق على أحمد عبد المعطي حجازي وصلاح فضل وعاطف الغمري، الأمر الذي دفعهم إلى الهجرة للكتابة في صحف أخرى، وتم وقف مقالات نبيل عمر ونبيل عبد الفتاح إلا أن الأخير عاد للكتابة مرة كل أسبوعين بدلاً من الكتابة الأسبوعية، وتم نقل كتاب من صفحة الرأي بـ «الأهرام» إلى الملحق الثقافي وهم مكاوي سعيد وحسن طلب وإبراهيم فتحي وعبد المنعم رمضان، ثم تم رفع مقالاتهم من الملحق بعد

ذلك. وبعد ذلك توقف أسامة الغزالي حرب عن الكتابة طوعًا؛ لأنه رأى أن الإطار الذي يكتب فيه ليس مناسبًا بسبب انحياز الأهرام إلى الإخوان، والتيارات السلفية.

وهذا التفريغ من الكتاب الذي يعكس التنوع الفكري في المجتمع، كان بهدف إخلاء الساحة لتيار واحد وهو الإخوان المسلمين حيث أصبحوا الكُتَّاب المسيطرين على صفحات الرأي في جريدة «الأهرام» بغض النظر عن مهاراتهم أو مؤهلاتهم. وتم توزيع كتاب الإخوان على أيام الأسبوع في جريدة «الأهرام» التي كانت صفحات الرأي فيها تعج بكِبار الكُتَّاب من لطفي الخولى وحسين مؤنس ومحمد سيد أحمد وزكي نجيب محمود ونجيب محفوظ ولويس عوض ويوسف جوهر وتوفيق الحكيم وحسين فوزي وغيرهم، ليصبح كِبار الكُتَّاب هم: ياسر علي، المتحدث باسم رئيس الجمهورية الذي ظهرت عليه أعراض الكتابة بعد تولى منصبه ويكتب في «الأهرام» كل سبت، وحازم غراب، مدير قناة «مصر ٢٥» الإخوانية، التي فشلت في استقطاب المشاهدين ويفكر الإخوان في تأسيس قناة بديلة لها، ويبدو أنهم سكّنوا مديرها في مكان يليق به تحسبًا لتأسيس القناة الجديدة، ويكتب في «الأهرام» كل ثلاثاء. إضافة لهؤلاء هناك بدر محمد بدر ويكتب كل أحد، وجمال حشمت ويكتب كل أربعاء، ومعه الكادر الإخواني الدكتور إبراهيم بيومي غانم، أما يوم الخميس فقد تخلص «الأهرام» من الكاتب الكبير نبيل عبد الفتاح في البداية وأخلى مكانة للكادر الإخواني حلمي الجزار.

خطة طمس هوية الصحيفة

كان ما جرى في الأهرام، وما جرى له، استكمالاً لموجة من الهجوم الذي تنطق عباراته بكراهية حادة للصحافة والإعلام، ولحرية التعبير، وهو ما كانت الكلمة المكتوبة على طول التاريخ، وهي وسيلته وأداته، ولاح للمؤمنين بحرية الرأي، وبدور الكلمة المستقلة، إن ما يجري يرسم صورة معاصرة لوقائع سبقت أن حطت بثقلها الكئيب على الناس، في عصور متعددة، وإن اختلفت الهجمة، مع اختلاف الزمن والعصر ومقتضياته - وتطورها من إحراق وإغراق الكتب في مياه الأنهار،

والمصادرة التامة على حرية التعبير، إلى التضييق والاستبعاد، وطمس هوية منابر أسهمت على طول التاريخ في الإعلاء من شأن حرية الرأي، والتعددية، وحق الاختلاف.

لاحت في الأذهان صورة التتار الذين اكتسحوا البلاد العربية في القرن الثالث عشر، وإعدامهم الكتب، إحراقًا بالنار وإغراقًا في الأنهار.

ومشهد النازي ومحرقة المؤلفات في برلين يوم ١٠ مايو ١٩٣٣.

وتتابع المشهد بصورة متطورة في ممارسات الأنظمة الشمولية، بالحجر على حرية الرأي وتعدديته، وتسخير الإعلام في دعاية فجه بلا روح، للنظام الحاكم.

وتتجسد الصورة، بشكل درامي رمزي، في رواية "فهر نهيت ٤٥١" للكاتب الأمريكي راى براد برى، الصادرة عام ١٩٥٣، التي لم يبدعها مؤلفها من وحي خياله، لكنه استوحاها من وقائع تاريخية تعرضت فيها المؤلفات للقمع والحرق والمصادرة، والتضييق. وكأن الكلمة في نظر من يقمعها، عدو لا يطيق وجوده.

وتحولت الرواية عام ١٩٦٦ إلى فيلم سينمائي، ويحكي الفيلم والرواية عن تصاعد موجة من الانتقادات للكتب وما تحويه من أفكار تتعرض لأصحاب مصالح يسيطرون على الدولة والمجتمع، ولجأت السلطة إلى تشديد الرقابة، والضغط على المؤلفين للتوقف عن الكتابة، ولم تفلح الخطة، فصدرت الأوامر بتجهيز حملة لتفتيش البيوت بحثًا عن الكتب، وإحراقها، وتتطور الأحداث إلى أن يكتشف النظام الحاكم، إن هناك من قرأوا الكتب وخزنوها في عقولهم وذاكرتهم، وبقيت العقول والذاكرة حيه لا تخترق ولا تموت.

تراءت لعيني كل هذه الصور على اختلافها مع اختلاف الأزمان التي وقعت فيها، ونحن نتحسر على ما فعلوه بالأهرام.

راح الأهرام يفقد على أيديهم الكثير من ملامح شخصيته المتفردة، التي شكّلت عبر أجيال من أبنائه، المرتبطين به عقلاً وانتماءً، لكل منهم كان يضيف لبنة، ليعلو الصرح، علوًا معنويًا، وينتشر اسم الأهرام في العالم المتقدم نموذجًا للمهنية الوطنية. وبدت الجريدة في عين قارئها، مطبوعة تخالف ما ألفه منها. وهو ما كان قد أوجد بينه وبينها رباطًا وثيقًا، لا يرضى له أن ينفك أو يهترئ.

وبخلاف طريقة تحرير الخبر، ونوعية الحوارات التي تجرى مع أناس، تحتشد بكلام يجافى العقل والمنطق في بعض الأحيان، ويعبر عن توجه أيديولوجي ضيق الأفق في أحيان أخرى، فقد حفلت صفحات الرأي بكتابات تخلو من المهنية، وجاءت معبأة بالهجوم على الصحافة ذاتها وفى الصحيفة نفسها التي احتلوا صفحاتها، والمثير للتأمل أن منهم من كان يتحدث بكلام عن المهنية التي ادعى عن غفلة أن الصحفيين (أهل المهنة) ليسوا على معرفة بها.

وهذه مقتطفات مما نشره لهم الأهرام، وكله هجوم عدائي ضد الصحافة التي احتلوا صفحاتها:

- ما وصفه أحدهم بوسائل التضليل الإعلامي... وقوله: أصبحت قراءة الصحف في الصباح أو مشاهدة برامج التليفزيون في المساء والسهرة، ترفع معدل الضغط العصبي... وارتاح كثير من المواطنين الشرفاء إلى مقاطعة الصحف، أو عدم مشاهدة برامج التوك شو.

- وسائل التضليل الإعلامي الذي يمارسه أناس بلا ضمير.

- إن نسبة كبيرة من المهنيين على منابر الصحافة والإعلام في مصر، يكرهون الكلمة الطيبة التي تبني وتوحد وتجمع، بقدر ما يعشقون الكلمة الخبيثة التي تهدم وتفرق وتثير الفتن، وإطلاق حرية الإعلام بالنسبة إلى هؤلاء لا يختلف في خطورته عن إطلاق حرية امتلاك الأسلحة النارية في الولايات المتحدة.

- استشعر منذ خلع مبارك، خطورة الدور الخبيث الذي تلعبه وسائط الإعلام في مصر، وحاولت مرارًا التحذير من مغبة السكوت على جرائمها.

- في بلادنا كانت الواجهة الثقافية على مدى ستين عامًا مضت، لنفر من الكتاب آثروا الانحياز للطاغية، أيًا كان اسمه وإمكانياته؛ تشجيعًا له على قهر الشعب.

- بعد يوليو ١٩٥٢ كانت النواة الصلبة للواجهة لم تزل قوية إلى حد ما، لكنها بدأت تتفتت مع عقد الستينيات "اللعين"!

- إن الجماعة المهيمنة على الإعلام المصري وبالذات في بعض الصحف والفضائيات الخاصة، أثبتت عدم أهليتها لإدارة هذه المنابر الإعلامية، وإنه لا مفر من إخضاع هذه المنابر لسلطة نُوَّاب الشعب في مجلس الشيوخ المقبل، هذه رسالتي إلى الجمعية التأسيسية.

- ووصف أحد قادتهم العاملين بالصحف ووسائل الإعلام بالنصابين، الذين يروجون للأكاذيب والشائعات لصالح تحالف الشر والكفر!

- وكانت كلماتهم تتناقض مع نفسها، تقدم الشيء ونقيضه في مقالة واحدة. مثلما كتب أحدهم: الأخونة مصطلح اخترعه بعض الكُتَّاب العلمانيين، وجنود الثورة المضادة، ألحوا به على أسماع الناس ليل نهار، ثم يقول في نهاية مقاله: وعلى كتبة العهد البائد، ودعاة الثورة المضادة أن يكفوا عن حديث الأخونة؛ لأنها لم تحدث بعد، وهي آتية بإذن الله، ثم بإرادة هذا الشعب الحر.

وهو هنا ينفي أن هناك أخونة أصلاً، ثم يعود ليقول إنها آتية.

وإلى جانب هذا، كانت المقالات الرئيسة معبأة بالتساؤل الصاخب لكل فعل يقدم عليه رئيس الدولة الإخواني، والهجوم الحاد على المعارضة، وفي إهدار لقيمة الأهرام كصحيفة قومية، وبصرف النظر عن مقالات رؤساء تحرير في العهد السابق، فقد كانت صفحات الرأي بالأهرام، تزدان بمقالات لبعض كِبار كُتَّابها، الذين عارضوا بقوه سياسات النظام وقتها، وكل ذلك محفوظ ومسجل على صفحات الأهرام عبر سنوات طويلة.

حرية الرأي روح الصحافة

ومعنى وجودها

لقد بدأت الحملة منذ إطلاق إشارة البدء من المرشد، بعبارته "سحرة فرعون" التي وصف بها الصحفيين، ثم أخذ ترديد العبارة نفسها يتكرر بنفس نصها على ألسنة آخرين من بعده، وكأنهم كانوا ينتظرون منه الإشارة، أو إنهم تم حفظهم لها، من بعده.

إن الصحافة ليست كيانًا يعبر عن العاملين فيها، فهي وسيلة تعبير عن الرأي العام... عند القارئ الذي يشتري الصحيفة صباحًا؛ ليجد فيها ما كان قد شغله في اللحظة نفسها، فإذا لم يجده على صفحاتها، فهو يعرض عنها، وتتقطع صلته الروحية والمعنوية بها. ولن تكون الصحافة على هذه الصورة، إذا لم تكن متسقة مع ذاتها، ومع الجدوى من وجودها أصلاً، منبرًا ينطق بالرأي الحر، مراقبًا لما يجري في الدولة، منتقدًا بدافع النهوض بها، وحمايتها من الزلل، وتنبيه من يحكم لأي أخطاء، حتى يتداركها قبل استفحال نتائجها، وتنويره لمعرفة أفكار ووسائل، من شأنها دعم سياساته، وتبقى حرية التعبير، والرأي المستقل، هي روح الصحافة، وقيمتها، ومعنى وجودها.

ومن المفارقات المثيرة للتأمل فيما يقولونه وما يفعلونه إن قادتهم والمتحدثين باسمهم يكررون في عبارات تبدو وكأنهم حفظوها عن ظهر قلب الادعاء، بأنهم مع حرية الصحافة والإعلام، وإن الدولة تضمن حرية التعبير، في صدام صريح مع ما يفعلونه في الواقع.

وقد رصدت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، عدد البلاغات التي رفعت ضد الصحفيين والإعلام، وتبعها استدعاء النيابة للمشكو في حقهم، والتحقيق معهم، بأنها بلغت ٦٠٠ بلاغ منذ تولى الرئيس المعزول محمد مرسي في يونيو ٢٠١٢. وحتى إبريل ٢٠١٣، وتنوعت الاتهامات بين إهانة الرئيس، وتكدير السلم العام، وازدراء الإسلام، بينما كل ما فعله الصحفيون الإعلام، لا يخرج عن حدود النقد للسياسات، والسلبيات، لكن هذه الهجمة القاسية على حرية الرأي، كان هدفها إسكات صوت من ينتقد، بالترويع والتخويف، والضغط، والقضاء على حرية التعبير، وفرض الوصاية على المجتمع، وهو نهج يتسق تمامًا مع مجموعات تربت على خاصية السمع والطاعة، والحجر على حرية العقل في التفكير والاختيار.

قد تبدو هذه الممارسات وكأنها تستهدف رجال الصحافة والإعلام، لكنها تتوجه في الحقيقة نحو المواطن، الذي يفتقد رؤية الأمور على حقيقتها، والقدرة

على اتخاذ موقف ينبني على اقتناعه العقلي، حين تمنع عنه المعلومات، وعرضها عليه كاملة دون تزييف، وتحليلها، واستدعاء خبراء مختصين للتعليق عليها؛ لأنه حين تغلق في وجهه هذه النافذة، يصبح رهين توجه استبدادي لا هم له سوى السطو على عقله، ومصادرة حقه في العيش في وطن ينعم بالحرية.

مشروع خصخصة الإسلام!

ترتبط هذه العقليات بمشكلة مرجعها أصلاً إلى تركيبة تنظيم الإخوان وانغلاق أعضائه تنظيميًا وتثقيفيًا داخل حدود الجماعة، قبل الوطن، وهو فهم يهمش في عقيدتهم، هو يتهم الوطنية؛ لتذوب في هوية أوسع، تجمعهم مع منتمين إلى الجماعة من جنسيات أخرى، منتشرون في أكثر من دولة، ومن ثم يصبح الوطن عندهم وسيلة لبلوغ غايات تتجاوز حدود هذا الوطن وترابه.

وتجدهم لا يكفون عن وصف معارضي سياسات نظام حكمهم بأنهم معادون للمشروع الإسلامي، في خلط واضح بين الجماعة وبين الإسلام، فهم قد أطلقوا على أنفسهم وصف الإسلاميين، مع أن الأصل في مصر وفي غير مصر، إن الناس مسلمون لكنه تعبير يتيح لمجموعة محدودة العدد وصف نفسها بأنها القائمة على أمر الإسلام، والمحتكرة لفهمه، مع أن ما يسمعه الناس عن مشروعهم، وهو مجرد كلام، بلا تفاصيل، أو خطة واضحة لهذا المشروع - وكيفية وضعه موضع التطبيق.

وإذا كان مشروعهم كما يردد عدد من أقطابهم، هو دولة الخلافة، وأن تكون مصر جزءًا منه، فإن التمسك بمقولة سبق أن قيلت قبل عشرات السنين، يجمد القدرة على التفكير الخلاق في إنجاز مشروع، طالما أن هذا التفكير قد عزل نفسه عن التجارب الإنسانية في تحقيق التقدم والنهضة، فالفكر السياسي والإنساني هو ابن زمنه المتغير والمتطور دائمًا، ومن هنا يأتي ما تشهده الدول من نماذج، بعضها يحقق نجاحًا مبهرًا، وبعضها صار يوصم بوصف الدولة الفاشلة.

ولما كان الوطن في طريقة تفكيرهم هو الوسيلة، لهذا جاءت كلمات المرشد السابق "طظ في مصر"، متسقة تمامًا مع هذا النوع من التفكير، ويتماشى معها قول أحد قادتهم "نحن الآن على أعتاب فتح مصر"، وكأن مصر التي فتحها عمرو بن العاص لم تكن على هواهم، وحديث الآخر عن دولة خلافة تكون عاصمتها القدس، وليست مصر، التي كرمها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. وهي البلد الوحيد الذي تجلى فيه الله سبحانه وتعالى على نبيه موسى، دون بلاد الدنيا قاطبة... مصر التي ذكرها الله سبحانه وتعالى اسمًا خمس مرات في كتابه الكريم، وذكرت وصفًا ٢٨ مرة.

وما نطق به أحدهم عقب حادث اعتداء عليه، "اللهم توفني على الإخوان، ولم يقل على الإسلام!" وعاد زميل له يكرر المقولة نفسها في جلسة محاكمته بعد ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

هذا النمط من التفكير أساسه الانتماء إلى جماعة أيديولوجية، تتحرك في إطار أوسع منها، وتعيش في عالم افتراضي، خارج الواقع الزمنى والاجتماعي والتاريخي، وهو إطار متعدد الجنسيات، يتمحور حول الأفكار نفسها، لهذا فإن خصائص الشخصية القومية للمصريين، التي كونت الهوية المصرية، عبر آلاف السنين، تمثل في نظرهم عقبة في طريق مشروعهم المتخيل والمتوهم. ثم إن من يتحدثون عن دولة الخلافة يعيشون خارج التاريخ؛ لأن أدوات وأسباب قيامها ليست ممكنة الآن، فالعالم الذي تداخل في بعض بفعل وسائل ثورة المعلومات، يختلف عن العالم القديم، والبقاء فيه لمن يملك عقلاً يفكر ويبدع.

كل هذا يضعنا أمام ظاهرة التخبط المريب في إدارتهم للدولة، الذي كان يبدو في كثير من الأحيان، وكأنه يدفع بالدولة إلى حافة الانهيار.

هنا يقفز السؤال: هل السبب يرجع إلى أنهم محدودو الكفاءة، أمضوا عمرهم متقوقعين داخل محبسهم النفسي الاضطراري، وقاية لهم من اضطهاد ومطاردة أنظمة الحكم، فلم يطلقوا عقولهم إلى ما وراء أسوار محبسهم، ليثقفوا أنفسهم، ويتفاعلوا مع ما يجري في الدنيا الواسعة من أفكار وتجارب وتطور؟ وبالتالي

قصرت نظرتهم إلى الأمور؟ فلم يظهر منهم صاحب فكر إنساني أو إبداع خلاق، حتى لقد صار ما يصدر عنهم عبارات تدور بذاتها وبنصها على كل الألسنة؟!

سوف أنحي هذه الافتراضات جانبًا؛ لأننا لو سلمنا بأن ذلك كله صحيح، فإن هناك شيئًا لا يغيب عن فطنة أي مواطن، حتى ولو كان متوسط الذكاء، ومحدود القدرات، وبلا خبرة في شئون الحكم والإدارة، هذا الشيء شائع بين المصريين في المثل الدارج "إدي العيش لخبازه"، لكن ما رأيناه أنهم استبعدوا أهل الخبرة والعلم والتخصص، وعهدوا بإدارة الدولة إلى أهل ثقتهم حملة نفس طريقة التفكير، وأخذ التدهور يتوالى تحت أنظارهم في الحياة المعيشية اليومية، وفي التعليم، والصحة، والأمن، والمواصلات، وغيرها، ولم تسلم من اتهاماتهم المسيئة للمؤسسات التي لا تقوم لأي دولة قائمة بدونها وهي: الجيش، والشرطة، والقضاء، والصحافة، والإعلام، حتى من كان منها في حاجة لإعادة هيكلته، وضبط مساره المهني، فإن النظام الذي يملك زمام السلطة، التي تسمح له بأن يفعل ذلك، وقف متفرجًا أحيانًا، شاكيًا أو محتارًا في أحيان أخرى.

ولو أننا تساءلنا عن الجانبين الذين أشرت إليهما وهما: هل العلة في نقص الكفاءة، أم الرغبة في هدم الدولة؟! وبدأنا بالجانب الأول وهو وقف التدهور في الأوضاع، والارتقاء بالأداء التنفيذي، فالمنطق يقول إنه مع تسارع الفشل، دون وجود بارقة أمل في قدره على تحقيق النجاح، فإن العقل والمنطق يدعوان النظام إلى أن يضع خاتمة لدور حكومة أثبتت فشلها وعجزها عن حل المشاكلات، وأن يكلف شخصية مستقلة، لديها فكر سياسي، ورؤية إستراتيجية، وارتباط بالثورة التي أسقطت النظام السابق، وأن يتم اختيار الوزراء من أهل العلم والخبرة والتخصص، والتمتع بالقدرة على إطلاق الخيال، لابتداع سياسات غير تقليدية، للتعامل مع مشكلات ليست هي الأخرى تقليدية.

ويتكرر السؤال لماذا كان هذا العناد، بالإبقاء على حكومة عاجزة، مرفوضة جماهيريًا؟

ويتعلق الجانب الثاني من السؤال ـ بالضربات الموجهة لمؤسسات الدولة، وبعد

أن طالت حملات الهجوم من قيادات الإخوان وحلفائهم، جميع المؤسسات، بدءًا من الجيش، إلى الشرطة، والقضاء، والصحافة والإعلام، وبينما يحدث ذلك، تجدهم لا يكفون عن إعلان احترامهم وتقديرهم ادعاء لكل هذه المؤسسات، في سلوك ينفصل فيه القول عن الفعل، وفى ازدواجية غريبة ومريبة.

وتتوالى التساؤلات: هل المقصود هو هدم الدولة - الوطن، لإعادة صياغة هوية الدولة، بمواصفاتهم التي تحمل نظرة تخصهم لماهية الوطن، والهوية؟!.

هم ـ أصلاً ـ لا يؤمنون بفكرة الوطن. كما تشهد على ذلك أقوالهم، وترويجهم الأيديولوجي لفكرة الدولة عابرة الحدود، التي تضم خليطًا من جنسيات مختلفة، ولا مانع عندهم من أن يكون رئيسها من بلد غير مصر كما صرح بذلك مرشدهم السابق.

وهو شيء يماثل تفكير الأنظمة المحكومة بأيديولوجية سياسية، يذكرنا ذلك بما كان قد أعلنه الزعيم السوفيتي خروشوف عندما زار مصر في أوائل الستينيات، يومها ألقى خطابًا وجه فيه كلامه للعمال والفلاحين المصريين، وقال: إن العمال والفلاحين السوفييت أقرب إليكم من البرجوازيين في مصر، وهو تصريح أثار استياءً واستنكارًا كبيرين في مصر كلها، لما فيه من استفزاز للروح الوطنية.

بل يصل تفكيرهم إلى أبعد من ذلك، حين تصدر عن قادتهم تصريحات توحي وكأنهم يعتبرون جماعتهم (الإخوان)، دينًا أكثر من كونها تنظيم. وأقرب مثل على ذلك ما أشرت إليه من قول لاثنين من قادتهم. "أسأل الله أن يتوفني على الإخوان"، ولم يقل على الإسلام، وما قال أحدهم في مناسبة أخرى "تخيل لو لم يحكم الإخوان؟ كان زماننا ـ الآن ـ هو رحم الله الإسلام، ولو لم يقم حسن البنا بهذا الواجب لكنا أمة أثمة الآن".

هذه طبيعة شخوص الأنظمة الأيديولوجية التي تنعزل بتفكيرها عن الواقع، والعصر والزمن، فيصاب تفكيرهم بالضمور إلى الحد الذي يجعلهم لا يرون في الدنيا غير أنفسهم.

إن عالم الإخوان السري، قد بدأت أجزاء منه تخرج إلى العلن، كشفها في كتب ودراسات، قيادات وأعضاء في الجماعة انسحبوا من التنظيم، بعد أن تمردوا على سلب الجماعة حقهم في التفكير وإعمال العقل ويقينهم، إنها تقودهم إلى خصومة مع الوطن، وإن ما يلقنوهم إياه من أفكار ليس من الإسلام في شيء.

أشهر هذه المؤلفات كتاب الدكتور ثروت الخرباوي "سر العبد"، ويقول فيه: مرت سنوات وأنا في قلب الإخوان، رأيت أفكارًا ترتفع، وأفكارًا تتهاوى، شخصيات حملت الجماعة وشخصيات حملتها الجماعة، كان في ظني أن التنظيم ما هو إلا وسيلة لتوجيه طاقات الفرد الإبداعية، وتنميتها، فإذا به وسيلة لتكبيل الفرد في سلسلة بشرية، أشبه ما تكون بسلسلة العبيد التي كانت تحمل إلى أمريكا من بداية القرن السادس عشر.

ويتساءل: هل يدرك الإنسان حجم المأساة التي تنتج عن تفريطه في حريته؟ لا شك أنه قد لا يدرك عمق المأساة وقت التفريط في الحرية، ولكنه قد يعرف فداحة فعله بعد حين، وقد يظل عمره كله جاهلاً ما وقع فيه.

من بين الكتابات التي لا تختلف عن بعضها ما ورد في كتاب. جنة الإخوان: رحلة الخروج من الجماعة. لمؤلفه سامح فايز، وكتاب "اختطاف ثورة: آخر العمليات الفاشلة للتنظيم السري"، للقيادي الإخواني لسنوات طويلة عبد الستار المليجي؟ وكتابه السابق "تجربتي مع الإخوان: من الدعوة إلى التنظيم السري" وأيضًا دراسة الدكتور محمود خليل بعنوان: ٨ أعوام في بيت العنكبوت.

وعلى حين يشرح سامح فايز كيف يربي الإخوان شبابهم حتى يصلوا إلى مرحلة السمع والطاعة، التي تلغي العقل تمامًا، وتعتبر التفكير جريمة، وإن العضو لا ينضم إلى الإخوان، وإنما هم يختارونه، وعندما يختارونه تفرض عليه عزله اجتماعية، وتلغي ذاته الفردية، وهو الأمر الذي يقتل أي إبداع أو قدرة على التفكير فهم يخلقون لك عالمك الخاص والعام.

وفي دراسته يقول الدكتور محمود خليل الذي انضم إليهم صغيرًا وهو في مرحلة الدراسة الثانوية... المرحلة العمرية التي تقع بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، هي المرحلة الأطوع للوقوع في حبائل عنكبوت الإخوان، ويقول: أدركت بعد

انخراطي في صفوف الإخوان، توحد الأساليب، وتشابه الطقوس، بين كل الإسلاميين الباحثين للملمة المصريين في جماعة تخدم أهدافًا خاصة بهم. فالمسألة تبدأ بتأليف القلوب ببعض الأشياء الصغيرة، التي تمتع النفس، وتخلق طقسًا خاصًا يشد المجموع في رباط واحد، لنبدأ في الذوبان في القطيع.

الصحافة والرئيس بعد ثورة ٢٥ يناير
ولغة خطاب مضاد للصحافة والإعلام

لماذا تعقدت العلاقة بين الصحافة والإعلام، وبين الرئيس، إلى هذه الدرجة التي دفعت إلى تكرار التصريحات الشاكية من الصحافة والإعلام، وكأنهما يقفان على جبهة الأعداء... بينما الصحافة في دول العالم، تعامل الآن كشريك في صناعة القرار السياسي، سواء يطرح الأفكار والمقترحات، أو بالتنبيه إلى مواقف قد يتعثر فيها الحكم، وبعد أن أصبحت الدول الحديثة تعتبر المعارضة، الركن المكمل للديموقراطية، وإن الإعلام هو جهة المراقبة للحكم وإرشاده.

لقد بدأ نظام الحكم الإخواني، بالرقابة الخشنة على الصحافة القومية، باستبعاد رؤساء مجالس إدارتها، ورؤساء تحريرها، واختيار بدائل عنهم، بعضهم عضو فعلي في الإخوان، والبعض الآخر من النوعية القابلة لطاعة التعليمات، وأحيانًا المزايدة عليها، بإظهار الولاء المتأخون، وشهدنا ذلك في قراراتهم بمنع النشر لكتاب ومفكرين كِبار، والتضييق عليهم، كما شهدناه في جلب كوادر إخوانية لتسويد صفحات الجريدة، بالبروباجاندا الأيديولوجية الخالية من أي فكر ناضج، المجردة من الخبرة المهنية، أو امتلاك رؤية إنسانية، أوسع مدى من حدود الزاوية الضيقة في النظر إلى الأمور، والتحدث عن كل من ينتقد على أنه متآمر عليهم.

إن النظام الإخواني كان قد وصل إلى الحكم، إثر ثورة جماهيرية، لعبث الصحافة والإعلام دورًا في تهيئة الناس للثورة، على الرغم من جملة لا تفارق ألسنتهم كلما ترددت على آذانهم أصوات تنتقد ممارساتهم، وهي: هل كانوا

يجرءون على رفع أصواتهم أيام النظام السابق؟ ... ولو أنهم أجهدوا عقولهم قليلاً ورجعوا إلى ما كان ينشر لوجدوا أن من بين من لا يرضون عنهم الآن، من كانت لهم مقالات في الصحف، وكتب منشورة، وأقوال في برامج تليفزيونية، تنتقد، وتهاجم، وتدعو إلى الإصلاح والتغيير، وإذا كان هؤلاء ما زالوا ينتقدون، ويهاجمون، ويدعون إلى الإصلاح والتغيير، فلأن كل منهم منسجم مع ذاته، ليس بدافع العداء للنظام، وإنما بدافع الحرص على الوطن، وقول كلمة الحق.

لكنهم كانوا يتعاملون مع الصحافة والإعلام، وكأنها حزب سياسي، دخل طرفًا في صراع معهم، بينما الصحافة منذ نشأت، هي كيان ينتمي إلى المجتمع ككل وبشكل عام، ولهذا حافظ هذا الكيان على استقلالية، وكانت حرية الرأي هي أدواته، تعبيرًا عن حق الشعب في أن يفهم ما يجري، ويراقب سلوك من أو كل إليهم مسئولية الحكم. وهو ما يعني أن أي انتقاض من حرية الصحافة، هو بالضرورة انتقاض من حقوق الشعب.

وكانت البداية، الانقضاض على الصحافة القومية، ثم تبعتها موجة غليظة تستخدم لغة خطاب مضاد لحرية الصحافة والإعلام الخارج عن سيطرتهم، وهي لغة تصور الإعلام متهمًا ينبغي ملاحقته وإدانته، وهو ما نطقوا به صراحة.

النماذج بلا عد ولا حصر، منها ما قاله المرشد السابق في حوار نشرته جريدة الوطن يوم ٨ إبريل ٢٠١٣. من "إن الصحافة المصرية مشبوهة. وأن أجهزة مسئولة في الدولة رصدت الأموال المتدفقة على البلاد، من أجل تشويه أداء الرئيس وجماعة الإخوان، وأن الإعلام بات يمثل بؤرة فساد وتشنيع".

... من أين يستقون معلوماتهم هذه؟ وما الأجهزة المسئولة التي أشار إليها؟

يجيب على هذا الأمين العام للجماعة حين قال الصحفيين: إن الرئيس لا يعتمد فقط على تقارير الأجهزة الأمنية، وإنما يعتمد على تقارير المخلصين من أبناء هذا الوطن. وبالطبع فإن المخلصين في حساباتهم هم من جماعتهم فقط.

وتنفيذًا لخطة الهجمة على الصحافة والإعلام، راحت البلاغات تتوالى بتهمة إهانة الرئيس، وقدرت الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان، أن أربع قضايا بتهمة إهانة الرئيس، هي حصيلة ثلاثين عامًا من حكم مبارك، مقابل ٢٤ قضية في ستة أشهر من حكم مرسي، ثم زاد عددها بعد ذلك.

وكانت الإدارة القانونية برئاسة الجمهورية قد أعلنت أنها تتابع ما ينشر بالصحف، وما يعرض بالفضائيات، وينطوي على ما تعتبره إهانة للرئيس، لتقديم بلاغات ضد من يرتكبها، إلى النيابة العامة، وهي بلاغات من الصحفيين والإعلاميين المتهمين بالمساس بذات رئيس الجمهورية.

ثم يخرج علينا المستشار القانوني للرئيس بعد فترة طويلة من الملاحقات القانونية، ليقول إن الرئيس لم يكن يعلم أن الإدارة القانونية قدمت بلاغات وتتهم سبعة من الصحفيين والإعلاميين، بإهانة الرئيس وأنه بمجرد علمه بها أمر باتخاذ إجراءات التنازل عنها، (وكانت كل وقائع الاتهامات والتحقيقات تنشر في الصحف، وفي الفضائيات، على أوسع نطاق، أي إن من فاته العلم بها مره، لا بد وأن يكون قد بلغه الأمر مرات ومرات).

وهذا التضارب بين الواقع كما يمارس، وبين القول المعلن، استمر بلا توقف. فنجد وزير إعلامهم يقول: لا سقف لحرية الإعلام ونحن لم نقمع حرية الصحافة، ولم نكمم الأفواه، ونحترم حرية الرأي.

ويؤكد رئيسهم مرسي في حوار مع شبكة سي. إن. إن، التزامه بتعزيز الديموقراطية وحرية التعبير.

وحين تحدث مرسي أمام "مؤتمر إطلاق مبادرة حقوق وحريات المرأة المصرية"، وأطلق تهديدات صريحة للإعلام، خرجت بعدها جموع التيارات المتحالفة معه، زاحفة على مدنية الإنتاج الإعلامي، تحاصرها، وتتحرش بالإعلاميين، والمتحدثين من الضيوف.

ثم نفاجأ بعدها بدعوة وزير إعلامهم لمؤتمر لبحث مستقبل الإعلام، يدعو

لحضوره بعضًا ممن قادوا هذا الحصار، وآخرين ممن اتهموا بالضلوع في مؤامرة اغتيال السادات، بينما هذا الوزير هو الذي تتبعه مدينة الإنتاج الإعلامي، التي حاصروها، وتقع عليه مسئولية حمايتها منهم؟!.

وقد تصاعدت موجات ملاحقة حرية التعبير، ببلاغات إهانة الرئيس، والسب والقذف، وهي عقوبات موروثة من أيام الاحتلال البريطاني، ومنذ صدور إجراءات كبت حريات النشر والتعبير، والمصادرة عام ١٨٧٩.

كانت حلقات الحصار تحيط بإحكام، بالصحافة والإعلام، ممثلة في الدستور الذي أثقلوه بمواد بصياغات تنذر بقهر حرية الصحافة والإعلام، أبقت على العقوبات السالبة للحريات في قضايا النشر، وإباحة غلق الصحف ووسائل الإعلام بحكم قضائي.

وممثلة كذلك في النص على نقل ملكية الصحافة القومية، من مجلس الشورى إلى المجلس الوطني المقترح، دون وجود نص يضمن استقلاله، وكانت فكرة إنشاء هيئة وطنية للصحافة والإعلام، حين طرحت من البداية تهدف إلى ضمان استقلالية وسائل الإعلام المملوكة للدولة، وتهيئة الأجواء للإصلاح الشامل لكن الطريقة التي أعلن بها عن تشكيل المجلس الوطني تضمنت تفسيرات بأن رئيس مجلس الشورى هو الذي يقترح على الرئيس اسم من يرأس المجلس المقترح. ومعنى ذلك إنه سوف يطبق على المجلس الوطني، المعايير نفسها التي طبقت في اختياره لرؤساء تحرير الصحف القومية "الأسيرة"، للسيطرة على المجلس، وإخضاعه للدولة.

وكما رأينا في التشكيل المعدل للمجلس الأعلى للصحافة أن دوره تحول من مدافع عن حرية الصحافة وحماية الصحفيين، من القيود المفروضة من الدولة، إلى القيام بدور المدافع عن الحكم، وتشديد سيطرته على الصحافة والصحفيين.

وحسب التجارب في مختلف العهود فإن ضيق الرئيس بالصحافة والإعلام، لا يعود إلى انتقاد أدائه فحسب، ولكن لأن الصحافة والإعلام، يكشفان أمورًا

تجرى، قد لا يريد النظام أن يعرف أحد بها، خصوصًا إذا افتقدت سياسة النظام الشفافية، التي هي حق أصيل للرأي العام، لكي يتابع ويعرف ما يفعله الوكيل (الرئيس)، بما أوكله إياه الشعب، لمباشرته.

الوقائع كثيرة، وحتى يظل موضوعنا داخل مساره، فإنني أعرض لواقعة بعينها، شغلت الصحافة والإعلام، وناقشها الكثيرون، محاولين النفاذ إلى عمق المشهد، وإزاحة الستار عما كان يجري وراء الكواليس ومن بدايتها إلى نهايتها يظهر بوضوح الخط الواصل بين الحكم والصحافة.

هنا يبرز أمامي اسم بروس رايدل، وهو واحد من كِبار رِجال المخابرات المركزية الأمريكية مختص بالشرق الأوسط.

وبروس رايدل كان مؤخراً أحد مستشاري أوباما للشرق الأوسط، وكنت قد التقيته في واشنطن عام ١٩٩٦، عندما كان مساعدًا لوزير الدفاع، وأجريت معه حوارًا نشر وقتها في الأهرام.

أما مناسبة ذكره في موضوعنا هذا، فكانت مقالاً نشره في فبراير ٢٠١١. عقب تنحي مبارك بأيام، أثار جدلاً في الولايات المتحدة، كان عنوان مقاله "لا تخشوا الإخوان المسلمين في مصر"، وقال: إن الإخوان يمكن أن يكونوا البديل الأكثر مسئولية في مصر.

الصحافة الحرة قد تكشف علاقتهم بالمخابرات الأمريكية

وبعد أربعة شهور، في يونيو ٢٠١١. أعلنت هيلارى كلينتون وزيرة الخارجية أن الولايات المتحدة سوف تستأنف اتصالاتها Contacts التي كانت قائمة منذ سنوات مع الإخوان المسلمين.

وفسر مسئولون بالخارجية الأمريكية طبيعة هذه الاتصالات، بالقول إنها تمت خارج الدائرة الرسمية، بترتيب من البعض في المخابرات، وفي الخارجية، بهدف إيجاد تواصل مع الإخوان.

وفي عام ٢٠١٢، عقب ظهور نتائج المرحلة الأولى من انتخابات الرئاسة، وقبل جولة الإعادة بين محمد مرسي وأحمد شفيق، سافر وفد كبير من قيادات الإخوان، إلى واشنطن، والتقوا ومسئولين أمريكيين، وأوضحوا استعدادهم لضمان المصالح الأمريكية، والالتزام بمعاهدة السلام مع إسرائيل.

والاتصالات القديمة بين أمريكا والإخوان، تعود إلى سنوات بعيدة مضت، وكان يشارك فيها عدد من الإخوان الأمريكيين، وهم الذين هاجروا إليها وتجنسوا بالجنسية الأمريكية، ولهم فيها منظمات وجمعيات وشركات، وأنشطة تجارية، وكانت مهمتهم طمأنة الأمريكيين إلى أن الإخوان لن يتعرضوا للمصالح الأمريكية في المنطقة، وهو تحرك يأتي في إطار أفكارهم المستمرة، للتمكين لهم يومًا ما من الدولة، بدور تلعبه الولايات المتحدة.

وقد كشفت وثائق ديكيليكس التي نشرت في عام ٢٠١٣، عن اتصال مبكر للإخوان بالأمريكان في عام ١٩٨٦، نقلاً عن تقرير لدبلوماسي بالسفارة الأمريكية بالقاهرة، تحدث فيه عن لقاء له مع بعض قيادات الجماعة منهم المرشد ونائبه، بالمقر القديم لمجلة الدعوة التابعة للإخوان، (التي توقفت عن الصدور)، وقال في تقريره إن الإخوان يرغبون في إقامة علاقات وثيقة مع السفارة الأمريكية، لتعزيز شرعيتهم السياسية.

وزاد اهتمام الأمريكيين بتوثيق علاقتهم بالإخوان، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وانزعاجهم من ظهور تيارات متعاطفة مع بن لادن في بعض الدول العربية والإسلامية، ووقتها تبلورت في واشنطن أفكار السعي نحو علاقة تقوم على الارتباط مع ما أسموه بالإسلام المعتدل، وهو التوجه الذي تحدث عنه بالتفصيل بول وولفويتز الذي كان نائبًا لوزير الدفاع في حكومة جورج بوش، وهو في الوقت نفسه واحد من أبرز المنظرين لفكر حركة المحافظين الجُدُد، الموالية لإسرائيل، التي عرفت بانحيازها ضد العرب والمسلمين.

وهو الاتجاه نفسه الذي عبرت عنه كوندوليسا رايس وزيرة الخارجية، حين قالت في خطاب لها في القاهرة عام ٢٠٠٥، نحن لا نمانع في وصول الإسلاميين للحكم.

ومنذ الأيام الأولى لثورة ٢٥ يناير تصاعدت وتيرة الحوار الإخواني الأمريكي. ولم تكن فكرة دعم الإخوان في مصر، محصورة عند مستوى السلطة الحاكمة في واشنطن، لكنها طرحت للمناقشة في عدد كبير من مراكز البحوث Think Tanks. من بينها مؤسسة كارينجي، ومعهد بروكنجز، وترددت في مناقشاتها، فكرة أن الإخوان في مصر تخلوا عن شعاراتهم اللفظية المعادية للغرب، وأنهم مستعدون للالتزام بقواعد اللعبة السياسية.

وعقب تولي مرسي الرئاسة، تعددت الاتصالات بين الجانبين، وشارك فيها سياسيون من الحزبين الديموقراطي (الحكم)، والجمهوري (المعارض)، وتوافدوا على مقر الإخوان بالمقطم، منهم ويليام بيرنز مساعد وزيرة الخارجية، وأبدى المسئولون الأمريكيون الذين التقوا بقادة الإخوان، دهشتهم من المدى الذي وصل إليه الإخوان، في إظهار استعدادهم للتوصل إلى تفاهمات، بشأن معظم القضايا المتصلة بسياسة أمريكا الخارجية وأمنها القومي.

وفي مقابل هذا التوافد على القاهرة، فقد زار وفد إخواني واشنطن في إبريل ٢٠١٢ واجتمع مع مسئولين بالبيت الأبيض، وبشخصيات أمريكية أخرى، لتبديد أي مخاوف لدى واشنطن من سياسة الإخوان الخارجية.

وقال دبلوماسي سابق، إن الرئاسة المصرية اعتادت منذ تولي مرسي السلطة، أن ترسل كل ثلاثة شهور ـ تقريبًا ـ وفدًا إخوانيًا إلى واشنطن للقاء المسئولين الأمريكيين.

وفي إبريل ٢٠١٣ جرت مناقشة موسعه حول علاقة أمريكا والإخوان، في مركز التقدم الأمريكي Center for American Progress (Cap) وهو أقرب مراكز البحوث إلى الرئيس أوباما، وكان قد أسسه عام ٢٠٠٣ جون بودستا، الذي عمل رئيسًا لهيئة العاملين بالبيت الأبيض، في فترة رئاسة بيل كلينتون، وشارك في المناقشة عدد من الخبراء السياسيين المختصين بشئون الشرق الأوسط، كان من بين ما قيل في المناقشات:

- إن تعجيل واشنطن باحتضان الإخوان المسلمين عقب سقوط مبارك، كان يتوافق مع نمط تفكير قديم لديها؛ لأن واشنطن أدركت أنهم سيفوزون في الانتخابات.

- وكان مما قيل في هذه المناقشات أيضًا إن كثيرًا من الدبلوماسيين الأمريكيين لم يجدوا اختلافًا من وجهة نظرهم، بين حزب الحرية والعدالة، وبين الحزب الوطني الديموقراطي أيام مبارك.

والمفارقة الصارخة في هذا التوجه، أنه كان يقابلها، صدور تصريحات من قيادات الإخوان تتهم زعماء المعارضة بأنهم على اتصال بالأمريكيين، وأنهم موالون لهم!

وهو انعكاس لغياب الشفافية، عن تحركات الإخوان، وسياسة الرئيس، وهو ما كان يثير حفيظتهم كلما اقتربت الصحافة من الستار الداكن، لإزاحته ولو قليلاً، ليظهر ما وراءه؛ لأن مشكلتهم أنهم اعتادوا عبر عشرات السنين، أن يناقشوا الأمور بينهم وبين بعضهم، في غرف مغلقة محاطة بالسرية والكتمان. وعجزوا عن تغيير طريقتهم بعد أن وصلوا للحكم.

وليس هكذا تدار شئون دولة - فهم مقيدون بميراث الكتمان، بينما الصحافة من ناحيتها مهمتها أن تظهر الحقيقة للناس، وكان هذا أحد الأسباب المهمة للعداء للصحافة، وللإعلام المستقل.

الصحافة جزء من العملية السياسية للدولة

وما يتعلق بالصحافة، يسري على غيرها من المؤسسات التي يختص دورها إما بالرقابة على نظام الحكم، إما بحماية الدولة وأمنها واستقرارها، وبتوازن العلاقة بين الرئيس وبين الشعب الذي يحكمه، وإن المحافظة على قدرة كل من هذه المؤسسات على أداء دورها، هو الذي يحقق للدولة التقدم والنهوض، والازدهار، والمكانة إقليميًا ودوليًا.

أي إن الصحافة هي مكون من مكونات الدولة، وبالتالي فإنها هي وغيرها، تمارس عملها في محيط السياسة في المقام الأول، وحسب تعريف علم السياسة فإن السياسة هي نشاط إنساني، أولى الصفات المميزة له عن غيره من مجالات النشاط الأخرى، هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وألا يجور أي منهما على دور الآخر ووجوده، وقدرته.

وهنا تقوم الصحافة بدورها، والسياسة تجري في دولة، وإذا لم تتوافر فيها هذه المعايير، فإن ما يجري ممارسته يخرج عن مفهوم السياسة ومعناها، وما تدور في إطاره يبعد كلية عن معنى أن هناك دولة.

ولما كنا قد دخلنا في أجوار من الضبابية القاتمة بعد أن تم جر قطار ثورة ٢٥ يناير بعيدًا عن قضبانه، وجرى تقاذف البلد في متاهات، نرى فيها من فعلوا بها ذلك وكأنهم يباشرون عملية سياسية، فقد بدت بصورة صارخة ظاهرة عدم استيعابهم، للدور الطبيعي الذي تقوم به مختلف مؤسسات الدولة، فكانت حملات العداء المتلاحقة ضد الصحافة، وضد جميع مؤسسات الدولة، وفي المقدمة منها القضاء، وهو ما صبغ الحياة السياسية منذ يونيو ٢٠١٢. بصبغة خلت تمامًا من أي فكر سياسي، وبطابع مضاد بالتالي للدولة ـ كدولة.

وأصبح ما يحدث في مصر، يحتاج لرؤية تشخص الحالة القائمة، وما هو محتمل بالنسبة إليها مستقبلتً، أخذًا في الحسبان كون الصحافة جزءًا أساسيًا من المشهد السياسي العام، منذ كانت الصحافة لاعبًا رئيسًا في مختلف أحداث تاريخنا المعاصر.

والصحافة، ومن خلال كتابها الكبار المتمرسون في المهنة، والذين يملكون ناصية الفكر والتحليل، تلعب دورًا حيويًا، تحرص عليه الدول المتقدمة والصاعدة، التي تدرك عن وعي، أن كتاباتهم هي بمثابة المنار الذي يهدي السفن في الليالي المظلمة، وهي مرآة تعكس لعيونهم ما يجري في دول أخرى من تجارب ناجحة وفاشلة، وهو دور يتكامل مع أدوار مختلف المؤسسات الأخرى في الدولة.

وما يتعلق بالصحافة وهو موضوع هذا الكتاب - يتصل عضويًا، بكل ما يجري في مصر من أحداث، في إطار المشهد السياسي العام.

الفراغ الفكري في فترات التحولات السياسية

وفى فترات التحول السياسي في أي دولة، تظهر أحيانًا حالة من الفراغ الفكري؛ لأن التحول هنا يهدف إلى إزاحة الفكر القائم والإتيان بالبديل، الذي يجسد أهداف الذين قادوا حركة التحول والتغيير، وهو شيء ينطبق على ما يجري في مصر من بعد ٢٥ يناير.

والفكر عادة يسبق الحركة، والسياسة تأتي لاحقة لفكر يحدد لها طريقها. وهذه الحركة لا تدور حول نفسها، ولا تنحصر في محيط ضيق؛ لأن الدول بطبيعتها، هي جزء من مجتمع دولي أعم وأشمل يتغير ويتطور، ثم إن الدول بمقتضى ضرورات حماية الأمن القومي، والتنمية الاقتصادية وتبادل المصالح والمنافع مع غيرها، وسلامة مواطنيها في الداخل والخارج، مدعوة للتوافق مع المجتمع الدولي، على أحكام، واتفاقات، ملزمة للجميع بالدرجة نفسها.

وهذه العلاقات لا تدار بطرق عشوائية، أو اجتهادية. فهناك دول تعتبر أن مصالحها الحيوية تتجاوز إطار حدودها، وإن لها مصالح في مناطق ممتدة إلى خارج هذه الحدود، ولذلك تضع لنفسها إستراتيجية أمن قومي، تدير على أساسها سياساتها، من أجل حماية مصالحها في هذه المناطق، التي تقع في نطاق المجال الحيوي لدول أخرى.

والدول التي تملك هذه الإستراتيجية هي التي تملك القوة، أما من يفتقدها، فهو يظل الطرف الأضعف، الذي يتأثر بما يفعله الطرف الأول في العلاقة الثنائية، دون أن تكون لديه آلية التأثير على الآخر.

ثم إن من يقيد حركته طوعًا، ويبقيها في نطاق رد الفعل، ويدير سياساته حسب قاعدة العمل يومًا بيوم، دون أن تكون لديه رؤية مستقبلية، أو خيارات

متعددة للتعامل مع ما يتعرض له من أحداث، سواء أكانت متوقعة أم مفاجئة، هو الذي يترك ساحة مصالحه الحيوية فراغًا، يسهل لإستراتيجيات الآخرين، أن تقتحم هذا الفراغ، وتقيم لنفسها أدوارًا فيه، خصوصًا وأن الإستراتيجية بطبعها، تتميز بالحركة النشطة والدائبة، والإستراتيجية لها شروط، من أهمها: وضوح الرؤية، ووضوح الهدف، وامتلاك خطة لبلوغ الهدف، وآليات للتنفيذ.

هذا الوضوح الكلي يعد ضرورة أساسية للمواطن في الداخل، حتى يستطيع أن يرى من النظام ما يقنعه بمنحه الثقة، والرضا العام، الذي هو شرعية وجوده، وبالتالي يدعم النظام في مشروعاته وخططه.

وتلك أيضًا ضرورة رئيسة للخارج، الذي يبني إستراتيجية سياسته الخارجية، بناء على هذا الوضوح بالنسبة إليه، وإلا فإنه سوف يستغل ما لديك من غياب الرؤية، وانعدام الفكر الإستراتيجي، لتغليب مصالحه على مصالحك، وهنا يبقى الفكر سابق للسياسة.

لقد كان غياب الفكر الإستراتيجي عن نظام مبارك، هو علة هذا النظام، لكن - ما كان ينبغي أن لتلك الظاهرة أن تستمر، بعد ثورة ٢٥ يناير، ففي السنوات السابقة للثورة، لم يقدر تفكير النظام على أن يبدع فكرًا سياسيًا للدولة؛ لأن تفكيره تقوقع في ساحة احتلها هدف ذاتي يخصه، ولا يعكس المصلحة العامة للوطن، وهو هدف توريث الحكم لنجله، فغابت الرؤية الإستراتيجية عنه، التي تستوعب حال الوطن ومستقبله، وتكرر الوضع نفسه في ظل النظام الذي خلفه بعد الثورة، وبعد إزاحة الذين شاركوا في إطلاق شرارة هذه الثورة من المشهد السياسي واختطاف الثورة وتسليمها للإخوان وانغلاق النظام الجديد، على فكر أيديولوجي، استحوذ على تفكيره، ثم بدأت تظهر بوضوح ممارسات "النظام الجديد"، للتمكين من الدولة. ورغم أقوال من أعضائها تنكر ذلك، فإن العبرة بما كان يجري في الواقع، وليس بالكلام، فالتمكين كان يجري على قدم وساق. ولعل من أبرز صوره الصارخة، ما كان من عداء معلن للإعلام، وما حدث للصحافة التي استبدلوا رؤساء مجالس إداراتها ورؤساء تحريرها، بآخرين، ممن ليس لهم

تاريخ مهني أو مواقف رأى، بكوادر بعضها إخوانية، وبعضها ممن لديهم خاصية السمع والطاعة، والانصياع لما يملى عليهم من خارج دور الصحف، وما حدث من تضييق على كِبار الكُتَّاب، أصحاب التاريخ المهنى والوطني، والذين تتشكل منهم هوية الصحيفة.

وهذه ممارسات طالت مختلف قطاعات الدولة، وتعمدت إقصاء المفكرين وأصحاب الخبرة، والعلم، والتخصص.

لقد برز من خلال ممارسات الإقصاء للبعض وتقريب آخرين، تصدر أشخاص بعينهم للمشهد السياسي، يتصدون لقضايا لها أبعاد قومية وإستراتيجية، وهم لا يعلمون عنها شيئًا، وهو ما كانت من مظاهره تصريح الدكتور عصام العريان مستشار رئيس الجمهورية، بدعوة يهود إسرائيل من أصل مصري، للعودة إلى مصر، وغالبيتهم العظمى صهاينة فكرًا وعقيدةً، وقاتلوا ضد مصر في كل حروبها، ومن المعروف أن كل الإسرائيليين هم جنود احتياط، حتى وهم في وظائفهم المدنية.

وهو تصريح صادم للانتماء وللحس الوطني، يعكس فقر الإلمام بطبيعة الحركة الصهيونية، وخططها لقيام الدولة التي وضعت في مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، وارتباط إسرائيل كدولة بالقُوى الكبرى وإستراتيجيتها في المنطقة، فضلا عن أطماع إسرائيل في مصر، التي أعلنت في دراسات أكاديمية إسرائيلية، ووردت بوضوح فيما عرف "بإستراتيجية إسرائيل للثمانينيات"، ودراسات لمؤسساتهم المتخصصة تتحدث بوضوح عن أطماع في مياه النيل، وتحين الفرص لوضع أقدامهم مرة أخرى في سيناء.

إن من يمارس صناعة القرار السياسي، يلزم أن يكون ضالعًا في عالم السياسة، باكتساب الخبرة، والفهم، فضلاً عن تنوع قراءاته للتاريخ، وإحاطته علما بما يجري في العالم الخارجي من تطورات في السياسة والإستراتيجية. علما بأن الفكر الإستراتيجي للدول خاضع للتغيير والتطوير، حتى لا يتخلف عن تحولات يمكن أن تؤثر عليه، تجرى في العالم الذي يتغير، بفعل انتقاله إلى عصر ثورة المعلومات. وأيضًا بسبب صعود دول، وتراجع أخرى، وكذلك التغير الذي

يحدث في نوعية التحديات للأمن القومي للدول، ينطبق هذا على مختلف الدول، وهو ما راعته دول كالولايات المتحدة وإسرائيل، في تطوير فكرها الإستراتيجي.

في هذا الميدان تلعب الصحافة الحرة، دورها الحيوي الذي لا غنى عنه، في نقل الصورة الحقيقية لما يجرى في العالم، ليس فقط ما هو ظاهر على السطح، بل أيضًا ما يجري في الخفاء، وهو دور يجيده أصحاب الفكر الناضج، القادرون على النفاذ إلى عمق عالم العلاقات الدولية، والذين يستطيعون أن يحدثوا حالة من التنبيه، والتنوير، وتسليط الأضواء أمام عالم السياسة.

التداخل بين الصحافة والسياسة

الترابط والتداخل بين الصحافة والسياسة، هو حالة متفق عليها على مستوى العالم. ومن الصعب أن تنفصم العلاقة بين الصحافة والدولة، فالسلطات السياسية في الدولة، هي التي تضع الأخبار، والصحافة بدورها تتلقاها، وتوصلها إلى الجماهير، وأحيانًا قد يجد صانع الأخبار، أنها لم تصل إلى القارئ بالصورة التي أرادها؛ لأن الصحيفة تدخلت في صياغتها بالإضافة أو بطرح علامات الاستفهام، أو بالتحليل، وهو أمر لا يرضيه، لكنه لا يستطيع أن يستغنى عن الحلقة الوسيطة التي تتلقى الخبر، فهي الوسيط في العلاقة بين السلطة السياسية والجماهير.

في بعض الحالات قد تكون الصحيفة هي مصدر الخبر، أو صانعته، عندئذ تكون هي وسيلة إعلام الدولة به، وهو أمر يطور من طبيعة العلاقة بينهما ويعززها، باعتبار أنهما يتحركان معًا داخل منظومة العمل العام، وهذا لا يمنع من أن يلعب كلاهما دوره حسب ما تقتضيه المهمة أو المهنة، وأن لكل منهما ميدانه التي يتحرك فيه حسب قواعده، وبالتالي تبقى هناك مسافة فاصلة بين الاثنين.

والعلاقة على هذا النحو الذي جرى تطبيقه من الناحية العملية، قد شغلت كثيرًا من الخبراء المتخصصين في شئون الصحافة والإعلام في دول العالم، بحيث حاولوا أن يضعوها في إطار أكاديمي.

الختـام

الإعلام المرئي يدخل شريكاً للصحافة المكتوبة

الصحافة في مصر في مرحلة انتقالية

من بعد ٢٥ يناير - و٣٠ يونيو

منذ بدء عصر ثورة المعلومات في أول التسعينيات، تكاثرت الوسائط الإعلامية، واتسع دورها ورافق انتشار الصحف الخاصة زيادة هائلة في القنوات التليفزيونية، التي تخصص أوقاتًا يومية للأخبار، والتحليلات السياسية، والمناقشات مع الضيوف المتخصصين، فصارت شريكًا للصحافة المكتوبة في دورها التقليدي والتاريخي، نظرًا لاعتياد الناس في مجتمعاتنا وكذلك في الخارج على الجلوس مساء، لمشاهدة ما يتنوع من مواد وفقرات، على الشاشة الصغيرة، وللرغبة الغريزية لدى المشاهد، لمعرفة ذات المعلومة من أكثر من مصدر.

ويتسع دور وسائل الاتصال الجماهيري، إلى لعب دور مؤثر في الثقافة المعاصرة، التي تشمل الراديو، والتليفزيون، والفيلم، والإنترنت، والصحيفة، وبعض هذه الوسائل قد يبتدع منتجًا، يبث ثقافة اجتماعية مؤثرة في المجتمع، وهو تطور له إيجابياته، فلا أحد ينكر دور الإعلام في إيقاظ الوعي لدى المواطن من قبل ثورة ٢٥ يناير، وأثنائها، وهو ما كان له مردوده العملي، في خروج الجماهير بالملايين، بعد دعوتهم للتظاهر، فتحولت بهم التظاهرات إلى ثورة شعبية. وهو نفس ما حدث في ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

لكن بقيت للانتشار الواسع لوسائل الإعلام، جوانب سلبية، تمثلت أحيانًا في نوع من الفوضى الإعلامية، نتيجة تحول بعضهم من مذيع إلى "داعية سياسي"، يطلق الأحكام، متجاوزًا دوره الأصلي، في الرجوع إلى أصحاب العلم والخبرة والتخصص، وإن كانت هذه السلبيات تظل محدودة، وتظهر صارخة حين يخوض مقدم برنامج في قضايا، لم يدرسها جيدًا، وليس لديه إلمام كافٍ بخباياها وبخلفياتها التاريخية.

إن المناخ الإعلامي قد شهد في السنوات الأخيرة، تمددًا لوسائل الاتصال الجماهيري، وهو ما وضع الصحافة على وجه الخصوص أمام تحديات تنوعت أسبابها، من تدفق المعلومات والأخبار عن طريق الإنترنت، والتغطيات المستمرة ليل نهار من قنوات التليفزيون، وظهور متزايد لمواقع التواصل الاجتماعي.

ووجد المختصون والمهتمون أن الصحافة في أمام هذه المتغيرات تحتاج إلى تصورات جديدة ومبتكرة للأداء الصحفي، خصوصًا في مجال صناعة الخبر، وبرامج تدريبية متطورة للمحررين، وطرق مجالات لا تكتفي باستخلاص الخبر من المصادر الرسمية، بل تسبقها في التعريف بالقضايا التي تشغل الناس. وأن يسبق ذلك إدخال مناهج متطورة في كليات الإعلام، تلم بالتجارب التي حدثت في دول أخرى، التي سعت لحل مشكلة التحديات التي تواجهها الصحافة الحديثة.

ولا يغيب ذلك كله الوعي، بأن الكلمة المكتوبة، تتميز بأنها تثير خيال القارئ حين تجري عيناه على السطور، فتلهمه أفكارًا يستخلصها من بين السطور، حتى ولو لم يذكرها الكاتب مباشرة، وهذا ما يجعل القارئ - ذو العين الثاقبة والتفكير المتنور - شريكًا في صناعة الجريدة، حتى ولو كانت الشراكة نتيجة هذا التفاعل الثنائي.

لقد دخلت الصحافة في مصر من بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ مرحلة انتقالية، سادها قدر ملحوظ من الاضطراب والشكوك في مصداقيتها فالمناخ العام، ومزاج

الجماهير التي تقرأ الصحف وتتابع الأحداث، قد تغير بدرجة هائلة، بعد حدوث صحوة جماهيرية، انتقلت بالمزاج العام من الإعراض عن السياسة طوعًا أو قسرًا، صاحبها تجريف مقصود للعمل السياسي والحزبي، إلى انشغال جماعي بالسياسة، وبالتالي بالصحافة والإعلام بصفة عامة.

وهو وضع يفرض على الصحافة التواؤم مع هذه التحولات، بعقلية قائمة على الاحتراف والمهنية، التي تقفز على أسوار من مواريث قديمة في التفكير السياسي الذي قد يكون بعضه لا يزال أسير عشرات السنين من مركزية القرار، الذي شاع في عموم المؤسسات، بما فيها المؤسسات الصحفية، وتضع نصب عينيها معايير الإدارة، في عصر ثورة المعلومات التي جرت في العالم كله، فإنها في مصر أصبحت مطلوبة لمجاراة التغيرات الجوهرية في المناخ العام، والمزاج الجماهيري، الذي تغيرت معه بالضرورة أحكامه على ما تقدمه له الصحافة، والإعلام، والمحافظة على الصلة التاريخية بينهما التي كانت فيها الصحافة صانعة الخبر والمعلومة، وكان القارئ ملهمها.

وهذا ما انشغل به العلماء والخبراء في شئون الصحافة في العالم.

وعلى سبيل المثال فإن ويليام بيرنشتاين واحد من المتخصصين في دراسة تاريخ الصحافة والإعلام في الولايات المتحدة، عرض رؤيته في كتاب عنوانه "أرباب الكلمة" master of the word يقول فيه إن كلمتي سياسة وإعلام، تعبران عن معنى واحد تقريبًا، فكل عملية سياسية هي عملية اتصال بين البشر؛ أي إنها عملية تواصل إعلامي في الأساس بين طرفين يؤثران في بعضهما البعض، وإن الكلمة المكتوبة لعبت دورها في تحرير الشعوب من القهر، وإن الصحافة الحرة المكتوبة مع الميديا الحديثة إعلاميًا، تشكلان قوة ضاغطة من أجل الحرية، والتأثير على المجتمع الإنساني، وظهر التأثير واضحًا في عصر ثورة المعلومات، والإنترنت في أحداث الربيع العربي، وهذا الترابط بين السياسة والصحافة، كان محل اتفاق بين الذين تصدوا للدراسات المتخصصة في هذا المجال.

وهناك وجهة نظر مهمة لاقت اهتمامًا من المتخصصين في دراسات وسائل الإعلام سبق أن طرحها البروفسور الألماني "نيكلاس لومان" عنوانها "حقيقة وسائل الاتصال الجماهيري"، وهو عالم اجتماع ألماني، ومفكر بارز في نظريات الأنظمة، وصدر له سبعون كتابًا نحو ٤٠٠ مقال، حول موضوعات مختلفة شملت القانون، والاقتصاد، والسياسة، والفن، والحب، ووسائل الاتصال الجماهيري.

وهذا التنوع في اهتماماته كان من أسباب إضفاء أبعاد عديدة لتناوله لموضوعات الإعلام.

ويقول في كتابه إن نظام الإعلام متعدد الوسائط لا تحدده قيم وأفكار خارجية، أو مصالح اجتماعية داخلية معينة، أو توجهات سياسية، لكن ما يحدده هو أن تكون له هوية مستلهمة من بيئة، وهي التي تمكن النظام في الدولة من التواؤم مع نظامه الإعلامي؛ بمعنى أن المجتمع هو الذي يضع تصورًا ذاتيًا لعملية صناعة المعلومة، التي تبنى على قواعد السلام الاجتماعي، والاستقرار المجتمعي، والأمن القومي.

وكان من شأن تكاثر مختلف وسائل صناعة الخبر، وتوفير المعلومة، في عصر ثورة المعلومات، خلق تحديات تواجه الصحافة، مثلما حدث في العالم على اتساعه. ولمواجهة هذه التحديات، التقى في شهر يوليو من عام ١٩٩٧ خمسة وعشرون من أبرز الصحفيين في الولايات المتحدة، المشهود لهم بالخبرة العميقة، والقدرات التحليلية المستمدة من الخبرة ومن الثقافة معًا، ليتناقشوا حول، ما الذي حدث لمهنة الصحافة طوال فترة ثلاثين عامًا، منذ عهد نيكسون في الستينات إلى وقت حكم كلينتون في التسعينيات، وأسفرت المناقشات عن توصلهم إلى مجموعة من الملاحظات، من بينها أن الرأي العام الأمريكي لم يعد يثق في الصحافة، بخلاف ما كان عليه الحال من قبل، وإن غرفة صناعة الخبر في الصحيفة أصبحت تتعرض لضغوط متزايدة من مصادر الإعلان من ناحية، ومن تطور وسائل التكنولوجيا الحديثة من ناحية أخرى.

والأهم من ذلك أن هؤلاء الصحفيين الخمسة والعشرين الذين عرفوا باسم "لجنة الصحفيين المهتمين"، اتفقوا على التمدد خارج نطاق جلساتهم، إلى مجال أرحب، للوصول إلى تشخيص لما تواجهه الصحافة من تحديات. وبدأوا في إجراء دراسات وبحوث، واستطلاعات رأى، لمئات من القراء، والصحفيين، وأيضًا مشاهدي التليفزيون، وأجروا أكثر من مائة حوار مع مختلف الصحفيين من محررين وكُتَّاب.

ومن حصيلة هذا الجهد أصدروا كتابًا حمل عنوان "القيم الجديدة للصحافة: مبادئ للقرن الواحد والعشرين"، نشره المعهد الأمريكي للصحافة وتولت تحريره كيلى مكبريدج، وهي كاتبة وأستاذة في دراسات الصحافة، ونائبة رئيس البرنامج الأكاديمي بمعهد روينتر وهو مركز متخصص في دراسات الصحافة، وشاركها في تحرير الكتاب توم موزينستيل المدير التنفيذي للمعهد الأمريكي للصحافة. واحتوى الكتاب على مقالات كتبها أربعة عشر من كِبار الصحفيين من أصحاب الفكر والخبرة.

ومن بين النقاط الأساسية التي عرضها الكتاب، أن الصحافة اليوم تواجه مشكلات فريدة، نتيجة عصر وفرة المعلومات، التي تتيحها مصادر أخرى خارج مهنة الصحافة، وأن المجتمع ذاته صار منتجًا للمعلومة.

ويقول الكتاب أيضًا، إن تراجع الثقة في الصحافة في أمريكا ودول أخرى - التي كانت أول ملاحظة لمجموعة الخمسة والعشرين، هي نتاج أسباب عديدة، وتنطبق أيضًا على قنوات التليفزيون، التي تقدم في برامج التوك شو وفي البرامج الأخرى، مواد تحريرية، وكأنها أخبار، مقطوع بصحتها، مع أنها قد لا تكون كذلك، وإنها تذيع أحيانًا مواد تسجيلية، عبارة عن توليفة من الحقائق، بشكل يوهم المشاهد وكأنها أحداث حقيقية.

لم يكن جهد لجنة الصحفيين المهتمين، أو كتاب القيم الجديدة للصحافة، سوى مسعى في هذا المجال، ضمن كثير جدًا من الدراسات والبحوث لمراكز ومعاهد متخصصة، منها - على سبيل المثال كتاب - "الإعلام بالأخبار" Informing

تأليف توماس باترسون أستاذ الصحافة والدراسات الحكومية، بجامعة the news هارفارد. وقد تصدى مباشرة للتحديات التي تواجه صحافة اليوم قائلاً إن حلها يبدأ بتوافر المعلومات (حرية تداول المعلومات)، فإذا لم تتوافر المعلومات، فإن المحرر الذي يأتي بالخبر، قد يسيء تحليل الخبر، أو أن يتعرض لابتزاز مصدره.

ويعود باترسون إلى ظاهرة نقص الثقة، قائلاً إن الأمريكيين يعتمدون على الميديا بمختلف وسائلها، كمصدرهم الأساسي للمعلومة، وإذا فشلت إحدى هذه الوسائل في الالتزام بالمعايير المهنية فإن الثقة تصبح مفقودة.

ويشير إلى أن الرأي العام قد تغير نتيجة بعض المشاكلات في صياغة الخبر، مستدلاً على ذلك بالدور الذي لعبته الميديا في خداع الرأي العام، حين قدمت معلومات مغلوطة عن أسلحة الدمار لدى صدام، قبل غزو العراق، التي اتخذت مبررًا للغزو، صحيح أن صحفيي نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، اعتذروا فيما بعد عن هذه المعلومات، لكن المشكلة أن المعنى كان قد انتشر، وساعد على تشكيل مزاج الرأي العام، وبالتالي فالاعتذار صار دليلاً قليل الأهمية، ويتطرق باترسون إلى القضية التي تعتبر مبدأ أساسيًا في الحياة الأمريكية، التي قد يصطدم بها، أي تحريف للمعلومات، ويقول إن الصحفيين حين يلتزمون بالمعايير المهنية، فهم يساعدوننا على فهم الشئون الخارجية، بما يتجاوز حدود خبرتنا المباشرة.

كانت الصحافة قبل التليفزيون، وفي بداياته، تتيح للقارئ أن يختار ما يريده، أما في عصر الفضائيات؛ فقد فتحت الإغراءات، المتنوعة أمام المشاهد مجالاً واسعًا، لتلقي ما لم يكن أصلاً من اختياره، وصاحب ذلك تراجع دوائر المناقشات الاجتماعية، التي يحدد موضوعاتها المتناقشون أنفسهم، فهم يتابعون مناقشات للمتحدثين والمتحاورين على شاشات قنوات التليفزيون التي تحدد أجندة المناقشات التي تدور بينهم، وكثيرًا ما يكون ما تابعوه، موصلاً لمناقشات في جلسات أخرى سواء للنخبة، أو للمشاهد العادي، التي تشهد إما اتفاقًا إما اختلافًا في الآراء.

إن القارئ أو المشاهد لم يعد في هذا العصر، مجرد متلق لما يقدم إليه؛ لأن التنوع العددي والنوعي في مصادر المعلومة، وما يحدث أحيانًا من اختلاف بين من يقدمونها، من حيث طريقة عرضها، وشرحها، وتحليلها، أصبح يتيح للقارئ والمشاهد، فرصًا لتقييمها، واتخاذ موقف أو رؤية، قد تتفق مع زاوية مما يعرض عليه، أو أنه يميل إلى تقييم مختلف.

ويبقى من المهم للصحافة المكتوبة، أن تراعي في نشرها للخبر والقصة الصحفية، ألا تنشرها بالصورة نفسها التي سبق أن اطلع عليها القارئ والمشاهد على شاشات التليفزيون في الليلة السابقة، فهي مطالبة الآن بإنتاج المعلومة - دون الاكتفاء بما علمت به من مصادر أو بيانات رسمية - أو السعي وراء إضافات تعطي للخبر أبعادًا لم تكن قد وصلت للقارئ أمس؛ لأن الأحداث تتدفق بإيقاع متسارع.

صدر للمؤلف

■ **كتب سياسية:**

خطايا النكسة (سبتمبر١٩٧٣)
أزمة الديموقراطية
الإصلاح السياسي من أين يبدأ
مصر تستعيد روحها: ٢٥ يناير وإعادة بناء الدولة
الثورة والمؤامرة
وثائق البيت الأبيض تتحدث
اختطاف الثورة
القرن الآسيوي
من يحكم أمريكا
انقلاب في السياسة الأمريكية
أمريكا في عالم متغير
الشرق الأوسط الكبير
حائط السلام

■ **مسرحيات:**

حضرة صاحب الدولة
بيت الأصول
تأشيرة دخول للوطن

كِبار الزوار
السادة النواب
الزائرة
بيت العرايس
السهرة في الحسين

■ **مسرحيات مترجمة:**

نيكسون نيكسون
أشياء تحدث
رفس حصان ميت
لعنة العائلة المحرومة

الفهرس

- مقدمة ٥

الفصل الأول

كواليس الصحافة في عصر عبد الناصر ٩

- الموظف الذي يستدعي كِبار الصحفيين بالتليفون ١١
- موسى صبري رئيسًا للتحرير ومحررًا في الوقت ذاته ١٢
- الرقيب يمنع نشر إعلان لحفل مطربة مشهورة ١٤
- إحسان عبد القدوس في أخبار اليوم: حكايات مواقف في الكواليس ١٧
- عبد الناصر وإحسان: صداقة بشروط ٢٢
- محنة الديموقراطية الناقصة والموروثة ٢٣
- مراد غالب يفتح الصندوق المغلق ٢٤
- في أول لقاء مع عبد الناصر عقب النكسة شعرت أنني أرى شخصًا آخرَ ... ٢٦
- في كهف في فيتنام أثناء غارة أمريكية
سألني قروي: أنتم من بلد عبد الناصر ٢٧

الفصل الثاني

في الأهرام.. عالم مختلف ٣٠

- لقاء نادر مع الرئيس محمد نجيب ومشهد لرجل كأنه عاش ألف عام ٣٠
- الاندماج سريعًا في جو الأهرام ٣١
- الصحيفة ازدانت على يد هيكل بباقة من كِبار المفكرين والأدباء ٣٣
- توفيق الحكيم بين رضا السادات وغضبه ٣٤

- كيف أقنع منصور حسن السادات بالتراجع عن تحويل نقابة الصحفيين إلى نـادي ٣٥
- رأى السادات في الصحفيين كما عبر عنه لأشرف غربال ٣٥
- في لقائنا بالقذافي في الأهرام قال:
العرب أمامهم ١٠٠ سنة ليحكموا ديمقراطيًا ٣٧
- إحسان للسادات على التليفون: لا أوافق على ما تطلبه مني..... ٣٩
الفصل الثالث
نظرية مبارك: دعهم يكتبون ولنفعل نحن ما نريد ٤٢
- مقال غير ممنوع من النشر ٤٣
- حين سئل مبارك: لماذا لم تعين نائبًا للرئيس ٤٤
- لقاء سري مع جلال طلباني ٤٥
- مراسل صحفي في لندن ومشاهد بعضها مثل الأساطير ٤٧
- علماء ومؤرخون يقولون:
الأيرلنديون أصلهم مهاجرون من مصر ٤٨
- سفينة الرهبان تغادر الإسكندرية هربًا من اضطهاد الرومان إلى إيرلندا ٥٠
الفصل الرابع
خزائن الأسرار في أمريكا لها مفاتيح ٥٢
- بيلليترو وذكريات عشاء متوتر مع مبارك ٥٣
- ريستون عميد الصحفيين الأمريكيين يشرح لنا طريقة عمل الرؤساء ٥٤
- لحظة غضب مبارك في جلسة حوار مع فريد زكريا ٥٦
- تقليد أمريكي في تعامل الرؤساء مع كِبار الصحفيين ٥٧
- عميدة مراسلي البيت الأبيض تحكي لي الاختلاف بين ٦رؤساء ٥٨
- المعلومات تتدفق بغزارة على مكتبنا في واشنطن ٦١
- فتح الملفات المغلقة
البُعد الأمريكي في الصراع بين مصر وإسرائيل ٦٢
- مسئولون أمريكيون كِبار يعترفون لأول مرة بهزيمة إسرائيل في ٧٣ ..... ٦٣
الفصل الخامس
نظرة من وراء الكواليس ٩١

- آراء عمرو موسى السياسية ليست على هوى مبارك ٩١
- إسرائيل زرعت أجهزة تجسس على الرئيس في البيت الأبيض ٩٣
- مونيكا مبعوثة الموساد للإيقاع بكلينتون ٩٣
- علاقة أمريكا بمصر ستظل جيدة لكن بشرط ٩٥
- أمريكا تتغير من الداخل ٩٧
- زيارة لآرثر ميللر وتشخيصه للحالة الأمريكية ٩٨
- من أين تتدفق المعلومات في أمريكا ١٠٦
- هكذا يصنع قرار السياسة الخارجية ١٠٨
- باب الدخول إلى أمريكا ١١٠
- تحذير للأهرام في خطاب من نائب وزير الدفاع الأمريكي ١١١

الفصل السادس

العودة للقاهرة بعد غياب ٧ سنوات

صحافة من مبارك إلى الإخوان ١٢٦
- ثورة ٢٥ يناير ترج المؤسسات الصحفية ١٢٧
- الأهرام في قبضة انعدام المهنة ١٢٧
- تجربة ذاتية ١٢٨
- مذبحة الكِبار في الأهرام ١٢٩
- خطة طمس هوية الصحيفة ١٣٩
- حرية الرأي كانت روح الصحافة ومعنى وجودها ١٤٢
- الصحافة والرئيس بعد ثورة ٢٥ يناير ولغة خطاب مضاد للصحافة والإعلام ١٤٩
- الصحافة الحرة قد تكشف علاقة قيادات الإخوان بالمخابرات الأمريكية ١٥٣
- الصحافة جزء من العملية السياسية للدولة ١٥٦
- الفراغ الفكري في فترات التحولات السياسية ١٥٨
- التداخل بين الصحافة والسياسة ١٦١

الختام:

- الإعلام المرئي يدخل شريكًا للصحافة المكتوبة ١٦٢
- الصحافة في مصر في مرحلة انتقالية من بعد ٢٥ يناير - و٣٠ يونيو ١٦٢
- صدر للمؤلف ١٦٩

طبعت بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب حصاد تجربة ذاتية في عالم الصحافة لسنوات تجاوزت الخمسين، وفي عهود خمسة رؤساء للدولة تباينت فيها ظروف العمل الصحفي، والحياة السياسية.

والصحفيون يؤدون دورًا، قضيته الأساسية القارئ، فهو يتلقى الصحيفة كل صباح، منتظرًا منها أن تفتح أمامه نافذة، يعرف منها ما يجري في بلده، سواء بما تنقله عن الدولة، أو بما تجتهد هي من ناحيتها لمعرفة هموم وأماني المواطن، ووضعها تحت عين الدولة.

وليس كل ما يجري في عملية صناعة الصحيفة، يصل للقارئ، فالمتاح له هو المنتج النهائي، أما الكواليس ففيها أحداث قد تحجب معلومات بشأنها عن القارئ، لأسباب مهنية، أو رقابية، أو لطبيعة صناعة الصحيفة. عندئذ قد يشعر القارئ بأن ما حملته إليه السطور على الورق، لا تشبعه ولا تقنعه.

ومن وراء الكواليس ينقل الكاتب بعضًا مما كان يجري من خلال معايشته ومشاهدته من حكايات وأحداث، بعضها غاب عن علم القارئ، وبعضها نقل إليه في صورة ناقصة وغير مكتملة، أو ربما لأنها صدرت لنا من دول خارجية، في صياغة مراوغة، أو مصنوعة، لهدف يخصها.

الغلاف: هدى جمعة محمد

ISBN# 9789779115863

6 221149 048812

١٥ جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب